نينار إسبر

أحاديث مع والدي أدونيس



نينار إسبر

أحاديث مع والدي أدونيس

ترجمة حسن عودة



دار الساقي

بيروت ـ لندن

Ninar Esber, *Conversations avec Adonis, mon père*

الطبعة العربية

الطبعة الأولى ٢٠١٠

ISBN 978-1-85516-366-9

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣
هاتف: ٨٦٦٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ (٠١)
e-mail: info@daralsaqi.com

إلى أرواد

إلى غابرييل

إلى فيرونيك. هـ

إلى لطيفة بنت عمر

إلى كل البنات اللواتي يُحببن آباءهنّ.



المحتويات



مقدّمة

عزمت على إجراء هذا الحوار مع والدي، أدونيس، لأنّني كنت بحاجة إلى معرفته، وإلى قضاء بعض الوقت معه على الأخصّ. كنت أودّ أن يحدّثني في أمور شتّى، وأن يجيب عن أسئلة أطرحها عليه. أسئلة أطرحها بوصفي «ابنة»، ابنته، وليس بوصفي صحفية، أو مثقّفة، أو كاتبة. . . كنت أريد أن أطرح عليه أسئلة بسيطة، وأسئلة معقّدة، أن أملكَ الحقَّ بأن أوجّه إليه أسئلة جوفاء، أو بليدة، غبيّة أو ساذجة، أو ذكيّة. دون أن تقيّدني أيّة رقابة ذاتيّة. ولا تتحرّى أسئلتي هذه رؤية أدونيس السياسية، وليس لها أيّة علاقة بكتاباته، وإنّما به هو، كإنسان، وكأب، وكشاعر.

لابدّ أن أضيف أنّ أبي، أجاب، خلال الحوار بإجابات، وبردود أفعال تقليدية لأب تجاه ابنته. إجابات ما كنت أتوقّعها. لقد حاول أحياناً أن يستشيرني، متقلّداً دورَ محامي الشيطان، إمّا ليتعرّف إلى أعماق تفكيري، وإمّا ليرغمني على اتّخاذ موقف، أو على تحديد موقعي وخياراتي.

أجدُ من المضحك أن أكون مرغمة على المرور عبر ذريعة الحوار كي أقيم علاقة أب/ بنت في النهاية وأن أكون مضطرّة أحياناً إلى أن أقول بيني وبين نفسي: «عجباً، ولكنَّ هذا ردٌّ تقليديٌّ إلى حدٍّ ما، أو ردٌّ ذكوريٌّ قليلاً».

لست أشعر بالأسف اليوم على كل ذلك «الغياب الأبويّ» خلال طفولتي ويفاعتي. فقد أتاح لي ذلك الغياب أن أطوّر شخصيّتي دونما حواجز أو أسوار. حتّى لو كانت تلك الحواجز مفيدة لي.

حينما نترعرع في ظلّ صورة أب «هائلة الأبعاد» دون أن يكون ذلك الأب حاضراً، هناك، فكأنّنا في وسط اللُّج، دون أن نعرف السباحة، فنحن نرى البحر ممتدّاً أمامنا، والأرضَ تنسحب من تحت أقدامنا. ولا تعود لدينا أيّة إمكانية سوى الغوص في الماء. حينذاك لا ندري إلى أيّة جهةٍ نُيمّم وجوهنا، لا ندري أيَّ موقفٍ نعتمد، فلا ننفكُّ نصارع، ونبتلع الماء، ونختنق، ونسعل، حتى ننتهي بأن نستعيد إيقاعنا الخاصّ، واتجاهنا الخاصّ.

وإذا ما التقينا من جديد بذلك الأب، ونحن في الطريق وسط الماء، كانت تلك مكافأة أو بشارة، لأنّنا كنّا قد نسينا في الطريق إلى أين نمضي، وما إذا كنّا سنعثر على أحد أم لا.

ولكنّني أشعر بأنّني قد التقيتُ أبي هذه المرّة، بفضل صدفة مدروسة في نهاية المطاف.

١

Forever Young(*)

نينار: «لو عرف الشباب، لو قدر الشيوخ». هذه عبارة مأثورة تبدو لي على قدر من السذاجة، ولكنها ما تبرح تداعب ذهني دون أن أُفلح في فهم مغزاها. هل ترى بأنها تلخّص دورة الحياة؟ أم أنها ليست سوى عبارة جوفاء؟ ما الأعمال الجليلة التي لا يعود الشيوخ قادرين على إنجازها؟ وكيف يتعيّن على الشباب أن يديروا دفّة شبابهم؟

أدونيس: هناك، في اعتقادي، علاقة تواشُج بين الشباب والشيخوخة. فالشيخوخة مرتبطة بالشباب، بقدر ما يرتبط الشباب بالشيخوخة. غير أن هذا النوع من الأسئلة يتعذّر أن ينطبق على الناس جميعاً، لأن حياة كل منهم تتسم بالفرادة والخصوصية، فكل فردٍ من الأفراد يرسم لحياته طريقاً، جادّة، وهو يلتزم هذه الجادّة، أو لا يلتزمها. لكي نستطيع الإجابة عن هذا السؤال لابد لنا من أن نسأل الشخص عما إذا كان يعتقد بأن لحياته الشخصية معنى من المعاني؟ وما هو هذا المعنى؟ فإذا كان يعتبر حياته

(*) **شابّ إلى الأبد**، عنوان أغنية لفرقة آلفافيل Alphaville، ١٩٨٤.

كحياة شجرة، فإن هذا السؤال لا يعنيه في شيء. لأنه ولد دون اختيار، ثم قُذف به في هذا العالم فعاش متقلّباً متأرجحاً، تجرفه الأحوال والمصادفات، وتتقاذفه رياح الحياة... أما إذا اعتقد هذا الشخص، على النقيض من ذلك، بأن لحياته معنى، فسيتولّد لديه حينئذ شعور بأنه يتقلّد مسؤولية حيالها، فيسعى إلى تجميلها وترقيتها، وجعلها أحفل بالحرية، وإدراجها في هذا العالم. انطلاقاً من هذه النقطة فإن الأشياء تغدو مختلفة. ما أؤكد على أهميته هنا هو أن الإنسان مدعوّ إلى بناء حياته أو إهمال بنائها. هذا إذن مرهون بالأشخاص. فيما يخصّني أنا، فإنني إذا لم أكتب أحسّ بأن حياتي فارغة من المعنى، لأن الكتابة تتيح لي أن أفهم نفسي، وأن أفهم، على نحوٍ أفضل، العالم الذي أحيا فيه. تتيح لي الكتابة أن أرقى بحياتي، وأن أوسّع حدودها، وأن أقدّم صورة أخرى للحياة وللعالم لعلّها تفيد أولئك الذين يميلون إلى الانفتاح والتأثر... لهذا السبب، أقول بأن الشباب والشيخوخة مترابطان أوثق ارتباط.

تلكم حلقة كاملة تنغلق بالموت. غير أنها أحياناً لا تنغلق حتى مع الموت، ذلك أن المبدع آيل في النهاية إلى الموت ولكنّ عمله يبقى من بعده. نصوصه، موسيقاه، فكره، إلخ. ويغدو عمله جزءاً مندغماً في حركة الحياة. خلال تاريخ الإنسانية انطوت صفحة حياة العديد من عظماء المفكرين، والفلاسفة، والشعراء، والرسامين، ولكن أعمالهم ما تزال تعيش معنا. غابت أجسادهم، ولكنهم موجودون بيننا، نقرأ أدبهم، وشعرهم، ونسمع موسيقاهم. وينشأ تواصل بيننا وبينهم. إنهم يساعدوننا

ويُضيئون دربنا. . . الأمر الجوهري في الحياة، إنما هو الخلق والإبداع. حتى الطبيعة هي في حالة خلق دائم. فحين نتملّى نباتاتها، وزهورها، وأنهارها، وفيضاناتها، وبراكينها، تطالعنا حركة دائبة، وتغيُّر متواصل. وحياة الإنسان أشبه بهذه الحركة. إن جوهر الكائن الإنساني، كما أراه، رابض في طاقته على خلق الأشياء التي تتخطاه. ذلكم هو ما يميّزه عن الأنواع الحيّة الأخرى التي ليس بمُكنتها الانفصال عن الطبيعة. ولهذا فهي أعجز عن أن يكون لها تاريخ، بخلاف الإنسان الذي هو قادر على الانفصال عن الطبيعة، وهو قادر أيضاً، بنحوٍ مجرّد، على أن ينفصل عن ذاته. وله سلطان على الطبيعة قادر على تدميرها. وهذا التفاعل المتبادل هو الذي يخلق تاريخه. إن الخير الأسمى بالنسبة إليّ هو أن نعيش الحياة على رحبها وامتلائها، وأن لا نتوقف خلالها عن الخلق والإبداع، حتى نرقى بها إلى أُفق الكمال. والواقع أن الإنسان لا يموت مرّة واحدة! بل إنه يموت مرّات عديدة خلال حياته، حين تُبرّح به الكروب، كروب الفقر والخيانة وفقدان الحيوية والنشاط، إلخ. كما أنه يولد من جديد مرّات عديدة بفضل سعيه الدؤوب إلى الخلق والإبداع.

ن : بهذا المعنى، ليس هناك فرقٌ بين الشباب والشيخوخة؟

أ : نعم، بهذا المعنى، ليس هناك فرقٌ. . . .

ن : هناك استمرارية. . .

أ : ثمّة فرقٌ في الدرجة. فالشيخوخة تجعلنا أكثر نضجاً، بنحوٍ ما. والشيخوخة في الوقت نفسه عودة إلى الطفولة. وبها

تُقفَل الحلقة. فالولادة تُخرج الإنسان من العدم، من الموت إذا صحّ القول، والشيخوخة تُدنيه من الموت. وكلما اقترب من الموت اقترب من أصوله البدئية. . . فالموت وجه آخر للحياة، والشيخوخة شكل آخر للطفولة. . .

ن: قلت إنّ المرء حين يكون مبدعاً، ثم يخلّف أعمالاً بعد رحيله، فهذا يعني أنه لم يمت، لأن أعماله تبقى من بعده، ولكنني أقول إنّني لست أبالي بأن يبقى عملي من بعدي حين أكون قد رحلت عن الدنيا، ولم أعد موجودة. يبدو الأمر كمن يترك أولاداً من بعده. . . فالناس بوجه الإجمال، ولا أعني الجميع. . . يُنجبون أبناء كي يخلفوهم بعد غيابهم.

أ: بصدد الأولاد، فهذا شأن آخر، سأتحدث عنه في ما بعد. . . ولكنني أودّ أن أقول كلمة أخيرة بخصوص الموت، وما يبقى بعده من أعمال. إن واقع كونك معاصرة لفنان، أو لمفكر، يخلق، على الأرجح، بينك وبين عمله حجاباً، أو حاجزاً، فأنت لا تستطيعين معرفته حق المعرفة، ولا الإحاطة به. فإذا عشت مع عبقري كبيكاسو مثلاً فليس بمقدورك فهم سائر أعماله خلال حياته. إذ من الممكن أن يكون هناك حاجز الحسد. أو المنافسة، أو الكراهية.

ن: ليس هناك قدر كافٍ من المسافة ربما؟

أ: بعد الموت، يغدو من الممكن، ربما، فهمه بنحوٍ أفضل، إذ تسقط الحُجب ولا يبقى سوى العمل. يساعد الموت أحياناً على إضاءة شخصية من الشخصيات، أو عمل من الأعمال.

ن: أنت تعتقد بأنه لابد من انتظار موت الفنانين، والمبدعين العظام ابتغاء فهمهم؟

أ: ذلكم هو القانون الذي يُجسِّد عاديّةَ الحياة وابتذاليَّتَها... فالحياة ميدان صراع، والقوي فيها يأكل من هو أضعف منه. ليس في الطبيعة قانون أخلاقي يحكم الأشياء. وكذلك الحياة، فهي تخلو حقاً من قانون أخلاقي، حتى لو كافح الناس لفرض قانون كهذا... فنحن نعلم بأنهم لم يفلحوا دائماً في ذلك...

ن: هل تعتقد أن بمقدور ابنٍ أن يعيش بعد رحيل أبٍ مثلك، وعلى الأخص وسط عالم عربي تأخذ بخناقه أزمة اجتماعية وسياسية ودينية وثقافية؟ عالم مُنهك في تعصّب أعمى ومدمّر؟ فأنت تمثّل لي نوعاً من الأمل، وسوراً يحميني من هذا التردّي الذي يشهده العالم العربي، ومن التطرّف الإسلامي الذي ليس له من هدف سوى الإمساك بمقاليد السلطة. إذا غيّبك الموت ولم تعد موجوداً بيننا فإن إحساساً عميقاً يراودني بأنني سأكون عُرضة لهذا العنف، بنحوٍ مباشر. ولا أدري إن كنت سأملك سلاحاً لمواجهته، أو لتفاديه، أو لفهمه. لهذا السبب فإنني أُحسّ بالأمان في أوروبا، إلا حين أرى أصوليّين مجانين في لندن يعطون لأنفسهم الحق في التلفظ بفظاعات، وفتيات في باريس يردن بإصرار ارتداء الحجاب، والانغلاق على أنفسهن، ووضع الأغلال في أعناقهن، في الوقت الذي تناضل فتيات أخريات في العالم العربي الإسلامي، مجازفات بحياتهن أحياناً،

بُغية نزع الحجاب، أو عدم الخضوع له على الأقل. والواقع أن أوروبا نفسها لم تُفلت من قبضة هذه الأصولية. يخطر لي هنا بالطبع حركات اليمين المتطرّف... ولكن أوروبا، لحسن الحظ، تعيش في ظل قوانين صارمة، وحكوماتها قوية. خذ فرنسا، مثلاً، فهي بلد علماني (أتمنى أن يظل كذلك حتى أبد الآبدين) وديموقراطي... وعلى الرغم مما يمكن أن يقال عن هذا البلد، فإنني أشعر فيه بالأمان...

أ : في الوضع الراهن، نعم. ولكنك إذا تصفّحت التاريخ وجدت أن أوروبا مرّت في حِقب مظلمة، لم يكن هناك قوانين ولا أمان. في حين أن العرب في الفترة ذاتها كانوا أكثر تقدماً بمراحل من الأوروبيين. تختلف الحقب التاريخية تبعاً للتبدلات السياسية والاجتماعية. فإذا كانت الأصولية شائعة اليوم فلا يذهبن بنا الظن إلى أن العالم قد انتهى، وأن الأصولية ستظل متسيّدة إلى الأبد. لا يجوز تفسير ظاهرة الأصولية بالحديث عن قوة شوكتها. ينبغي تفسيرها، بالأحرى، من خلال ضعف القوى التي هي عاجزة عن التصدي لها.

ن : أليس في الأفق ما يبشّر بتقديم بديل لها؟

أ : ليس هناك من بديل. ففي مقابل الأصولية هناك فوضى وضعف ولامبالاة... وهذا الضعف المستتبّ في جسد المجتمع وعلى مستوى الدولة هو الذي يعطي الانطباع بأن الأصولية قوية ومتغلغلة في كل مكان. ولكن هذا ليس هو واقع الحال. يبدو الصراع مع الأصولية في الوطن العربي اليوم ضعيفاً، بل شبه

معدوم. ولعل هذا عائد إلى الوضع الاجتماعي المتردي وإلى البؤس المستشري، اقتصادياً وفكرياً، بالإضافة إلى العوامل التاريخية التي ما تزال تفرّخ حكومات وحكاماً دكتاتوريين فرضوا سطوتهم على الفرد، على عقله، وجسده وأحلامه... ضمن هذا السياق يشعر الفرد بأنه مصفّد كلّياً بالأغلال، سجين أبدي... ولكن لا يجوز النظر إلى هذا الوضع على أنه نهائي، مطلق... ولكي أعود إلى ما يتعلق بي من سؤالك، فأنا أعتقد بأن الحياة تغادر الأفراد وتتخطاهم، أياً كانت أهميتهم أو «عظمتهم»، سواء أكانوا آباء، أم أصدقاء، أم رؤساء، أم شعراء... كل «عظماء» التاريخ تجاوزتهم الحياة...

ن: تجاوزتهم، ولكن...

أ: أجل، جسدياً...

ن: نعم.

أ: لهذا فإن الحياة لا تتوقف، وهو ما يؤكد أن البقاء ممكن. على الأب أن يعيش بعد موت والده. أو بعد موت ابنه أحياناً... علينا أن نتقبل الموت بوصفه جزءاً من الحياة. فإذا مات والدي، فلا يمكنني أن أموت معه. بل عليّ أن أستمدّ قوّة من قوّته، وأن أقتدي به، أكافح مثلما كافح، وأعطي معنى لكفاحي... أما إذا مت بعده، فإن موتي لن يخلّف أي أثر. تكمن قوة الحياة في تجاوزها لكل شيء. تلك هي عظمة الإنسان أيضاً، إنها تشكل جزءاً من التاريخ، غير أن بوسعها أن تتجاوز التاريخ.

ن: هل تظن أن بإمكاني مواجهة أو تجاوز هذه الحِقبة القاتمة؟ هل تعتقد حقاً بأنها حِقبة «انحطاط».

أ: هل تتحدثين عن نفسك؟

ن: نعم، نعم...

أ: بما يتصل بك وبجيلك... فلكي تكونوا أقوياء، اجعلوا نُصب أعينكم أن يكون كلٌّ منكم هو نفسه، وأن يظل هو نفسه. ذلك لأن شخصاً ضعيفاً لا يمكنه أن يقاوم، أو أن يكون له دور يلعبه داخل المجتمع. خليقٌ بكم إذن الانخراط في العمل وبناء الذات... وهذا يقتضي إقامة علاقة، أو الإبقاء على علاقة مع العالم الذي يحيط بكم. إن شخصاً غير منتج هو شخص عديم الوجود، لا يفارقه الإحساس بأنه غير موجود. لهذا فحالما تشعرين بأنك قادرة على إنتاج شيء ما، تشعرين في الوقت نفسه بأنك تسهمين بنصيب في سيرورة العالم، وتشاركين في بناء العالم. من هنا تنبع قوتك، وما من أحد قادر على انتزاعها منك. ما من أحد يستطيع أن يزلزل مواقع قدميك.

ن: هل تتخيّل والدك يعيش في أيامنا هذه؟ هل تراه بعينَي خيالك وهو يتحدث ويعيش في القرية؟ أو في دمشق؟ كيف تتصوَّر ردَّ فعلِه حيال النظام الحاكم في سورية؟ أو حيال التطرف الديني؟ هو الذي كان يُلقّب بالشيخ تقديراً لحكمته، وسعة معرفته بالقرآن وبالثقافة العربية؟

أ: يسكن والدي في عقلي، على الرغم من أنني لم أعرفه معرفة حقيقية..

فقد غادرت المنزل العائلي منذ حداثتي الأولى، ومات هو في ريعان الشباب... كنت غائباً حينما فارق الحياة... أذكر جيداً مع ذلك أنه لم يقل لي قط في يوم من الأيام، افعل كذا أو لا تفعل كذا... كان ينصحني على الدوام بأن أمعن التفكير قبل أن أُقدِم على أي فعل، أو أتخذ أي قرار. كل ما كان يقوله لي: «حالما تدرس المسألة من كل جوانبها يمكنك أن تقرر، ولكن حذار أن تفعل شيئاً قبل أن تفكر بعمق». ذلك ما حاولت أن أفعله مع أختك أرواد. فقد جاءتني يوماً لتقول لي إنها راغبة في الانضمام إلى أحد الأحزاب. قلت لها: «أنا لا أعارض رغبتك، ولكن قبل أن تتخذي قرارك حاولي الاختلاط بهم، والعيش معهم، وسبر أغوارهم، وانظري كيف هم، وكيف يفكرون، وماذا يفعلون، وحينذاك يمكنك أن تتخذي قرارك، بعد معرفة الوقائع كافة». وعادت إليّ بعد بضعة أشهر وقالت لي: «لم أقتنع بهم، لقد غيّرت رأيي!» ما تزال علاقتي بوالدي تعذّبني حتى اليوم. فأنا لم أعرفه معرفة كافية، وحينما وافته المنيّة لم أذرف دمعة واحدة... لا أدري لماذا... ولكني بمرور الزمن، كلما فكرت فيه استبدّت بي رغبة في البكاء... لقد اكتشفت إلى أي حد كان لي صديقاً، لم يكن يمثل لي أباً في الحقيقة؛ ورغم أنه كان يوحي بالقسوة والصرامة، فقد كان في قرارة نفسه عطوفاً متسامحاً مثل صديق. ومن أسف أنني لم أدرك ذلك إلا بعد موته... وتلك حسرة ثاوية في أعماقي! والآن، فأنا مُفعم بالعِرفان والوفاء لذلك الضوء الذي لمحته فيه. وحتى لو لم أتحدث عنه، فهو يسكن في داخلي. أنا أحاول في كثير من

الأحيان أن أستحضره في ذاكرتي، أفكر في شخصه وفي صداقته. . . فهو حاضر معي، وحتى لو لم أشاركه في آرائه ووجهات نظره، فإن ثمّة سرّاً عميقاً يشدّني إليه. . . وهذا ما يمنحني القوة، ويتيح لي أن أعيد النظر في كثير من الأشياء، وأن أكون محترساً في خياراتي. إنه أشبه بضوء يغمر داخلي، وهذا الضوء لا يخمد أبداً. على العكس، فكلما تقدمت في رحلة الحياة رأيت ذلك الضوء يكبر ويتألق ويغدو أكثر سنى. والأمر الغريب، هو أنني نسيت كثيراً من الأشياء ومن الصور أو حتى من الوجوه، ولكن الصورة الأخيرة التي أحتفظ له بها عالقة في ذاكرتي لا يطويها النسيان قط، كما لو أنه ما يزال واقفاً هنا أمامي. ترى، ما الذي كان سيفعله لو كان بيننا اليوم. أعتقد أنه سيكون معتكفاً في بيته، يقرأ، وربما يكتب أيضاً. لأنه كان هو نفسه شاعراً. . . ثمة سجية بارزة لدى والدي هي قوة شخصيته. كان قوياً، لا يحني هامته لأحد. . . حتى أنه كان أحياناً يجد نفسه وحيداً في مواجهة شخص من الأشخاص، محافظ المنطقة، أو مسؤول سياسي، إلخ. كان الجميع يذهبون للترحيب بالرجل القوي، أما هو فيظل في بيته مبدياً عدم اكتراثه أو معلناً معارضته. أذكر أنني حين كنت فتى يافعاً، ذهبت مع جميع أهل القرية لاستقبال رئيس الجمهورية آنذاك شكري القوّتلي. كنت أريد أن ألقي قصيدة كتبتها لتلك المناسبة، أرحّب فيها بقدومه وألتمس منه إدخالي إلى إحدى المدارس من أجل التعلم. لم يثنني والدي يومذاك عن عزمي. كنت ما أكاد أبلغ الثالثة عشرة من عمري، رغم أن المهرجانات كانت مقامة بإشراف رئيس بلدية جبلة الذي

لم يكن يكنّ لوالدي أدنى شعور بالمودة، وكان والدي يبادله الشعور نفسه. رغم كل هذا، قال لي: «اذهب في عناية الله، أتمنى لك حظاً طيباً، أما أنا فلن أذهب...» تلك أشياء لا أنساها أبداً، ولم أُفلح قط في تحليل تلك الحركة السمحة التي كشفت عن عمق حكمته وعن احترامه لي ولرغباتي.

ن : لقد لقّبوه بالشيخ، فكيف اكتسب هذا اللقب؟

أ : الواقع أن هذا اللقب لم يأته عن طريق الوراثة، بل بسبب ما كان يتصف به من حكمة. كان رجلاً بالغ الحكمة، واسع الثقافة، متبحراً. وتقديراً لمعرفته ولطيبته العظيمة لقّبوه بالشيخ.

ن : من الذي لقّبه؟

أ : الوجهاء، والمثقفون ورجال الدين...

توقف الحديث هنا ثم استؤنف بعد قليل من الوقت.

ن : قرأت لي منذ وقت ليس بالبعيد بيتاً لأبي العلاء المعرّي يطلب فيه من شخص كان يسير أمامه بأن يمشي الهُوَينى لأنه كان يطأ بقدميه أجساد البشر والحيوانات الثاوية تحت التراب.

أ : خفّفِ الوطءَ ما أظنُّ أديمَ الأرضِ إلاّ من هذهِ الأجسادِ
يقصد أجساد البشر.

ن : إنه يتكلم عن البشر! كنت أظنه يتكلم عن الحيوانات والحشرات!

أ: لا. عن الكائنات البشرية.

ن: لم أكن أدرك ذلك في الواقع. لقد ذكرت هذه الأبيات خلال غداء مع أصدقاء لك في كفريّا، في لبنان. كان الحديث يدور حول الحيوانات وقلت إنني كنت أشعر بالصدمة من جرّاء بعض التقاليد الدينية، وبعض الطقوس كالتضحية بالخرفان في عيد الأضحى لدى المسلمين، أو ما يفعله أشخاص آخرون في هذا العالم، بنحو أشد فظاعة وعمومية (في أفريقيا بالتحديد، في ناميبيا، يمارسون ما يُسمّى «الصيد بالعلبة»)...

أ: ما المقصود بذلك.

ن: في ناميبيا أنشأ أصحاب مزارع، من أجل جمع المال، محميّات طبيعية للأسود والزرافات والغزلان والفِيَلة، إلخ. وعرضوا على أصحاب المليارات القدوم إلى مزارعهم للصيد لقاء خمسين ألف دولار. وهؤلاء الصيّادون، الجبناء، يصيدون بالفخاخ أشبال الأسود بغية اجتذاب اللبوة الأمّ التي ما تلبث أن تتجه نحوهم للبحث عن صغارها... وحين تصبح على مبعدة أمتار قليلة من الصياد الواقف داخل سيارة جيب يُصليها بنار بندقيته ذات المنظار البالغ الدقة. وتنهمر فوقها الطلقات، واحدة، اثنتان، ثلاث، أربع، وإذا ما حاولت النهوض لحماية صغارها... عاجلها الصياد بصليات متواصلة من بندقية!... مجزرة حقيقية! وهم يمارسون لعبة الصيد هذه مع الفيلة، والزرافات...

يقول هشام شرابي: حينما يكفّ الإنسان عن قتل الحيوان

من أجل طعامه، يمكن الحديث حينئذ عن ارتقائه إلى أفق الإنسانية. هذا صحيح جداً، ألا توافقني؟

أما أنا، فأحب الحيوانات والأشجار حدّ الهيام... وقد نشأ لديّ هذا الولع بسبب إقامتي في بيروت وبسبب الحرب التي دارت فيها... أمضيت خمس عشرة سنة من حياتي دون أن يتاح لي رؤية الحيوانات، إلا في السينما والتلفزيون... (رأيت مرة عجلاً في القرية!) أما في بيروت فإن الحيوانات الوحيدة التي كنت أراها هي الدجاجات المعروضة في حانوت الجزّار!... أو الديكة المدرّبة على الصراع والتي كان يربّيها جيران لنا يقيمون خلف عمارتنا في مبنى موقت، مخالف لقوانين البناء مؤلف من طابقين تمتد أمامه فُسحة من أرض خلاء ذات تربة حمراء، وقد استمر هذا المبنى الموقت مع ذلك سنين طوالاً. كانت الشرفة المتصلة بحجرة نومي تطل على تلك الفسحة الخلاء مباشرة. وفي أيام الآحاد، كانوا يخرجون الديكة، ويحضر مدعوّون مع دِيَكتهم، ثم ما تلبث أن تبدأ المعارك. كنت أسمع صيحات الديكة وأنّاتها دون أن يكون في طوقي أن أفعل شيئاً. كان الديك يخرج مهزوماً من حلبة الصراع، مضرَّجاً بالدم، يذهب نحو صاحبه. ولكن هذا الأخير، الذي خاب رجاؤه، وفقد ماله وماء وجهه كان يعاجله بركلة مؤذية تطيحه!... وهناك الخرفان المعدّة للذبح في الأعياد. كنت أراها من نافذة السيارة مقيّدة القوائم، ومرقّمة... يقدّمون لها بعض العلف لتأكل. وكان الأولاد يقذفونها بالحصى أو يداعبونها.

والحقّ أن هذه العلاقة العنيفة مع الحيوان ما برحت تصدمني

وتصيبني بالهلع. دعك عن القطط التي كنت أراها مسحوقة تحت عجلات السيارات، عيونها ما تزال مفتوحة، وفكوكها محطمة، وماذا عسى أن أقول عن العصافير التي لم أعد أرى واحداً منها يعبر سماء بيروت ويحط على غصن شجرة، اللهمّ إلا في أطباق الطعام أحياناً!...

في ليالي الشتاء، حين كان جحيم القصف يهمد قليلاً في آخر النهار، وقبل أن يُستأنف على نحو أعنف في وقت متأخر من الليل، كنت أسمع في بهمة الليل مواء ضعيفاً ينبعث من المباني المهجورة أو المهدمة. وكنت أتساءل عما يعنيه ذلك، ثم ما ألبث أن أدرك أنه صادر إما عن هِرّة صغيرة تبحث عن أمّها التي يعتريها الجوع أو الخوف، أو عن هِرّة تبحث عن صغارها المذعورة في عتمة الظلمة. لأن ذلك المواء لا يشبه أبداً مواء القطط التي تنعم بالدفء والأمان، أو التي ترتع هانئة في مراتعها... كنت أتحرق رغبة لحمايتها، ومواساتها. لم يكن من الصعب عليّ أن أحسّ أو أدرك مدى جزعها وكربتها. لأنني أنا أيضاً كنت جزعة مكروبة. كنت أرتعد فرقاً من أن أموت، وكان أكبر خوفي أن يموت والداي. كنت أهبط الدرج مع أمي في حلكة الليل لنقدم لها الطعام قطعاً من جبنة البقرة الضاحكة. واليوم أيضاً، حينما أعود إلى بيروت أصادف قططاً في الشوارع، وألمح الخوف في عينيها وهي تحاول عبور الشارع بين السيارات الضخمة أو أرجل المارّين. تلبد القطة في طرف الشارع، عيناها جاحظتان، وأذناها مرتدّتان إلى الخلف، تُحرّك رأسها يمنة ويسرة بحركات سريعة، محاولة شق طريق لها وسط الزحمة المهلكة. حينما أرى ذلك

المشهد تخامرني رغبة في البكاء، وأتخيل ماذا يمكن أن يدور داخل رأسها. . . لقد كان غياب الحيوانات التي تنعم بالأمن والطمأنينة سِمة بارزة من سِمات حياتي.

شهدت من العنف ما يفوق حد الوصف، رأيت أيضاً أناساً يموتون، أصدقاء لك يتعرضون للاغتيال، يخترم العنف حياتهم، موتى تحت القصف، أطفالاً مروّعين أو جرحى. ولكن الأطفال كانوا غالباً موضع حدب ورعاية، بفضل روح التكافل التي تجلّت خلال الحرب، فإذا كان آباؤهم غائبين أو موتى تكفّلتهم عائلة من الجيران أو حتى أناس غرباء. كان الطفل يجد من يتكفل به ويحميه (في حدود الممكن، لأنني أدركت، بمرور الوقت، أن من الوهم الاعتقاد بإمكانية حماية أحد من أنياب الحرب). والأمر نفسه بالنسبة إلى الأشخاص المعمرين.

كثير من الأولاد كانوا يمثّلون لعبة الحرب، كأنما من أجل تعزيم هذا العنف المنفلت من عقاله، وطرد خطره المميت. وكان الآباء يعكفون على تفسير سبب الضجة المصمّة حينما ترتطم قنبلة في المبنى، والصفير الذي يسبق انفجارها، والانفجار الذي يعقب ذلك، والذي يمكن أن يطوّح بولد أو براشد، قاذفاً به صوب الجدار أو صوب الأثاث، أو زجاج النوافذ، إلخ. ثم يندلع الدخان مغشّياً القلوب والأبصار فلا يعرف أحد ما يأتي وما يدع، ويعبق الجو برائحة البارود والأدخنة التي تبعث على الاختناق. غير أني لم أكن أقلق دائماً إلا على القطط! كيف تُفسّر كل ذلك؟

طالما استبدّت بي رغبة مجنونة بأن أقتني حيوانات، كي

أراها تنعم بالأمن والطمأنينة، بيضاء من كل سوء. كنت مولعة باقتناء القطط، وبتربية الصيصان على الأخص. ولكن هذه الصيصان كانت تكبر بعد حين فأجد نفسي مضطرة إلى مفارقتها، وكان هذا يغرقني في الألم. كان لابد من إرسالها، لا أدري إلى أين، إلى من يزعم بأنّ لديه فِناءً يربّي فيه فراخ الدجاج!... كان الجميع يكذبون عليّ حين يقولون إنّهم سيطلقونها ترتع مع الفراخ الأخرى، وإنها لن تموت إلا حينما يوافيها الهرم. ولكنني كنت أعلم جيداً بأنها كانت ستنتهي وشيكاً في أطباق الأشخاص الذين يستقبلونها. لم أكن أملك في الواقع خياراً آخر. أتذكر الآن فرخاً صغيراً كنت مولعة به بوجهٍ خاص، ولما آن الأوان الذي كنت سأفارقه فيه مكرهة، طليت براثنه بطلاء الأظفار، كي «أتمكن من التعرف إليه حينما أزوره!».

ربَّيت أيضاً ديدان القزّ! وكان تقبّلي لرؤية فراشات الديدان وهي تموت نوعاً من التدريب لي على مرارة فراقها. أذكر أنني صُدمت في البداية... كانت هذه الديدان البالغة الظرف تصدر أصواتاً خافتة، فيما هي تلتهم أوراق التوت التي كنت لا أتوانى في البحث عنها وتقديمها لها.

من المؤكد أننا لم نعد اليوم بحاجة إلى الصراع مع الطبيعة لتأمين عيشنا واستمرارنا؛ فما دمنا قد أخضعناها لمشيئتنا خليق بنا أن نحميها لا أن ندمّرها. أعلم أنه في سبيل المال والمنافع يبيع البعض جلد أبويه... ولكنني أحاول دائماً أن أكون واقعية، يلازمني الأمل بأن لا يكون البشر جميعاً سفّاحين (أنا أمزح!).

أ : من المؤكد أن هذه أمور رهيبة، مُسرفة في القسوة. أوافقك الرأي. ولكن الناس أيضاً يقتلون بعضهم بعضاً! أنت على صواب في موقفك تجاه الحيوانات، وأنا أيضاً أتبنى الموقف عينه. أعتقد أن من الواجب مكافحة الأشخاص الذين يُنزلون الأذى بالحيوانات وبالطبيعة، ولكنك تعلمين بأن البشرية بأجمعها قامت على أساس من التضحية، فقد كانوا في ما مضى يقدّمون أجمل الفتيات قُرباناً للآلهة. . . وفي كل حال، فإن هذه تقاليد أو عادات ينبغي محاربتها.

ن : أجل، لا يجوز الاحتفاظ بها وتخليدها لمجرّد كونها تقاليد.

أ : بالتأكيد، يتوجب التخلي عنها ونبذها، وحماية الحيوانات. ومع ذلك ربما يكون الصيد أحياناً نافعاً ابتغاء ضبط الأنواع. فإذا تكاثرت بعض الأنواع دونما حد، فمن الممكن أن تدمّر الطبيعة. ولكن ينبغي أن نرفق بالحيوانات لدى قتلها، وأن لا نجعلها تتألم، ولا نقتلها لمتعة القتل. وعلى أي حال، فإن عادة حماية الحيوانات هي أيضاً تقليد شائع في الإسلام.

ن : آه، صحيح؟

أ : الشاعر أبو العلاء المعرّي كان نباتياً. ولم تمتد يده إلى لحم أي حيوان بسبب احترامه وحبه للحيوان.

ن : ما الذي تراه الديانات التوحيدية بشأن الحيوانات؟ بأنها من نعم الله، مخلوقة كي يتغذى بها البشر؟

أ : من المباح في الواقع تربية حيوان من أجل الانتفاع بجلده أو التغذي بلحمه. إذ يمكن اعتبار ذلك كنوع من المكافأة. . .

ن : خلال ذلك الغداء الذي أتيت على ذكره سمعت أحد أصدقائك يقول: حينما يبدأ الإنسان بحماية الحيوانات والكفّ عن استهلاكها، ربما أمكن الحديث حينذاك عن انتصار النزعة الإنسانية.

أ : تلك وجهة نظر يمكن الدفاع عنها. . . غير أن من الجائز، على الصعيد العملي، أن يكون تحقيق ذلك متعذراً. فسكان العالم ما انفكّوا يتزايدون بكثافة، بحيث أن جزءاً كبيراً منهم سيفتقر، في المستقبل القريب، إلى الماء النقي، وإلى الغذاء، وسيواجه العالم معضلات بالغة الخطورة. لهذا السبب سُنّت قوانين منع الحمل في بعض البلدان، فالموارد الطبيعية تتضاءل أكثر فأكثر، وهذه معضلة يصعب حلّها.

ن : هل تعتقد بأن لهذا الوضع علاقة بشح الموارد؟ أمّا أنا فلا أرى ذلك. لأن البلدان الغنية، والقوى العظمى، تشنّ الحروب على الأمم الفقيرة والضعيفة كي تضع يدها على ما تحتاج إليه من مياه ونفط ومعادن، إلخ. لقد قام تاريخ البشرية بأكمله على هذا النوع من الحرب. ليست المسألة إذن معرفة إن كانت هناك موارد كافية أم لا. من الممكن، على أي حال، سنّ قوانين صارمة ومُلزمة لترشيد استهلاك الطاقة. نحن نرى الآن العديد من البلدان القوية التي تفتقر إلى الماء، تفضّل الذهاب لسرقته من أرض جيرانها؛ ثمة إرادة للحفاظ على بقاء النوع

الإنساني. فما ضرّ لو كنا نملك إرادة حازمة ومجسّدة في قانون ينصّ على الحفاظ على بقاء الأنواع الحيوانية؟

أ : الحيوان كائن حي، والحياة بكل أنواعها خليقة بالحفظ والصون... غير أن هناك أناساً يغالون على هذا الصعيد... فلا يأكلون بعض النباتات لأنها، حسب رأيهم، تمتلك بعض خصائص الحيوانات... حتى أنني قرأت في مكان ما أن هناك نباتات تقيم علاقة مع الإنسان الذي يتعهدها أو يزرعها... بحيث أن النبات يألف اليد التي تسقيه، وأن بعض النباتات تفقد نضارتها، بل إنها تذوي رويداً رويداً إذا ما قام شخص آخر بسقايتها.

ن : أنا أصدّق هذا دون تردد! فعلى سبيل المثال، حينما أضطر إلى السفر لبضعة أيام أتوجه بالخطاب إلى نباتاتي... وإذا لم يسنح لي الوقت أخاطب شجرة الموز، قائلةً لها إنني سأغيب بضعة أيام... وعليها أن تكون مسؤولة عن بقية نباتاتي. ثم أقول لنفسي إنها ستنقل الرسالة إلى النباتات الأخرى! هناك دراسة عُرضت على شاشة التلفزيون قبل عامين (قناة ديسكفري) بيّنت أن الأشجار تشعر بالألم حينما تتعرض للهجوم، وفضلاً عن ذلك، فهي تطلق إشارات متوجعة للأشجار الأخرى.

أ : يوجد بالمقابل نباتات مفترسة! فهي تفتح أوراقها وتنتظر فريستها، فراشة مثلاً... وحين تحط الفراشة فوقها تلتهمها! هذا يعيدنا إلى الحديث عن الموت، فالموت إنما هو جزء من الحياة. وسواء أكان الموت بالافتراس أو بالقتل فإنه جزء من

سيرورة الطبيعة، حتى لو اعتقدت بضرورة تحاشي قتل مخلوق حي إلى أقصى حد.

ن: هذا هو رأيي أيضاً. إن قتل فراشة، دونما أية غاية، بل لمجرّد متعة القتل يهيّئ، في رأيي، الإمكانية لقتل إنسان أيضاً، ولمجرّد المتعة أيضاً! والعكس ليس صحيحاً بالطبع... فمن يكون لطيفاً مع الحيوانات لا يكون بالضرورة لطيفاً مع البشر!...

يتوقف الحوار هنا، ويُستأنف في اليوم التالي.

ن: حدِّثني عن علاقتك بإخوتك وأخواتك. هل ترى علاقتك بهم طبيعية سهلة، أم أنت تعتقد بوجود فجوة بينك وبينهم، بسبب الشعر، أو بسبب بُعد المزار؟... هل يمكن لـ «صلة الأرحام» أن تعوّض عن هذه الفجوة.

أ: ينبغي ملاحظة الفارق بين الإخوة والأخوات، وأبناء الأعمام، والعائلة. لديّ العديد من الأقارب لم أرهم قطّ، ولم أعرفهم، لهذا فإن علاقتي بهم لا يمكن أن تكون علاقة عادية مماثلة لعلاقتي بالأشخاص الآخرين الذين أعرفهم. أما بخصوص إخوتي وأخواتي فإن علاقتي بهم مختلفة بالضرورة. لقد عشت معهم، وتوثقت صلاتي بهم، على أساس من الحب والمودة. وحين أراهم في ضيق أو عُسر، ويكون في وسعي مساعدتهم فلا أتوانى في ذلك. إنهم يشكلون جزءاً من حياتي... حتى لو لم يكن بيننا رباط «فكري»، وحتى لو لم يعجبهم شعري، فإن مجرد

كونهم إخوتي وأخواتي، وأننا نشترك في الانتماء إلى أمّ واحدة، يجعلني أشعر بمسؤولية تجاههم. أحاول أن أعطيهم شيئاً من نفسي ومن طاقتي لعل ذلك يمكّنهم من مواجهة الحياة، ومن تحصيل العلم. . . ويتساوى الأمر مع أقاربي وعائلتي الأقربين.

ن: من جهتي، وجدت في البداية صعوبة لأحدّد مكاني وسط هذه العائلة. كنت بحاجة إلى وقت للتكيّف، وكان لابد لي من عقد تسويات، وإلا كان ذلك مستحيلاً. . . كان لزاماً عليّ أن أراقب كل ما أتفوّه به كي لا أصدمهم. . . وفي المحصِّلة، فأنا ما أزال أشعر حتى اليوم بأنني لا أشاطرهم كل شيء. وهو ما يخلق، في ظنّي، نوعاً من العُزلة. غير أنني، في الوقت ذاته، أعتمد كل الاعتماد على أصدقائي. والبعض منهم يشكّلون عائلتي الحقيقية، عائلتي التي اخترتها بنفسي، والتي أحبها بكل جوارحي، وأحميها، حتى لو هجرتها أحياناً. . .

أ: هذا لأنك لا تعرفين عائلتك الأقربين! لم تعيشي معهم. ولم تخالطيهم. أعتقد بأنك ستغيّرين رأيك مع مرور الزمن. فكلما تقدّمتِ في رحلة الحياة شعرتِ بأن شيئاً ما ينقصك: الريف، القرية، أجدادك. . . هؤلاء جزء منك. غير أنك الآن، ضمن السياق الذي تعيشين فيه، والأحداث التي تخوضين غمارها، تجرفك الحياة بعيداً عنهم، ولكن مع الزمن ستغيّرين رأيك. . .

ن: هل تقصد أنه ليس لديّ الخيار؟ وأن الأمر هكذا وليس على نحوٍ آخر!؟

أ : أعتقد أن من الخير لنا بالأحرى، حتى على الصعيد الاجتماعي، أن نلتقي الأشخاص، أعني الوسط الذي ننتمي إليه في نهاية المطاف. من المهم جداً التعرف إليهم، ومعرفة كيف يفكرون، وكيف يعيشون، والاختلاط بهم. . .

ن : أجل. هذا ممكن، ولكن بشرط واحد: أن لا تختفي معالم الريف، أن لا يغدو هذا الوسط مدينة من حديد وإسمنت دون وجود أثر لشجرة خضراء! أضيف أيضاً أنّ هذه الفكرة عن الإنسان الذي يعود دائماً إلى أصوله لا تروقني كثيراً، فأنا أعتقد أن بوسع الإنسان أن يخلق وأن يطوّر عالمه الخاص. . .

أ : حينما أقول إن من المفيد للإنسان العودة إلى أصوله فلست أقصد بذلك أن عليه أن يبقى داخل أسوارها، لم يكن قصدي أن عليه أن يحط رحله فيها وأن يذوب بها. . . على العكس من ذلك. خليق بالإنسان دوماً أن يبتدع عالماً جديداً أو أن يضع نُصب عينيه، على الأقل، إبداعَ هذا العالم. . . العودة التي تحدثتُ عنها يمكنها أن تساعدنا على معرفة المسافة بيننا وبين أصولنا. . لهذا فإن هذه «العودة» إنما هي عون لنا على بناء عالم جديد. . . إنها عودة إلى المستقبل!

ن : لديّ اليوم عائلة أخرى غير تلك المكوّنة منك ومن أرواد وأمّي. هذه العائلة مؤلفة من أصدقائي المقرّبين جداً. . .

أ : لا أظن أن بإمكانهم أن يقوموا مقام عائلتك. من الممكن أن يمثّلوا لك ما يُشبه عائلة، أن تكونوا رفاقاً، أصدقاء، تجمعكم أواصر حميمة مشتركة وآراء فكرية وروحية مشتركة.

غير أن هناك شيئاً ما يرتبط بالجسد، بالتاريخ، بالدم ولكنه لا ينتمي إلى الصداقة. إنه شيء لا يتعلمه المرء، ويجدر به أن يفهمه.

ن: نعم: ذلك ممكن. ولكنني أعتقد بأن الصداقة يمكن أن تكون بديلاً. فما حاجتي إلى أن يكون لديّ شعور بالانتماء إلى جماعة لا أشاطرها أي شيء، لا الآراء ولا نمط الحياة.

أ: ليس ثمة علاقة بين اتفاق الآراء والانتماء إلى عالم واحد. هناك أشخاص يشاركونك في الأفكار ذاتها، ولا تشعرين مع ذلك بانتمائك إلى عالمهم. أنا أعرف العديد من الأشخاص الذين تجمعني بهم قرابة فكرية متينة، ولكنني، على سبيل المثال، لا أستطيع أن أشاطرهم نمط الحياة.

ن: أنا أفهم ما ترمي إليه، فأنت لا تستطيع مشاركتهم في مأدبة طعام لأنهم ثقلاء سَمِجون... ومن ثم فليس لأنك تشاطر أحداً الأفكار ذاتها، أنت على توافق معه في كل شيء. الأمر بحاجة إلى أكثر من ذلك. أعتقد بأنه من غير الممكن مصادقة الناس جميعاً. فنحن نختار الأشخاص الذين نشعر تجاههم بأعمق مشاعر الألفة. نختار مثلاً أولئك الذين نستلطف مظهرهم الجسدي، والذين نشاركهم في الأفكار ذاتها، ومبادئ الحياة ذاتها.

أ: خُذي مثالَ عائلتك في القرية. إنهم يمثلون نمط حياة جديراً بالاكتشاف، تلك تجربة حياة يمكن أن تكون مثرية جداً...

ن: أنا أوافقك الرأي كلّياً حول هذه النقطة.

أ: هذه العائلة، أعني أقرباءك، تمثّل جزءاً من الحياة يمكن أن يكون مثرياً، دعك عن كونهم أقرباءك. فما من شخص آخر غيرهم يمكنه أن يمدّك بهذا النوع من التجربة.

يتعيّن عليك، في الواقع، أن تعرفيهم، كي تعرفي نفسك على نحوٍ أفضل. ولن يكون بميسورك أن تفهمي المسافة التي تفصلك عنهم، أو تفهمي على العكس، الرابط الذي يربطك بهم إذا لم تعرفيهم حق المعرفة.

ن: هناك بعض من أفراد عائلتنا أمكنني أن أوثّق صلتي بهم، هؤلاء من أبناء الأعمام والعمّات الذين سافروا إلى الخارج لمتابعة دراستهم: مروان، ومدى وأليدا... لقد عاشوا تجربة انفصال عن أصدقائهم، وعن موطن جذورهم، وعن ثقافتهم... وقد تولّد لديّ شعور بأنني قريبة منهم. لأنني عشت التجربة عينها.

أ: نعم. غير أن هذه وجهة نظر عاطفية وشخصية. فأنت ترين فيهم شركاء في التجربة...

ن: بكل تأكيد...

أ: ولكن هذا ليس هو الحال دائماً. إذ لا يعدو الأمر بينكم أن يكون مواطأة سطحية لا مواطأة قلبية... ينبغي رؤية الأشياء بعمق... فأنتِ، من جانبك، تفعلين شيئاً في غمار تجربة نأيك عن الوطن وهم يفعلون شيئاً آخر في تجربة نأيهم... أنتم إذن مختلفون، في العمق.

ن: حسناً، موافقة. غير أنك مع وجود تجربة واحدة مشتركة تقول بأننا مختلفون فماذا تبقّى لأولئك الذين ليس بيني وبينهم أي شيء مشترك؟

أ: هذه التجربة المشتركة معهم تستهويك، لأنها تدغدغ شعورك بالطمأنينة، وتجعلك تعتقدين بأنهم يشبهونك...

ن: أجل، بالتأكيد...

أ: إنهم مثلك، نأوا عن وطن جذورهم. ولكنها فترة من الزمن، سيعودون بعدها ذات يوم فما الذي سيحدث عندئذ؟

ن: ستبقى تلك التجربة المشتركة.

أ: وإذا عادوا ليعيشوا في موطن جذورهم، فماذا تفعلين؟

ن: هناك شيء لعلّك لا تنساه. حينما تسافر أو تعيش خارج الوطن، فأنت تتغير (على الأقل، أولئك الذين يملكون الرغبة والذكاء من أجل ذلك). تطرح أسئلة على نفسك، ترى أشياء جديدة، تخوض تجارب جديدة، تكبر، تتبدل، هذا ما عشته أنا حتى الآن. وحين أبلغ الستين من عمري فسيكون الأمر مختلفاً ربما، ولكنني في هذه اللحظة أعتقد بأن التجربة والكشف اليومي أكثر أهمية من الأشياء الثابتة والمقررة.

ما عشته هنا، في فرنسا (وهو ما سأعيشه في أي مكان آخر بالتأكيد) بالغ الصرامة والقوة. غدوت شخصاً آخر، أو على الأقل غدوت الشخص نفسه مع عقل أكثر اتساعاً وأشد نهماً...

عمّ تريدني أن أتحدث مع أفراد عائلتي الذين لا أراهم إلا

لماماً؟ بميسوري الإصغاء إليهم ولكني سرعان ما أشعر بأنني وحيدة في صحبتهم... الريف عندي شيء بالغ الجدّة. جديد وعجيب إلى أبعد حد... ولكن حتى لو استطعت أن أشعر بأنني قريبة من الطبيعة، ومن الحيوان والنبات، وتحدثت معهم عنها... فستحين مع ذلك لحظة أشعر فيها بأن ثمة حدوداً لمحادثتنا. حدوداً من قبلهم مثلما من قبلي.

فأنا مثلاً لا أستطيع أن أحدّثهم عن نفسي، أو على الأقل عن الطريقة التي أرى الحياة بها، عن الحيوانات، وعن الحب، وعن الأشياء بوجهٍ عام...

أ : هل هذا ضروري؟ أن تحدّثيهم عن نفسك؟

ن : بالتأكيد. وإلا فسأشعر بأنني وحيدة منعزلة.

أ : بالنسبة إلي، أنا لا أشاطر إخوتي وأخواتي كثيراً من الأشياء، لهم طريقتهم في التفكير، ولي طريقتي.

ن : بالضبط، هذا بالتحديد ما كنت أقوله! لا تنس أنك لا تتحدث عن نفسك إلا أقل القليل، فأنت تتحدث في السياسة وفي الشعر... ولكن قليلاً جداً عن نفسك. ربما لأنك تقول كل شيء في شعرك، ولكن لأنك أيضاً لا تكون بحاجة إلى أن تتحدث. لقد راقبتك، فأنت تمتلك هالة وحضوراً طاغياً يشيع حولك الصمت... ولست بحاجة إلى أن تقول كلمة واحدة. أو أنك حين تحضر فإنّ حضورك المجرد يملأ المكان. أنت هناك، وهذا كل شيء.

إن أناس القرية هم الذين يجيئون إليك، قاصدين زيارتك. فتلقي على مسامعهم، بين وقتٍ وآخر، بيتاً أو بيتين من الشعر، ملاحظة أو ملاحظتين، وهذا كافٍ لإحداث أثر، ثم يتكفل سحر حضورك، وشخصيتك الآسرة بالباقي... فأنت حالة فريدة. أما أنا فلا يمكن أن تجري أموري هذا المجرى.

أ: سيحدث هذا مع الزمن.

ن: أجل، يجوز، حتى أن تختلف أولوياتي...

أ: أعتقد بأن هذا سيحدث عاجلاً أم آجلاً. فليس بمقدورك أن لا تحبي الريف ذات يوم...

ن: ولكنني أحب الريف، ليست هذه هي المسألة...

أ: إذا جلست بين الأشجار، وأخذت في مراقبة الطبيعة، فسيلزمك ثلاثة أيام على الأقل كي تبدئي برؤية الطيور وتتبيّني كيف تبني أعشاشها، وتسمعي عزيف الريح، وتشاهدي السماء والنجوم تذرّ سناها ... ستلاحظين الأشجار، مصطفة، جنباً إلى جنب، لا تتشابه شجرة مع شجرة قط. متعانقة جيداً، متشاتمة حيناً آخر. يختلس بعضها الماء من بعضها الآخر... إنها تعيش معاً.. كأنما هي صورة مصغرة لمجتمعنا.

إنها مثل البشر، يجلسون حول مائدة، يتناول كل منهم ما يشتهي من طعام... ستستشعرين سكونَ الطبيعة وهدأة الليل... ستشدّك تلك العُزلة إلى الأرض، وإلى الطبيعة وإلى الكون... أكثر مما تشدّك المدينة. لأن المدينة تعيش في كنف الصناعة لا

في كنف الطبيعة. والإنسان في حاجة إلى الطبيعة.... حينما وجدت نفسي في المدينة لأول مرة شعرت، مثلك، على الفور، بنفور شديد من فكرة العودة إلى الريف... وتولّد لديّ انطباع بأنني إذا ما عدت إليه فسأكون كمن يضطر كارهاً لزيارة قبر! ومع مرور الزمن انقلبت الآية. واليوم، يبدو لي الأمر كما لو أنني أخرج من القبر كي أذهب إلى أحضان الطبيعة.

توقف الحوار هنا ثم استؤنف بعد دقائق...

ن: حدثْني عن المزيد من علاقتك بإخوتك وأخواتك. هل كانوا يغارون منك؟ وأنت، هل كنت تغار منهم؟ هل كنتم تتشاجرون؟ هل كنت تسلك سلوك زعيم للعائلة أم سلوك ولد من أولادها؟

أ: لا هذا ولا ذاك.

ن: ماذا كنت تفعل؟ تشتغل في الحقول؟ تقول جدّتي بأنه كان لك طبع غضوب، وأنك كنت تهتاج وتثور أعصابك بسبب أو بدون سبب، فتلجأ إلى اقتلاع المزروعات قصداً..

أ: ما عدت أتذكر تلك الفترة...

ن: هل يمكنك التحدث عن سنوات فقرك؟ أعلم أن ذلك قد ترك في أعماقك أثراً بالغاً، لأنك نقلت لنا هذا الشعور بالقلق... أذكر أنك بدأت تثير في نفسي الخوف، وأنا في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمري حين كنت تقول لي إنني

إذا لم أعمل فسينتهي بي المطاف في الشارع، دون أن يكون بمقدور أحد مساعدتي... لا والديّ ولا أختي أرواد... ولا أصدقائي بالطبع... ومازلت حتى اليوم أستشعر هذا الجزع وهذا القلق، دون أن ينفعني، بالتأكيد، في الإقبال على العمل بضراوة وعناد ابتغاء جمع المال، أو ابتغاء أن أكون في منجى من عوادي الحياة. لقد ظل جزعاً عقيماً، ولكن مثبطاً. واخترت، على النقيض، سبيلاً لا يفضي بسالكه إلى الرفاه المادي.

إذن، ولمرة واحدة ربما، حدِّثني بتفصيل أكبر، أو حدِّثني في العمق، عن هذا الجزع الذي ما فارقني في يوم من الأيام.

أ : يصعب عليَّ كثيراً الحديث عن ذلك، ولكنّ ما قلتُه حينذاك مستمدّ من التجربة المعيشة.

ن : أفلا تظن أن المنفى فرصة مؤاتية؟ رغم كل الآلام التي يجرّها، ورغم مشاعر الوحشة العميقة، وهجر مرابع الطفولة، والتخلي عن المكتسبات السهلة... هذا التمزق الذي يلقينا في فضاء جديد، أمام لغة جديدة، وثقافة جديدة ووجوه جديدة... أما أنا فأعتقد بأنه فرصة طيّبة إذا عرفنا اغتنامها. في اعتقادي أنّ الأشدّ قسوة على الإنسان هو شعوره بالنفي داخل بلده وداخل لغته. أظن أن ذلك يودي بالمرء إلى الانتحار أو إلى الجنون.

أ : لكن هذا مثمر جدّاً وبنّاء للغاية. فالفنانون والمفكرون، والشعراء، جميع أولئك الذين لديهم شيء يقولونه، والمسكونون بهاجس الخلق هم في منفى بصورة من الصور. في منفى داخل مجتمعهم، وحتى داخل لغتهم الأم. فلكي نملك طاقة الخلق

علينا السعي إلى الذهاب أبعد فأبعد، داخل اللغة، وداخل اللون. . . فالخلق، بهذا المعنى، إنما هو منفى في ذاته. وذلك الذي يخلق هو في منفى دائم. ولهذا السبب فإن أولئك الذين يخلقون لا يحسّون بالمنفى، لأنهم في قلب المنفى وليس الأمر على هذا الغرار بالنسبة إلى فئات اجتماعية أخرى. لنأخذ مثلاً عاملاً سورياً أو لبنانياً، أو حتى تاجراً يهاجر إلى الولايات المتحدة. . . فهو يُمضي عشرين أو ثلاثين عاماً من عمره بعيداً عن أهله وبلده، ولكن حلمه الوحيد هو أن يؤوب إلى وطنه الأم للعيش فيه، فهو لم يتغلغل في عمق المجتمع الذي استقبله.

ن: من الممكن حتى أن يخلق «سورية» جديدة أو «لبناناً» جديداً على الأرض الأميركية، أو على أرض أي بلد آخر ينزل فيه.

أ: بالتأكيد. لهذا السبب لا يعود للمنفى أي معنى. إن من يحس المنفى هو ذاك الذي يعي أن عليه أن يتخطى شَرْطَه. والإحساس بالمنفى قوي مستحكم وهو لا يوافي كائناً من كان. فهو ليس إحساساً عاماً.

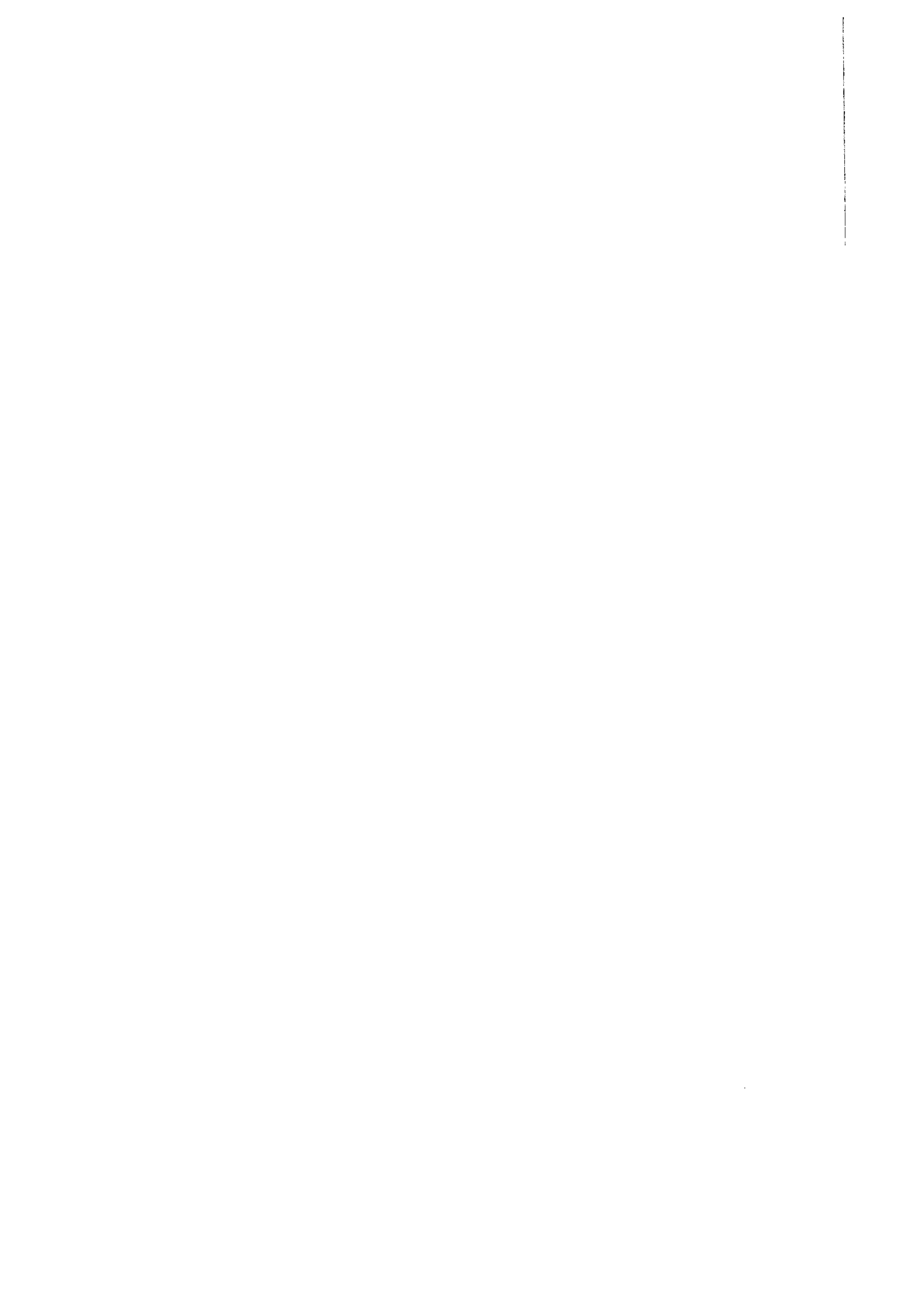
ن: على الأخصّ إذا كان ذلك الإحساس حيال بلده، حيال لغته، وحيال جسده! تُرى، أين يقع منفاك أنت؟

أ: طوال حياتي، كان لديّ شعور بأن الدرب الذي أخطو فوقه يمضي نحو المنفى. منذ أن كنت في سورية، ظل الشعور بالمنفى يلازمني، حيال قريتي، وحيال مجتمعي، وحيال الأدب والفكر الذائع في ذلك الحين. كنت دائماً على الهامش، ليس في

الوسط، وإنما على الهامش، وهو ما أتاح لي أن أصنع شيئاً مختلفاً. كان ذلك في صميم حركة حياتي: من القرية إلى المدينة، ومن المدينة إلى العاصمة، ومن دمشق بعد ذلك إلى بيروت. وفي ربوع لبنان نفسه، كنت أنتقل من منطقة إلى أخرى، ومن منزل إلى آخر. حياتي كلها رحيل نحو المنفى وداخل المنفى... ولغتي العربية تحوّلت أيضاً إلى منفى، فأنا منفي داخل هذه الجزيرة المرسى التي يسمّونها اللغة.

ن: لأية غاية؟

أ: كي أملك أن أصنع شيئاً مختلفاً، كيف أخلق الشروط التي تتيح لي أن أصنع شيئاً آخر... شيئاً لا يساير التيّار الغالب، شيئاً يكون ضد التيّار.



٢

I AM WHAT I AM(*)

نينار: ولاؤك المطلق، وُلوعك، «إدمانك» ما طبيعته؟

أدونيس: إنه الكتابة. أكرر لك: إذا لم أكتب، فأنا أشعر بأنني غير موجود. بالكتابة أكتشف من أكون، أتعوّد اكتشاف ذاتي والإفصاح عنها... تتيح لي الكتابة أيضاً معرفة الآخر. ومعرفة العالم بالتأكيد. يراودني إحساس بأن الحياة بأكملها حركة اكتشاف متواصلة. وهذه الحركة تتيح للإنسان أن يشعر بأنه موجود، وأنه يساهم في خلق العالم وفي تغييره... وما يمكن أن يقال عن الشعر، يمكن أن يقال عن جميع أشكال الخلق، والفن، والفلسفة، إلخ.

ن: كيف تحلل صورتك، تلك التي يعكسها لك الآخرون؟ وكيف تتدبّرها؟ فأنت تمثّل بالنسبة إلى البعض تهديداً، وإلى البعض الآخر نجماً، وإلى آخرين «صاحب رؤى» أو حتى خائناً أيضاً... فأنت محبوب ومكروه في آن واحد. هل هذا يثير فيك خوفاً ما؟

(*) **أنا ما أنا**، عنوان أغنية لـ غلوريا غينر Gloria Gaynor، ١٩٨٣.

أ : إذا كنت محبوباً من الناس قاطبة فإنني سأرتاب بنفسي. فهذا النوع من الإجماع لا يعني سوى أنني شخص سطحي، وأن عملي لا يثير أية مشكلة، أو أي سجال. . . ولكن حينما أثير عاصفة من الجدال فإن ذلك يخلق معسكر الأشخاص الذين يحبونني ويشاطرونني أفكاري، ومعسكر أولئك الذين يبغضونني، وحينذاك أضع قدميّ على الطريق الصحيح.

في المحصِّلة، فإن ما يقال حولي، سواء أكان إيجابياً أم سلبياً، لا يعنيني من قريب أو من بعيد.

ن : لم ألاحظ أن آراءك تستثير جدالات أو معارك ساخنة، في فرنسا، وفي أوروبا. كيف تفسّر ذلك؟ فأنت في أوروبا شاعر عربي يحمل بالضرورة أفكاراً مختلفة. . . إلا إذا كنت أنت نفسك ضحية «مجاراة الرأي السائد». لعل المهمة الرئيسية لأي مفكر في رأيي هي أن يفكر من أجل غالبية الناس، ليس بالنيابة عنهم، بل من أجلهم، وحين تغدو كاتباً، أو فناناً مثيراً للجدل فإنك، تنأى عن ميدان الإبداع، وتغدو فناناً استعراضياً ملتفتاً إلى الخارج إلى التباهي ولفت الأنظار.

أ : كيف يمكن أن أختلف معك في قولك هذا؟

ن : لأنك إنسان جماهيري، فإن الناس يُسقطون عليك مشاعر قلقهم وجوانب ضعفهم، دناءتهم وكرمهم. وكل عُقدهم وإحباطاتهم. . . فأنت تمثّل «الأب» للعديد من الأجيال. بعضهم من يتقبّل ذلك وآخرون لا يتقبّلون. . .

أ : أنا أرى ذلك أمراً طبيعياً، إذ لا يدهشني هذا السلوك

تجاهي بالمرة، فهو يكشف عن أنني في حركة دائمة، وأنني حقاً أصنع شيئاً ما، على الرغم من الأحكام الإيجابية أو السلبية. . . ومهما يكن، فإن هذا يمنحني مزيداً من القوة، ومن النشاط، ومن الثقة بالنفس. وعلى النحو ذاته، فإنني حين آنس في نفسي القدرة على مساعدة أحد لا أتردد لحظة. ما سعيت في يوم من الأيام إلى استغلال موقعي كي أسبّب الأذى لأيّ أحد كائناً من كان. وحتى إلى أولئك الذين أساءوا إليّ. . . والحق أنني، أنا نفسي، مندهش من هذه القدرة التي اكتسبتها مع الأيام، بأن لا أرتكب خطأ أو إساءة بحق أحد. . . كثيراً ما كنت هدفاً لسهام نقدٍ مسمومة، وتجافيت عن الردّ عليها؛ أما إذا كان لدى أحد ما يقوله في نقده، فأنا أقدّره بوصفه ناقداً، وإذا اضطررت إلى الردّ عليه، أحاول أن أفعل ذلك بحسب الأصول. . .

ن : لقد كان العنف غالباً سلاح الجبناء والضعفاء! وهو يُستخدم نتيجة الافتقار إلى القوة الداخلية. . . أما أنت، فلست بحاجة إلى استخدام العنف. إن مجرد وجودك، ووجود شعرك هو قوة في ذاتها، وهو في الوقت ذاته عنفٌ حيال أولئك الذين لا يحبونك.

أ : يشقّ عليّ أحياناً تحمُّل هذا النوع من النقد أو الهجوم، والإغضاء عنه، ولاسيّما أنّ هذه الحملات الهجومية مَصوغة غالباً على نحوٍ يوقع أذى لا يُطاق. ولكن بفضل ما لا أدريه، أعلو فوق هذه الحملات النقدية الجارحة والخطرة، لأنها يمكن أن تكون مؤذية أحياناً.

ن: بعض الحملات النقدية إنما هي أشكال حقيقية للقتل...

أ: مهما يكن من أمر، فإن من يكون لديه شيء ما يقوله، وهدف يسعى إليه في الحياة يتابع دربه رغم كل شيء.

ن: وأنا لم أرك تتوقف وتنظر إلى الخلف كل بضع دقائق.

أ: ليس من الجائز التورّط في جدالات عقيمة مع أناسٍ لا شأن لهم بالمرة، لأن ذلك سيمنحهم الكثير من الأهمية، حال انحدارنا إلى مستواهم.

ن: لو كان لديهم شيء مفيد يقولونه ما كانوا ليضيعوا وقتهم في قول تُرَّهات...

أ: لا أضيع وقتي في الرد عليهم. ولا أرد بكلمة واحدة على من يشتمني...

توقّف الحوار هنا ثمّ استؤنف بعد ساعات.

ن: اسمُك عليّ، واسمك ككاتب أدونيس. وأدونيس يحتل الفضاء كلّه في ما يبدو... أيّ مكان بقي لعليّ؟ ألا يشعر عليّ بأنه محتلّ؟ ألا يسعى إلى التواري تحت ضغط أدونيس؟ ألا يتمرّد؟ إلاّ إذا لم يكن أدونيس وعليّ هما الشخص عينه؟

أ: لا أجد أيَّ تناقض بين أدونيس وعليّ. ربما كان اسمي الأصلي ساعدني على طمس هذا التناقض. فالاسم عليّ جاء من كلمة «إيل»، وهو كبير الآلهة عند السومريين. وعليه، فإن إيل،

وإيلي، وعليّ وأدونيس تعني «مولاي». . . . فجميع هذه الأسماء لها عين الأصل. . . وهو ما أعانني، على الأرجح، في تسوية النزاع بين اسميّ كليهما. هذا التوافق ساعدني كثيراً. مهما يكن من أمر، فأنا لا أفرّق مطلقاً بين أدونيس وعلي. أمّي تناديني بعليّ. . . وأنا أحبّ هذا الاسم، لأنه هو الذي نشأت معه أول ما نشأت. وأدونيس هو الاسم الذي أدخلني في فلكٍ ثقافي. . .

ن: يحمل «أدونيس»، في الحقيقة، دلالة وثنية غير خافية، في حين أن «عليّ» مرتبط بالتوحيد ارتباطاً وثيقاً. . .

أ : أنا منحاز إلى الوثنية. ولكنني حينما أشعر بأدنى تناقض بين الاسمين، أعيد الجميع إلى الأصل، وهو الاسم «إيل».

ن: ألم يأخذ أدونيس عليّاً بعيداً جداً، أبعد مما كان عليٌّ يأمل؟

أ : أدونيس، إنما هو امتداد لـ«إيل». . . الاسم مختلف، والصورة أو النطق مختلفان، ولكن الجوهر هو عين الجوهر. .

ن: غير أن التناقض لا يكمن في الاسم حسب، وإنما في الجوهر أيضاً. . .

أ : لا أرى أي تناقض.

ن: هل أنت الشخص عينه، هل شخص أدونيس هو عين شخص عليّ الذي كان سابقاً له؟

أ : مهلاً، ذلك سؤال مختلف. هذا الشخص لا علاقة له

البتّة بالاسم. فأنا ذلك الشخص الذي كان في القرية، وأنا شخص آخر في الوقت نفسه. أنا ذلك الشخص الذي كان في الريف، لأنني من دونه لن أكون هذا الذي غدوته. إذن فإنّ ذلك الشخص هو «أنا»، ولكنّ هذه الـ«أنا» لا تحدّدني اليوم. إنها «أنا» ما عادت تحدّدني. ما يحدّدني اليوم هو «الأنا» الراهن. مَثَل هذا كمثل شخص كان يمشي في طريق وخلال سيره كانت تطرأ تبدّلات على جسده، بينما لم يكن عقله يملك بعد ما يكفي من الابتعاد (بالنسبة إلى جسده الذي وِلد به) كي يدرك التناقضات بين ما كان عليه وما سيصير إليه... فالإنسان لا يكون، وإنما يصير. هكذا أرى الإنسان... فهو لا يولد كاملاً، بل يصير هو نفسه، مع الحياة التي ابتدعها لنفسه. إن هويّة الإنسان هي وجوده الذي لا يتشكل فقط مما هو خلفه، بل ومما هو أمامه أيضاً.

ن: واقع أن تكون أدونيس حالياً، بكل ما تمثّله، هل يضطرّك إلى الانحياز إلى وضعٍ أخلاقي معيّن؟

أ: لست غافلاً عن حقيقة أن على كاهلي مسؤولية كبيرة حيال موضوعات عديدة، وأنا أضطلع بهذه المسؤولية في شعري مثلما في مواقفي أو في علاقاتي...

ن: ألم تشعر، في لحظة من اللحظات، بأنك قد وقعت في شِراك صورتك؟

أ: لقد أصغيت إلى آراء الناس في ما يتعلق بي، وحاولت أن أفهمها، غير أنني فعلت دائماً ما كنت أريده أو أستشعره في أعماق نفسي.. لهذا السبب لم أدع نفسي تنجرف أو تقع في

شِراك المديح أو الهجوم. أصغيت غالباً إلى كلتا الروايتين، ولكني تابعت السير على الطريق الذي بدا لي أقرب إلى قناعاتي، وإلى ما تسكن إليه نفسي.

ن: وهذا ليس أمراً سهلاً كما أحسب!

أ: ليس سهلاً بالطبع! فأنت تكتبين شيئاً أحياناً، فيقول لك البعض إنه رديء، ويقول لك آخرون إنه بالغ الروعة. فإذا لم يكن لديك معرفة قوية بنفسك وبما أنت قادرة عليه فستضلين ضلالاً بعيداً.

من الضروري للغاية أن يعرف المرء نفسه، إذ ليس هناك في الواقع أيّ شخص في العالم مؤهّل لأن يفهمك كما تفهمين أنت نفسك. لا ريب في أن هناك أشخاصاً يفهمون أنفسهم بنحوٍ خاطئ ودون رويّة... لأن شرطهم بالتأكيد، أو وسطهم الذي يعيشون فيه، عاجز عن أن يساعدهم على هذا الاستبطان للذات وعلى سَبْرِ أغوار عالمهم الشخصي.

في ما يتعلق بشعري، بوسعي القول إنه ما من أحد يفهمه مثلي، وعلى هذا، فليس بمُكنة أحد أن ينتقده مثلما أنقده. فبعد خمسين عاماً من الكتابة يمكنني التأكيد أن شعري مازال بانتظار قراءته كي يُفهم على نحوٍ أفضل.

ن: ألا ترى في هذا مسألة إيجابية؟

ينقطع الحوار هنا، ويُستأنف بعد فترة قصيرة.

ن: لنعد إلى أدونيس. ما حاجتك إلى اتخاذ هذا الاسم

المستعار؟ بمعزل عن القصة التي ترويها، فإن الصحف التي لم تكن تنشر أشعارك أبداً أو التي. . .

أ : لا أدري. . .

ن : ما الذي كنت تسعى إليه؟

أ : لا شيء. لقد اخترته بمحض الصدفة، لم أفعل ذلك عن قصد. . .

ن : ولكن، ليس هناك صدفة. . .

أ : لم أكن أضمر أية خطة. . .

ن : حتى لو لم يكن ذلك مخططاً، فإن اتخاذ اسم مستعار ليس بريئاً من القصد، وخاصةً هذا الاسم، يبدو الأمر كما لو أنك كنت تريد الاختباء خلف شيء ما. . . كما لو كنت تبحث عن ذريعة تتذرع بها، كما لو كنت تقصد الاختباء خلف شخصية ميثولوجية وثنية، حتى تجعل من نفسك، بنحوٍ ما، أُفقاً لا يُطال.

أ : أعتقد أن التفسير الوحيد لهذا الاختيار ينبغي البحث عنه في علاقته بالمنفى. فقد كان هذا الاختيار يرمز إلى شعوري العميق بكوني منفياً. . .

ن : غير أن اسماً مستعاراً يضع، في الوقت نفسه، مسافة بين ما نكونه حقاً وما نسعى إلى أن نصير إليه. وهو يخلق مسافة أيضاً، بيننا وبين الناس الذين يحيطون بنا. إنه يتيح لنا أن نخلق «شخصية» يمكن أن نحتمي خلفها. . . أنا أفكر هنا بنجميّ المعبودين ماريلين ودايفيد بووي. . . فقد بنت ماريلين مونرو

شخصية اختبأت خلفها، وظهرت بها في الوقت نفسه... ثم ما عاد في طوقها أن تتخلص منها. وفي النهاية تغلبت عليها تلك الشخصية وقهرتها. أما دايفيد بووي فقد جسّد شخصيات عدة «زيغي ستاردست وعلاء الدين سان وتين وايت ديوك...» حتى كاد ذلك ينتهي به نهاية سيّئة... قد يحدث أن تحرز هذه الشخصية الغلبة والسيطرة، فلا يعود بمكنتنا أن نعرف من نكون حقاً... أما شعرت يوماً بأنك قد فقدت السيطرة؟

أ : لا، إطلاقاً.

ن : ما الذي جلبه لك اختيار هذا الاسم المستعار؟ ما الذي جلبه لك أدونيس، وما الذي أخذه منك؟

أ : ربما أزعج الناس...

ن : لا، أنا أتحدث عنك. ما الذي جلبه لك أدونيس؟ أريد مزيداً من الشرح، لماذا اخترت هذا الاسم المستعار؟ وما الذي كان يعنيه لك؟

أ : لقد كان الأمر مصادفة، لم أكن واعياً لذلك...

ن : ولكن، إذا كان صحيحاً أنها مصادفة، فلماذا احتفظت به؟

أ : لأنني منذ أن شرعت باستخدامه درج على لسان الناس، وبدأوا ينادونني به، ويعيّنون هويّتي باسم أدونيس.

ن : عليّ أو أدونيس، من له الغلبة على الآخر؟

أ : إنه أدونيس، بالتأكيد. فأنا اليوم أوقِّع باسم علي إذا رغبت أن لا يفطن إليّ أحد، لقد غدا عليّ هو الاسم المثبّت على جواز سفري. إنه اسم إداري.

توقف الحوار هنا واستؤنف في يوم آخر...

ن : كيف تعتقد بأن الناس سينظرون إليك بعد موتك؟ هل فكرت في ذلك؟

أ : لا، مطلقاً.

ن : ألم تضع خططاً من هذا النوع للمستقبل؟

أ : لا، لأن ذلك لا يعنيني في شيء. ثم إن من المستحيل التحكم في الصورة التي يكوّنها الناس عني، والسيطرة عليها. الشيء الوحيد الذي يهمّني هو أن يفهمني الناس. كل ما أريده هو أن ينظر إليّ الناس بطريقة موضوعية...

ن : منذ مدة ليست بعيدة كنتُ في مجلس مع أصدقاء يتحدثون عنك. وقد تولاّني أشدُّ العجب، وأنا أسمع رجلاً يتحدث عنك، وشعرت، بأنه كان ينسب إليك أفعالاً وأقوالاً هي أجدر ببطل أسطوري، أو شعبي، ما عرفه أحد أبداً... وبدت لي وضعية ذلك الرجل وطريقته في رواية الأحداث أشبه بوضعية وطريقة الحكواتيين التقليديين في مقاهي دمشق القديمة!

أ : ماذا كان يروي؟

ن : أول ما أثار انتباهي كان وضعيّته. كان جالساً على كنبة

قبالتي، متقدماً إلى الأمام حتى طرف الكنبة، وقد اتخذ جسمه وضعاً مستقيماً ومتصلباً. . . كان حوضه وظهره يمسكان جسمه كلّه، وقد باعد ما بين ساقيه، ومال بجنبه الأيمن إلى الأمام ميلاً خفيفاً مستنداً إلى ساقه اليمنى، فيما كانت ساقه اليسرى متراجعة قليلاً. كانت عيناه تشعّان، ويداه ترافقان القصة وتسايران إيقاع كلماته. غصتُ أنا في كنبتي، أراقب المشهد باهتمام. كان يقول للحضور: «هل تعرفون المكان المفضّل لدى أدونيس في منزل من المنازل؟» وران على وجوه الحاضرين تعبير مهيب وارتسمت بسمة على شفاههم، وبدوا متهيّبين، فقد كانوا يعتبرون الموضوع مهماً. وردّوا كلهم: «لا، ما الذي يفضّله؟» فأجاب ذلك الشخص: «إنه يفضّل غرفة الحمّام!» فهي الحجرة الأثيرة لديه. . . هكذا يبدأ نهاره جيداً!؟ وردّ جميع الحاضرين بصوت واحد، (وحتى أنا، فقد أخذتني الحميّة، وانسقت مع اللعبة): «آه حقّاً؟ هذا مذهل! إنه على حق!» كنت أشعر بالدهشة، وأشعر في الوقت نفسه بالعجز عن التفوّه بكلمة! وأدركت في تلك اللحظة كم كنتَ شخصية عامة. . . فإذا كان الأمر كذلك وأنت حيّ، فسيغدو بعد رحيلك أشبه بالهذيان. وسيكون لكل شخص قصته الصغيرة عنك.

أ : أنت لا تملكين التحكم في هذا النوع من الأمور. ما الذي يسعك فعله؟ لا شيء. . .

ن : نعم، هذا صحيح، فنحن لا نستطيع أن نفعل شيئاً حيال ذلك. . .

أ : هذا يكشف لك، ببساطة، عن عقلية الناس. . .

ن : صحيح. ولكنه كان يتحدث عنك كما لو كنت ميتاً، كما لو كان ذلك حقيقة قطعيّة، لا يملك أحد أن يناقضها! كان هذا مثيراً للصدمة! ما رأيك في هذا؟

أ : لا شيء. . .

ن : ربما، ولكنّ هذا حدث أمامي. وألفيتُ نفسي في وضع شاهد ورهينة في آن واحد. . .

أ : ولكن هذه أقلّية.

ن : لم يكن الشخص الذي روى تلك القصة يوجّه إليك أي نقد، كان بالأحرى فتى أنيساً ودوداً. ما أثار صدمتي هو الطريقة التي يقحمونك بها داخل الحياة. وكلام الآخرين عنك. . . كما لو أن أولئك الأشخاص كانوا يمارسون سلطة عليك. . .

أ : على أي حال، فهم يروون فيضاً من القصص عني. البعض يقول بأنني أملك قصوراً في كل مكان تقريباً، في نيويورك، وفي اليابان، وفي باريس، ولندن!

يتوقف الحوار هنا ويستأنف بعد فترة قصيرة.

ن : ما علاقتك بمظهرك الجسدي، هل فطنت مبكّراً إلى أنك كنت رجلاً على قدر من الجاذبية والوسامة.

أ : لا، لم أفطن إلى ذلك إلا متأخراً، وبعد فوات الأوان!

ن : غير أن هذا مؤكد! (ضحك) هل تظن بأنني سأصدّق مثل هذا الكلام.

أ : أجل، أجل، ليس إلا منذ مدة قريبة، منذ بضع سنوات فقط!

ن : يصعب عليّ أن أصدّقك!... (ضحك)

أ : غير أن هذا يحزنني! أن يكون لدى المرء طاقة من الجاذبية وأن لا يُحيط بها خُبْرا! (ضحك)

ن : هذا مستحيل!

أ : منذ عشرين عاماً فقط اكتشفت أنني أنعم بهذه المزايا! أو لنقل أكثر قليلاً ربما، حينما نيّفت على الأربعين...

ن : على أي حال، أنا رأيت صورتك حينما كنت في الأربعين. كنت «قنبلة ذرّية» كما يقال. ألم تكن تدرك ذلك حقاً حينما كنت في العشرين؟

أ : لا، على الإطلاق. وأنا أردد هذه الحكاية دائماً، بأن الفتيات كن يحببنني كثيراً، وأنني لم أكن أدرك السبب! لم أكن أعير الأمر أي اهتمام. كنت أكثر انشغالاً بكثير ببناء هويّتي وثقافتي... ثم إنني كنت فقيراً معدماً، ولم أكن أملك الوسائل على الإطلاق...

ن : ليس الأمر هنا وسائل. إنه أمر وعي بالذات...

أ : لم أكن أشعر بحاجة أو برغبة جامحة في الخروج مع

فتاة، لم يكن تفكيري مشغولاً بذلك.. يمكنني تفسير الأمر بأنني كنت منهمكاً كل الانهماك ببناء شخصيتي وعالمي، بالإضافة إلى مشكلاتي الشخصية التي كانت تستغرقني... لم أكن أملك الإمكانات لدعوة فتاة إلى شراب أو طعام. كنت معسراً جداً بحيث إنني لم أكن أفلح إلا بصعوبة في تدبير شؤون بقائي.

لقد تبيّن لي إذن أن بإمكاني أن أبلغ درجة زُلفى لدى الفتيات، ولكن بعد أن كان الأوان قد فات. (ضحك) كان بعضهنّ أصغر سنّاً مني بكثير. كُنَّ يرَيْن فيّ أباً على الأرجح. وكنت أقول لهن «ولكنني في عمر أبيك، يا صغيرتي!»، وكنّ يهتفن بي غالباً: «عجباً! أنت شاعر وتتكلم عن العمر!»

ن : (ضحك.)

أ : وكنت أُجيب: «ولكن هذا واقع!» على كل حال، أنا لم أبدّد وقتي في هذا النوع من الحكايات. فمع تقدُّم العمر يغدو الوقت رأسمالك الوحيد، والوقت الذي تبقّى لي هو شيء نفيس جداً. عليَّ أن أستغلّ كل ساعة تنقضي من حياتي في الانكباب على عملي، أو لكي أصنع شيئاً بنّاءً، وإلا فسيتولاني شعور بأنه وقت ضائع.

ن : أعود إلى مسألة الجاذبية المغوية. كيف واجهت هذه الحقيقة الواقعية؟ من الصعب أن يكون المرء بهيّاً وفاتناً، وفوق ذلك، في حالتك أنت، شاعراً ومفكراً... أليس من الصعب تدبّر ذلك؟ أليس هذا مثيراً للقلق؟

أ : لم يكن هذا شغلي الشاغل.

ن : هل تعني أنّ المرء لا يعاني مثل هذا الضغط إلا حين يكون واعياً له؟

أ : حين يكتشف المرء أنه حسن الصورة، مشتهى ومرغوباً ومطلوباً، فإن هذا يطرح عليه مشكلات، ويخلق له تعقيدات في العلاقة التي يمكن أن يقيمها مع الآخرين.
أما أنا فما عانيت هذه المشكلة. ثم إن هناك، على الأرجح، سبباً آخر لذلك، هو أنني ما اعتقدت يوماً بأن الجواب عن مشكلاتي يكمن في ميدان الحب أو في صِلات العشق. وإذا كان هناك من جواب، في ما يخصّني، فلا يمكن أن يكون موجوداً إلا في ميدان الكتابة والفكر... ولو أنني خُيّرت بين الكتابة وعيش قصة حب مع امرأة فائقة الحسن لاخترتُ الكتابة، دون أي تردد. ليس لأن الشعر يبدو لي أفضل من التجربة مع امرأة... فالمرأة شعر خالص، شعر حي، ولكنني أعتقد بالأحرى بأنه ما من شيء يعبّر عن وجودي أكثر من الإبداع والخلق.

ن : وجسدك. هل أنت حر مع جسدك؟

أ : نعم. أنا أحب جسدي كثيراً، وأعتني به. ولكن «حبي لجسدي» جاء هو الآخر متأخراً. لقد كنت دائماً حراً مع جسدي، ولكن الحرية بحاجة إلى بضعة شروط. وأنا ما خلطت قط بين الحرية وابتذال تلك الحرية. عرفت عن قرب أشخاصاً ضلّوا بشأن تلك الحرية ولم يحترموا جسدهم. لقد احترمت جسدي دائماً، وحميته، ولكنني حينما أمنحه، أمنحه كلّه..

بالنسبة إلى عمري، فإن جسدي في الحفظ والصون (صحك)
وحينما يراني أصدقائي أو إخوتي يُفاجأون بي. . .

ن: اشرح لي ما تعنيه بقولك «ابتذال جسدك»؟ هل يعني أن من يمارس الحب مع أشخاص عديدين يبتذل جسده؟. . . إن جنسيّة متفتحة هي أشبه بإبداعية متفتحة. فهي تمنحنا الشعور بأننا موجودون، وهي تذكّرنا بأننا نمتلك جسداً حياً مترعاً بالرغبات والشهوات. . . لست أقصد هنا أن علينا الاكتفاء بممارسة الجنس. لأن ذلك يثير أفظع الملل. . . غير أنني لا أستطيع القول بأن فلاناً أو فلانة امتهن جسده أو امتهنت جسدها، لأنه اتخذ لنفسه أو لأنها اتخذت لنفسها شركاء عديدين في الوصال الجنسي! هناك بالطبع فرق بيّن بين الرجال والنساء. فإذا اتخذت المرأة لنفسها شركاء أو عشاقاً عديدين اتُّهمت وعوملت كبغيّ، وإذا فعل الرجل الشيء نفسه، بالمقابل، نُظر إليه على أنه بلاي بوي، مغوٍ للنساء، بطل مغوار! ولكنني أرفض هذا، بكل بساطة فأنا أنظر إلى الحب بوصفه جزءاً من الحياة. وأعتبر ممارسة الحب إحدى طرق الاحتفاء بالحياة، والاحتفاء بالجسد.

بهذه المناسبة سأروي لك حكاية صغيرة كشفت لي أن البلاد الإسلامية ليست البلاد الوحيدة التي تعتبر الجسد والحب «تابو» شديد التحريم. كنت في نيويورك عام ١٩٩٨ مع سامر، كنا عاشقين مغرمين. وكان سامر يكمل دراساته في جامعة كولومبيا. وقد اصطحبني في جولة داخل المدينة. وكعاشقين مغرمين، كنا نمشي متشابكي الأيدي، ونتبادل قبلة بين وقت وآخر، مثلنا مثل

كل العشاق في العالم. وما كان أشد دهشتي حين كانت السيارات تتوقف بمحاذاتنا، ونحن في مانهاتن، في نيويورك، في الولايات المتحدة، بلد الحريات الفردية ليرشقنا أصحابها بالشتائم بمنتهى الفظاظة: «هيه، هيه، اذهبا وافعلا ذلك في مكان آخر»، أو: «تبّاً! ما تفعلانه قذر، هناك أماكن خاصة من أجل هذا؟»...

أ : حين أتكلم عن ابتذال الجسد، فلأني أعتبر الجسد الإنساني آية الجمال الأسمى. فإذا ابتذلناه غدا مثله مثل أي شيء آخر، وفقد خصوصيّته، وصار عاماً أو جسداً لا على التعيين... الجسد فريد، وينبغي صون تلك الفرادة. ثم إنني حين أفكر في الجسد، من زاوية الجنس، فهو فعلاً بحاجة إلى أجساد أخرى، ولكن في إطار من علاقات الاحترام المتبادل، علاقات الصداقة والحب، دائماً. الجسد طبيعة، فهو ينتمي إلى الحيوانية، ولكن إلى حيوانية يمكن أن تعلو على الطبيعة، وهكذا فهي تعانق الحرية. والحرية أبعد من أن تكون شيئاً غثاً مبتذلاً. إنها مسؤولية.

ن : هل كان للنساء دور مهم في حياتك؟

أ : بلا ريب. فالحياة تخلو من أي معنى من دون النساء. لقد لعبت النساء في حياتي دوراً إيجابياً وسلبياً. غير أن الجوانب السلبية هي الأحفل بالعِبَر. فقد علّمتني أن الحب، أو ما يسمّى بالحب، ليس في أي حال من الأحوال حلاً لمعضلات الحياة الحقيقية. ليس هناك حب، في رأيي، دون صداقة وثيقة العُرى تشكل قاعدة له. فإذا لم تستطع المرأة أن تبوح لزوجها، أو

الرجل لزوجته، بما يبوح به أحدهما أمام صديقه المقرّب، فهذا يعني أن أحدهما لا يحب الآخر. كل حب عظيم يجب أن يكون مبنياً على صداقة عظيمة. لقد خبرت الكذب أيضاً: بل تولّد لديّ شعور بأن الكذب كان يشكل جزءاً مكملاً في حياة العشاق المغرمين. كيف يدخل الكذب في حياة العشاق؟ ذلك سؤال يلحّ عليّ. ولكن إذا كان مرتبطاً بالصداقة، فلا يعود المحب مضطراً إلى الكذب، حسب رأيي.

ن: نعم، ولكن الكذب هنا ليس مرتبطاً بحب الكذب...

أ: إنه وسيلة من وسائل الدفاع عن الذات...

ن: بل هو طريقة لحماية الحب...

أ: ليس هذا لائقاً بشخص عاشق. كيف لعاشقين يعيشان معاً حياة كاملةً أن يكذب أحدهما على الآخر. هذا يدفعنا إلى أن نطرح أسئلة على أنفسنا. ثمة خلل في مكان ما...

ن: أما أنا، فأرى بأن هناك أموراً لا طائل في أن يتشاطرها العاشقان، هناك أمور يجدر بالعاشق أن لا يُطلع عليها معشوقه.

إن قول الحقيقة للآخر أحياناً أشبه بمن يبيع روحه، لأن الحقيقة، أو «نقاء المشاعر»، شيء لا وجود له.

تلك طريقة في الاسترقاق حين نطلب إلى شخص أن يكون صريحاً صدوقاً، يقول الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة... هنا نوع من إعاقة الحرية، والتعرض لخطر المراقبة من جانب الآخر. فأن نطلب من الآخر قول الحقيقة يعني أن نجعل من أنفسنا قضاة أو

مراقبين، أو سلطة تعرقل سير الأمور، بهذا المعنى أو ذاك. . . تُرى، مَن ذا الذي سينبئنا كيف سيكون رد فعل الآخر حيال الحقيقة التي نبوح له بها؟ والآخر، إذا ما جُرح، يمكنه هو أيضاً أن يزعم قول الحقيقة، حين يقول: «أنا أفهمك» أو، أسوأ من ذلك: «أنا أغفر لك». يتوجب على المرء، في اعتقادي، أن يحترم قرينه، ولكنه ليس مضطراً إلى أن يقول له الحقيقة في كل حين. من الضروري أن يترك لنفسه هامشاً من النأي، أو من الاستقلال.

إن قول الحقيقة في كل حين، إنما هو ضغط وإكراه، في رأيي. لأن هناك أموراً أرغب في الاحتفاظ بها لنفسي، ولا أحب أن يشاركني فيها الآخر. حتى لو عشت معه. فأنا أؤيد الاستقلال داخل العلاقة بين شريكين. وإذا بحثنا عن النقاء أو عن الحقيقة فما علينا سوى أن نتوجه إلى الدين أو إلى الاقتران بإله! حينذاك نكون على يقين بأننا لن نُمنى قط بالخيبة! إزاء كمالٍ لا نملك أن نتحقق منه. بالنسبة إليّ، فأنا أفضّل الرجل «الناقص»، لأن الرجال الكاملين يسئمونني. . .

مع ذلك، فأنا أؤمن بالحب المطلق، بعيوبه، بذُراه وبسُفوحه. . . أؤمن بحب أقوى من كل شيء، أقوى من الموت، وأقوى من الأبناء، وأقوى من الحياة. لا شك أن هذا حلم يليق بفتاة مراهقة، ولكنني أؤمن، وأريد أن أواظب على إيماني، بأن من الممكن أن يحب المرء مثل مجنون (أو مثل مجنونة) رغم كل الصعوبات، فالصعوبات لا تخيفني.

أ : ولكن إذا كان العشاق يكذبون بعضهم على بعض، فلِمَ يعيشون معاً؟ فلينفصلوا إذن، أعتقد أن من يكذب في رأسه يكذب أيضاً في جسده. الكذب يشوّه كل شيء حتى العلاقة الجسدية، إذ يغدو الجنس عملية ميكانيكية. . .

ن : من الممكن لشخصين أن يعيشا معاً، لأسباب عدة. ولكني أعتقد بأن الكذب إنما هو جزء من الحياة، أما بصدد «الجسد الذي يكذب» فلربما كان الرجال أشد حساسية بكثير من النساء تجاه هذه المسألة. . . فهم يسألون أكثر، للتأكد مما إذا كانت المرأة تستمتع معهم أم لا (ضحك).

غير أن سؤالي، في الأصل، يتعلق بالدور الذي لعبته النساء في حياتك، ليس على صعيد العلاقة والجنس حسب، وإنما بوجهٍ عام.

أ : أعتقد بأن الصداقة بين رجل وامرأة أمر معقّد، فإذا نشأت علاقة بينهما فمن الممكن أن تتحوّل إلى حب. ولكن هل يمكن للحب بدوره أن يتحوّل إلى صداقة؟ أنا أعرف أصدقاء كانوا يتبادلون الحب، ثم انفصلوا عن بعضهم ولكنهم ظلوا أصدقاء. وأنا أتساءل كيف فعلوا ذلك. . . يبدو لي أن هذا الموقف مثير للعجب. . . فإذا كان هناك علاقة عميقة وقوية بين رجل وامرأة، ثم انتهت قصة حبهما، فهذا يعني أن كل شيء قد انتهى.

ن : نعم، أنا أعتقد ذلك أيضاً.

أ : أعود إلى ما قلناه حول الكذب. . . أظن بأنك على

حق، فالكذب ضروري أحياناً، لأن مواجهة الحقيقة أشبه بمواجهة الموت. والحقيقة المطلقة هي نوع من الموت. . .

ن : هل تعتقد بأن بإمكان رجل أن يمضي حياته كلها مع المرأة نفسها؟ هل الكائن البشري أُحادي الزواج، في رأيك؟

أ : لا، فأنا أعتقد بأن الجسد بحاجة إلى أجساد متعددة. . .

ن : هذا مؤكد، فالإنسان متعدد الزواج بالمطلق.

أ : الرجل؟

ن : النوع الإنساني. . .

أ : هذا أمر بديهي، ينبغي التأكيد عليه، وقبوله قبولاً حسناً. . .

ن : ربما يحدث هذا بعد خمسين أو مئة سنة. أما الآن، فنحن نعيش حقبة انتقالية. ولابد من مرور زمن قبل أن لا يعود هذا تابو. . . نحن نعلم جميعاً بأننا في حاجة إلى شركاء عديدين خلال حياتنا. ولكننا نواجه الكثير من الحواجز الأخلاقية أو الدينية. ولاسيّما حين يتعلق الأمر بالنساء. وهكذا فنحن نعود دوماً إلى هذه اللامساواة الذميمة.

يبدو من الصعب الآن تقبّل واقع أن يكون الرجل أو المرأة متعددي الزواج. . . فالجميع يتظاهرون بأنهم جادّون في البحث عن «الزوج المثالي» أو عن «المرأة المثالية».

أ : لذلك أقول إنّ الكذب هو أسوأ الأمور. . .

ن : أنا أرى أنّ الزنى يشكّل جزءاً من الزواج أو من حياة الزوجين. فإذا تزوّج المرء، رجلاً كان أو امرأة، فلا بد أن يأخذ هذا في حسبانه. لا بد أن يتوقع أن الآخر يمكن أن يخدعه. لهذا السبب بالذات عزفت عن الزواج. إذ ليس بوسعي تحمُّل إمكانية أن أمضي حياتي مع رجل واحد! حتى لو كان هذا هو حلمي في الواقع فأنا أعلم بأنه مستحيل.

أ : أنت تخاطرين بأن تدفعي ثمناً غالياً!. . .

ن : مهما يكن من أمر، فتلك هي الحال دائماً. . . سواء أحببت أحداً، ثم وقعت في هوى آخر، أو تعلّق صديقك بشخص آخر غيرك. . . فتلك أمور تحدث. . . أنت تفترض الآن أن الأمور يمكن أن تكون مستقرة ركينة، وأن تستمر طوال حياة كاملة. ولكن بمعزل عن المكر والخداع، هناك أزواج انطفأت جذوة الحب في ما بينهم بعد بضع سنين من الزواج. . . هل يمكن أن نحب أحداً طوال الحياة بالقدر ذاته من القوة.

أ : ما الحل إذن؟

ن : إما الطلاق، كحل لا بد منه، في كل مرة نشعر فيها بخداع الآخر، أو حين ينطفئ حبنا له، ثم الزواج من جديد، وإما الاستمرار في تقاسم الحياة مع شخص، حتى لو لم نعد نحبه، ومتابعة حياتنا بالتوازي، كل في عالمه، مع بقائنا متزوجين. ليس هناك حل ثالث. . . هذا وضع رهيب، ولكني

أرى بأن الأمور هي على هذا النحو. علماً أن الانفصال مؤلم جداً. إنه حرمان نسلّم به، تمزُّق، فهو يُفقدنا كامل الثقة بأنفسنا... نرغب في أن نموت، أن ننتقم.. لقد عشت قصصاً مشابهة. فهذه الآلام معروفة حتى في سن المراهقة، بل ربما تكون أشد مضاضة لأننا نكون آنذاك ساذجين، نرفع الحب والمحبوب إلى أفق المثالية والكمال. فإذا قبلنا فكرة الزواج ثم أقدمنا على الزواج، فخليق إذن أن نقبل شروطه، وحدوده.

أ : أعتقد أن مؤسسة الزواج صارت مؤسسة نافلة، ينبغي إلغاؤها...

ن : حقّاً؟...

أ : ينبغي إلغاؤها بكل بساطة.

ن : هناك شيء فاتني أن أذكره، وهو أننا نعيش في أوروبا، حيث يمكن لأي شخص هنا أن يعيش مع شخص آخر دون أن يتزوّجا، ويمكن أن ينجبا أولاداً أيضاً دون أن يكونا متزوّجين، ولكن إذا عشتَ في بلد ليس للمرأة فيه أي وضع مُعترف به إن لم تكن عذراء أو متزوجة أو أُمّاً (وأحياناً، ليس لهن حقوق أيضاً كما في البلاد العربية الإسلامية)! فأنت لا تملك إلا أن تتزوج، ولا تملك حتى أن تتزوّج زواجاً مدنياً!...

أ : بعض الناس بدأوا، رغم كل شيء، في العيش معاً حياة خارج الزواج.

ن : صحيح، ولحسن الحظ، ولكنهم إذا رغبوا أن يُنجبوا

أولاداً فهم مضطرون إلى الزواج، وإلا فلن يكون لأولادهم أي حق، أو أي وجود.

أ : يمكنك إذن، أن تتزوجي «زواج متعة» كما لدى الشيعة. . .

ن : ولكن ينبغي أن تكون شيعياً. . .

أ : نعم. أو أن أغدو كذلك رمزياً، مراعاة للشكل. وعلى كل حال، فهذه الصيغة موجودة. . .

ن : نعم، ولكنها، مرة أخرى أيضاً موجودة في نطاق الدين!

أ : صحيح. . . ولكنها تتجاوزه. . .

ن : لدى حديثك عن النساء، تقول دائماً إنك تفضّل النساء «الطبيعيات». . . من دون أحمر الشفاه، ولا التطرية بالمساحيق والدهون، دون عطور، إلخ. أنا لا أفهم ذوقك هذا. هل النساء المتبرّجات يُثرن خوفك؟ أما أنا فأحب بشغف أن يكون للمرأة الخيار بأن تتبرّج أو لا تتبرّج. أن ترتدي الجوارب الشبكية والأحذية ذات الكعوب العالية، والفساتين المثيرة، أو ملابس الجينز، والأحذية الرياضية. لديّ ولع بالنساء اللواتي يجمّلن أجسادهن بالمساحيق، والوشم، وثقب الآذان والأنوف. . .

أ : هل ستحبّين رجلاً يتبرّج؟

ن : ولكنني أتحدث عن النساء. على كل حال، فإن رجلاً

يضع الكحل لهو آية على السموّ، وإذا وضع حلقاً في أذنيه، أجد ذلك جميلاً ومثيراً. . .

أ : إن جلد المرأة هو شيء بالغ الجمال، فلندعه يعيش ويتنفس. . . علام نغطيه بشيء أقل قيمة وأهمية منه.

ن : فلنكن جادّين، ولنفرِّقْ بين الأمرين. إذا رغبت أن تمارس الحب مع امرأة يدبق جسمها في كل مكان، بسبب كمّية مفرطة من المساحيق والأصباغ وكريم الشعر. . . نعم، فعلاً فليس هذا مثيراً ولا جذّاباً بالمرة!. . . (ضحك). أنا أحدثك عن امرأة في سياق آخر، خارج سياق الجنس. . .

أ : يمكنني أن أفهم ما تقوم به امرأة ذات عينين رائعتين، بإضافة أشياء، كي تزيد من جمالها، شرط أن لا يبرز الماكياج على حساب عينيها.

ن : إيه حسناً، أنا أحب التزويق والصنعة. أجدهما شيئاً بالغ الأهمية.

أ : أما أنا، فلا أحبهما.

ن : لماذا؟

أ : هذه مسألة ذوق. ليس لديّ أي موقف ضد أحمر الشفاه، ولكن ينبغي أن يكون في انسجام مع الوجه تماماً. . . يمكنني أن أفهم جانب «الصنعة»، ولست أقف ضده، لكن الجلد هو وسيلة الاتصال الأشد إثارة مع العالم الخارجي، وليس بوسعي أن أتصور حاجزاً يفصل بين الجلد والعالم.

ن: الإغواء هو بالضبط وسيلة اتصال مع العالم...

أ: أنا أقول للمرأة التي أحبها: «أحبك هكذا، دون ماكياج... لمن تتبرّجين؟ إن كان هذا من أجلي، فأنا لا أحبه!»

ن: ولكنها تتبرّج لنفسها! فإذا كانت تحب صورتها مع أحمر الشفاه، فماذا بوسعك أن تفعل؟

أ: لا أفعل شيئاً، ولا أقول شيئاً... أنصاع في نهاية المطاف...

ن: حقاً؟

أ: لقد حدّثتك، بالضبط، عن ذوقي...

ن: أنت لست إذن، بنحوٍ منهجي، ضد النساء اللواتي يستعملن وسائل التجميل؟

أ: لا، لا، على الإطلاق.

ن: من بين الذين لا يحبون أن تتجمل النساء بالمساحيق هناك نصيرات النزعة النسوية المتزمّتات والمتحمّسات اللواتي يعتبرن أنفسهن رجالاً. وهناك أيضاً، بالطبع، الرجال التقليديون، ورجال الدين الذين يعتقدون بأن المرأة يجب أن تكون «نقية طاهرة»... فهم يؤمنون بأن المرأة مدنّسة «بطبيعتها»، لذا يجب إبعادها عن كل ألوان التبرُّج التي تفتح باب الإغواء... ولا يتغيّر هذا الوضع إلا في اليوم الذي تغدو فيه أُمّاً، ولا بأس حينذاك من منحها بعض الحرية!...

يتوقف الحوار هنا ويُستأنف في يوم آخر.

ن: لدينا تراث هائل من النصوص العربية الإباحية والماجنة. نصوص لا تكمن أهميتها الحقيقية في أسلوبها، لأنها مكتوبة بلغة شعبية مبسّطة. ولكنّ مضمونها، بالمقابل، مدهش ومثير! والنصوص التي قرأتها مكتوبة ما بين القرن العاشر والقرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ماذا تمثل هذه النصوص ضمن الثقافة العربية؟ ما الذي قدّمته للمجتمع؟ وما موقعها وتأثيرها اليوم؟

أ: لدينا كمٌّ هائل من النصوص الإباحية كتبها الشعراء العرب. أما النصوص التي تحدثت عنها فهي مصنّفة في إطار الأدب الشعبي، ولا تشكل جزءاً من الثقافة الرسمية، وهذا عائد بالتأكيد، إلى أسباب دينية وأخلاقية ولغوية. لهذا فإن تلك النصوص تُقرأ خفية عن الأنظار من قبل العديد من الأشخاص الذين تكوّنت ثقافتهم الإباحية والجنسية بفضل هذه الكتب. كان هذا في الماضي. أما اليوم فقد شاع الأدب الإباحي وبمكنة أيّ كان الاطلاع عليه ولا سيما مع استخدام وسائل الاتصال الحديثة... أنا أعتقد بأن تلك الكتب غاية في الأهمية والطريف في الأمر هو أن غالبية مؤلفي هذه الكتب هم من الفقهاء ورجال الدين... وهذا يُظهر انفتاحاً عقلياً عظيماً، ونظرة عاشقة إلى الحياة. أنا أقدّر تقديراً عالياً قيمة تلك الكتب، ولكنها لم تلعب دوراً في الحياة الثقافية...

ن: هذا غريب بقدر ما هو خسارة حقيقية!

أ : كل ذلك عائد إلى الدين والكوابح الأخلاقية. . .

ن : ما يحيّرني، هو وجود كل ذلك الأدب الإباحي حول الجسد وشهوات اللحم، والقصص عن رجال يعشقون نساء، ونساء يعشقن رجالاً، ورجال يُغرمون برجال ونساء يُغرمن بنساء، وفوق كل ذلك شعر إباحي رفيع، على غرار شعر عمر بن أبي ربيعة وآخرين غيره. ما الذي بقي من ذلك؟ لماذا ظلت المجتمعات العربية إذن محافظة إلى هذا الحد، رغم كل هذا الموروث الثقافي؟ لماذا ظل الجسد اليوم تابو أيضاً. أقول اليوم، أكثر مما في أي وقت مضى؟ . . . لِمَ هذا النزوع إلى التسامي. نحن مستغرقون في الاستيهام، في الحلم، في الأمل. . . كل شيء يبقى حيّاً داخل الرأس، ومن الصعب أن ينتقل إلى الفعل. . . هل هذا بسبب الثقافة الشفاهية؟ كما لو أن النص أكثر أهمية من الأفعال؟ فنحن نتكلم، ولكننا لا نفعل. ربما يخشى العرب من قوة «شحنتهم الشهوانية»، لهذا فهم يخفونها، يتستّرون عليها، ممارسين «استئصالات بسيكولوجية»، بالاتكاء على «السور القرآنية» والتقاليد. . . (من دون التطرق إلى الحريم، الذي ساعد على «جنسنة» العالم العربي الإسلامي، ولم يفعل سوى تغذية أوهام الغرب وتخيّلاته. فالنساء هناك خُلِقن من أجل الافتراع؛ يُنظر إليهن كموضوعات، كرقيق، دون أخذ رغبتهن بالحسبان). هل الأحلام والتخيّلات الوهميّة أفضل الوسائل للهروب من واقع يومي رازح تحت نير تقاليد صارمة وديانة كابحة؟

أ : أنا أرى أن الفرضية الأخيرة هي الأكثر رجحاناً، فالدين

يلقي بثقله على حياة الأفراد. لهذا السبب فإن المجتمعات العربية تتخيّل مستويين اثنين للحياة: حياة شخصية شهوانية في الخفاء، يمارس فيها الأشخاص الجنس، ويقضون أوطارهم من كل نوع - حسبما أعرف، فإن الملذّات التي عاشوها، ما عاشها أحد غيرهم على هذا المستوى - وحياة دينية رسمية لا استسرار فيها. وحين نتصفح التاريخ العربي نجده زاخراً بكل ما يتصل بالعلاقات بين الرجال والنساء. لقد كان بإمكان الرجال أن يموتوا في سبيل امرأة، كان بإمكانهم أن يتبعوها من بلدٍ إلى بلد، هائمين على وجوههم، وأن يقتلوا زوجها من أجل أن يمتلكوها، بل وأن يختطفوها. كانوا يجتنون المتع والملذّات كافّة، ولكن في الخفاء وفي غياهب السرّ، كي لا يدخلوا في نزاع مع الدين، ومع بقية فئات المجتمع. أما البُعد الآخر للمجتمع العربي فهو بُعد ديني، وهو يتسم بالمحافظة والحرص على احترام التقاليد والنصوص القرآنية. واليوم أيضاً، فإن المجتمع العربي لا يزال يسلك هذين الطريقين. طريق موغل في المتع، وسرّي، وطريق آخر ديني، في العلن، وعلى رؤوس الأشهاد. لهذا السبب يمكن القول بأن الشخصية العربية شخصية مزدوجة، مبنية على الكذب والنفاق. هلاّ نتوقف الآن؟

ن: هل تعبت؟

أ: إنها الساعة التاسعة، لقد قطعنا شوطاً، أليس كذلك؟

ن: أنجزنا فصلاً.

أ: لنتوقف إذن! . . .

ن: أأنت متعب؟

أ : لا، هل ترغبين في مواصلة الحوار؟

ن: نعم. أيمكنك المزيد؟

أ : الفصل الثاني؟

ن: نعم.

أ : كم عدد الفصول؟

ن: عشرة.

أ : (!).

ن: هناك مئة سؤال تقريباً.

أ : هل أنجزنا الربع، إذن؟

ن: لا، أقلّ قليلاً، ولكن ما دمت متحمّساً، ونابضاً بالحيوية، فلنواصل، كي ندخل في لُبّ الموضوع...

أ : هيّا!

٣

My Heart Belongs to Daddy(*)

نينار: كيف تُعرّف الأبوّة؟ أنا لا أعرف حقاً كيف يتصرّف أب مع ابنته أو مع أولاده. أعرف أن الأب في الشرق هو الذي يعود بالنقود إلى البيت، والذي يقول، في المحصِّلة: «لا»... من المؤكد أنني أرسم صورة كاريكاتورية، وأنني أعمّم، وأبالغ! إذ إن الأب رمز بالغ الأهمية، وخاصةً خارج المنزل، تُرى، أي أبٍ كنت معي؟ وهل كنت ستغدو أباً آخر مختلفاً لو أنك لم تفقد والدك وأنت في سن الحادية والعشرين؟

أدونيس: في كل المجتمعات، وفي المجتمعات العربية على الأخص، يجسّد الأبُ السيِّدَ المطلق، ذلك الذي يُصدر الأوامر، والذي يُطاع. ذلك الذي يريد أن يربّي أولاده على صورته والذي ينقل إليهم قِيَمه وأخلاقه. لهذا السبب فإن هذه المجتمعات تُعتبر مجتمعات أبويّة. لقد كانت هناك في ما مضى مجتمعات أمومية ولكنها للأسف انتهت إلى الزوال.

(*) **قلبي ينتمي إلى أبي**، أغنية لـ ماريلين مونرو Marilyn Monroe، ١٩٦٠.

في المجتمعات العربية، يمثّل الأب صورة مصغّرة عن الله الكلّي القوة، السيّد المطلق الذي لا يُعصى له أمر. لهذا فإن الأب العربي، بوجهٍ عام، يعتبر أولاده عجينة بين يديه، مادّة أوّليّة يشكّلها على هواه. ثمّة العديد من الدراسات والأبحاث التي تسلّط الضوء على هذه المجتمعات، وتوجّه إليها النقد، لأنها تدمّر الأبناء بحرمانهم من أي تجربة حقيقية خاصة بهم. وفوق ذلك فإن هؤلاء الأبناء يعيدون، بدورهم، إنتاج المخطط المرسوم حيال أبنائهم.

يمكنك أن تعودي إلى مؤلفات هشام شرابي التي حلّلت هذه الظواهر بنحوٍ دقيق.

أنا شخصياً، كأب، لم أحاول، قط أن ألعب هذا الدور، ولكنّ أولادي، في النهاية، هم الذين لم يتقبلوا ذلك، أو لم يفهموه. أردت لكما أن تكبرا بعيداً عن تدخلي. وأعتقد أن هذا قد ترك أثره فيكما، ومن الجائز حتى أن يكون قد أثّر فيكما سلبياً، لأن رواسب التقاليد والعلاقات الإنسانية متأصّلة فيكما. وحتى لو لم تقيما علاقة تقليدية مع أبيكما، فلم يكن لكما سلطة على نفسيكما.

لقد كبرتما في مناخ كانت تنقصكما فيه بضعة أشياء، وهو ما انعكس على شخصيّتكما وعلى سلوككما.

كنت أعتقد أن في مقدور أُمّكما أن تسدّ هذا النقص، ولكنني كنت مخطئاً، في الواقع... وأنا سعيد جداً، في النهاية، بأنكما على وعي بهذا. كنت أقول لنفسي إنّ الأمر سيكون أسوأ ربما، مع أولاد آخرين، وآباء آخرين.

لكنني أشعر الآن بأنني كنت على خطأ وأنني لم أُحسن تقدير الأمر، لأنني لم أمارس أي سلطة أبوية. . . كنت أظن بأن أمّكما قادرة على حمل هذا العبء، ثم تبيّن لي أن ظني لم يكن صائباً. ألا ليتني أملك العودة إلى الوراء، ولكنّ هذا باطل وقبض الريح. . .

ن: لشدَّ ما تروقني فكرة أن يكبر الأبناء بعيداً عن مرجعية الأب. . . غير أن هذا مرهون طبعاً، بالمجتمع الذي يعيشون فيه. . . فإذا عاشوا في أوروبا، في عائلات بركن أبوي واحد، حيث لكل من الزوجين أولاده من زواج آخر، أو بوجود أبناء بالتبنّي، فإن الأمور تكون أكثر سهولة بالنسبة إلى الأبناء، لأنه لم يعد هناك خطة وحيدة مرسومة تشمل الجميع، بل خطط عديدة، فهناك أبناء متبنّون، حتى من آباء مثليين يعيشون كأزواج مع أولاد ينشأون في كنفهم. أما في لبنان، فحينما كنا صغاراً، كانت تكتنفنا شروط وعوامل قاسية مهددة. إذ اندلعت نيران الحرب، وانفلت العنف من عِقاله فسلبنا الشعور بالأمان. ولكن هذا ربما كان أيضاً هو ما أنقذنا. . . كانت الحرب مصدراً لكل ضروب الفزع والقلق. ولكنّ هذا القلق حينما يشيع يعتاده الناس ويغدو مبتذلاً. . . كان ينبغي الإفلات من هذا الطوق. في الوقت ذاته، كنا نتخبط في عثار وغبار لا نهاية له، وكان ثمة قلق يغزونا من كل الجهات. . . كان لا مفر إذن من نصب المدفعية الذاتية، إذا أمكن قول ذلك. أعني أن نتكيف ونشغّل آليّات الدفاع الذاتي لخوض الصراع. . . وما أن يستنفر المرء هذه الآليّات حتى تلازمه

دائماً، وحين يُتاح له العيش حياة طبيعية (في فرنسا مثلاً) يواجه دائماً هذه الآليّات ذاتها. . . حتى تغدو مثل سترة ضيّقة جداً تشد أضلاعه أو كحذاء ضيّق يؤلم قدميه. . . حق للإنسان إذن أن يتخلص منها، وأن يأمن من الخوف ويسلم من عوادي الألم.

أ : أعتقد بأن ما جعل الأمور أكثر تعقيداً وأشدَّ مضاضة هو أنّ أُمَّكما لم تكن تخبرني بأي شيء يتعلق بشؤونكما. كانت مطّلعة على جميع مشكلاتكما وأخطائكما ولكنها لم تكن قط تحدّثني عن ذلك، كما لو أنني كنت شخصاً غريباً، على أي حال، فأنا أعترف بأنني قوّضت دور الأب. . .

ن : ولكن ينبغي أن تعلم بأنها إذا كانت تتحاشى إخبارك بشيء، فلأننا كنا نطلب إليها ذلك بإلحاح. على أي حال، كنت أنا أطلب إليها أن لا تأتي على ذكر أي شيء أمامك.

أ : لا أدري ما هي الأسباب بالضبط. أنا أروي ما حدث، ببساطة. قُصارى القول، لم تقل لي أمّكما في أي يوم من الأيام: «أرواد أو نينار لديهما هذه المشكلة أو تلك». لقد ارتكبتُ خطأً عظيماً، ولكنّ فقدان التواصل لم يفعل سوى أن يفاقم الأمور. . .

ن : أنا لا أعرف، ذلك شأنك وشأن أمّي، والعلاقة بينكما. ولكنّ أمّي كانت تأتي إليّ غالباً لتقول: «انتبهي، والدك كذا، والدك كيت»، «هيا، اذهبي لرؤيته»، «قولي له صباح الخير»، «هل عانقته؟». وكان ذلك يثير جنوني، فأتميّز غيظاً وأرفض بالتأكيد أن أفعل أي شيء مما تقوله لي، أو كنت أفعله راغمة،

وكنت أقول لها: «كفى يا ماما، لقد نفختني به!» (ضحك).

أ: الغريب أنها لم تحدثني عن ذلك قطّ! (ضحك).

ن: كان هذا يثير حفيظتي. كم من المرات تشاجرت معها بسبب ذلك! كنت أسمّيها دائماً «محامي الدفاع».

توقف الحوار ثم استؤنف بعد دقائق.

ن: هل ترى بأن على الأب أن يبتكر أبوّة تتوافق مع الأبناء الذين أنجبهم؟

أ: من غير الممكن ابتكار أبوّة، نحن نبتدع سلوكاً. أظن أن سلوك الأب في المجتمعات العربية بحاجة إلى إعادة نظر شاملة.

ن: كان بودّي أن أعرف ببساطة إن كانت لديك طريقة وجود مختلفة تجاهي وتجاه أرواد؟ ما الذي ابتكرته من أجلي؟ ومن أجل أرواد؟

أ: ما عقّد الأمور، هو غيابي المتكرر عن المنزل، كنت منهمكاً في الجري خلف المعاش، لذا فإن أسفاري وغيابي ألحقا ضرراً كبيراً بتربيتكما، لم أكن أراكما تقريباً.

ن: في كل الأحوال، إن لم يكن الإنسان حاضراً حضوراً فعلياً لا يمكن أن يفعل شيئاً... من أجل هذا أسألك إن كانت هناك أنواع عديدة من الأبوّة؟

أ: أنواع عديدة من الأبوّة؟ ما الذي يعنيه ذلك؟

ن: يعني طُرقاً عديدة من الفعل والسلوك.

أ: أنواع عديدة من الأبوّة! نعم، بالتأكيد.

ن: من طرف الأب، أم من طرف الأبناء؟

أ: هذا مرهون بالطبع بسلوك الأب، بعقليّته. كل أب مختلف عن غيره.

ن: أي أثر خلّفه الموت المبكر لوالدك؟ ماذا كانت عواقب ذلك عليك؟

أ: حالفني الحظ في تلك الفترة. فقد فُرضت عليّ ظروف شعرت فيها بأنني مُلزَمٌ بالعمل ليل نهار كي أكوّن اسماً، وأخرج من طوق العزلة والفاقة. لهذا فإن موت والدي لم يشلّني.

ن: أكانت تلك أشياء خلقتها أو ابتكرتها ابتغاء نسيان موت والدك؟ كي تسدّ ذلك النقص؟

أ: لا، كنت مرغماً على ذلك. كان عليّ أن أعمل جهدي من أجل مساعدة أخي حسين على الذهاب إلى المدرسة. وكذلك من أجل أختي فاطمة. كان أثر موت والدي عليّ، على نحو أنني وجدت نفسي مضطراً إلى اقتحام الحياة العملية، وفهمها. أدركت بعمق أنه لن يتاح لي البقاء والاستمرار إذا لم أحقق الاستقلال في الشؤون المالية. . . تعلّمت أن أتدبّر الجانب المادي من الحياة، وأن أوليه اهتماماً كافياً. كان حريّاً أن أعمل كل ما في وسعي، وأن لا أعتمد إلا على نفسي كي أساعد عائلتي. . .

ن: هل تعتقد بأنك قدّمت في حياتك نموذجاً للأب الغائب؟

أ : هذا ممكن. لاسيّما أن والدي لم يُشرف على تربيتي، في الحقيقة، لقد أطلق لي حريتي...

توقف الحوار هنا واستؤنف بعد فترة من الوقت.

ن : هل يفاجئك أو يشقّ عليك إذا قلت إنني لم أقرأ شعرك؟

أ : لم تقرئي أي شيء؟

ن : لماذا، في رأيك، لم أقرأك؟

أ : هذا شيء لا يكدّرني أبداً، على العكس، فكثيراً ما كنت أقول لنفسي إنه ما كان ينبغي لك أن تقرئيني، لكي تتمكني من بناء شخصيتك بكل حرية ممكنة. فهذا أفضل بكثير من أن تتأثري بي.

كنت أشعر أحياناً بمزيد من السعادة حينما أراك عازفة عن قراءتي غير أنك منهمكة في أداء عمل آخر، مختلف. ولكنك لو اطّرحت جهد قراءتي، واطّرحت أي جهد آخر لشقّ عليّ ذلك كثيراً.

ن : كثيراً ما يطرح الناس عليّ أسئلة: «ماذا تعلمت من أبيك؟»، أو «أي أثر تركه فيك؟» أو «أي جزء انتقل إليك منه؟» إنني أمقت هذه الأسئلة، ولكنني، في الوقت نفسه، حين أبحث عن إجابة يختلط عليّ الأمر، ولا أعرف ماذا أقول. كنت أجيب ميكانيكياً: «احترام الآخر، أو الآخرين، محاسبة الذات،

والتواضع». ماذا تظن أنك نقلت إليّ، في رأيك؟

أ: التسامح، نعم... لا أدري، ربما العناد أيضاً، والدأب... حتى لو لم تفعلي أي شيء حتى الآن!... (ضحك).

ن: (ضحك).

أ: حب الآخرين، ربما... وعدم اللجوء إلى العنف. واحترام الكائن الإنساني... ورفض الخضوع والثقة بالذات...

ن: هذا حريٌّ أن يكون مقلقاً للأب حين يرى قسماته على وجوه بناته، أكثر على الأرجح مما لو كانت على وجه ولد؟ أليس كذلك، كما لو كنت تتنكر في إهاب ابنتك؟ أنا لست متأكدة. فليس لديّ أولاد بعد. (لديّ قطّتان). ولكنني على يقين بأنني سأقلق كثيراً...

أ: أمّا أنا فيسعدني كثيراً...

ن: هل يبدو الأمر كما لو أنك كنت تتنكر في إهاب فتاة؟

أ: أعتقد بأن الرجل الذي ليس فيه عِرق أنثوي ينقصه شيء ما. وكذلك الأمر بالنسبة إلى النساء اللواتي ليس فيهن عِرق ذكوري. فحينما ألمح علامات ذكورية لدى بناتي، فلا يسعني إلا أن أبتهج...

ن: كنت أتحدث عن علاماتك أنت...

أ: نعم، عن علامات طبعي وشخصيّتي...

ن : لا، ليس عن طبعك، بل عنك، جسدياً.

أ : حين أرى في عينيك شبهاً بعينيّ، فذلك يسعدني...

ن : هذا كل شيء؟ أوليس مقلقاً أن يرى الرجل نفسه في امرأة؟

أ : لا، أبداً، فهذا يتيح لي رؤية الجانب الأنثوي فيّ...

ن : وهذا لا يقلقك أبداً؟

أ : بالنسبة إليّ، لا.

ن : نسخة مصغّرة عنك؟

أ : ليس هناك نسخة في هذا النطاق...

ن : بالتأكيد، ولكنني أطرح عليك هذا السؤال لأنني قد بلغت الثالثة والثلاثين من عمري، ولم أنجب أولاداً. لا أريد أن يكون لديّ أولاد... لا أريد أن أنجب كائناً يكون مصيره الموت!

لديَّ قِطّتان أحبّهما حبَّ العبادة، ولكنني لا أستطيع أن أرى ملامحي فيهما. حتى لو أحسست أحياناً بأننا قد بدأنا نتشابه!

إنني شديدة الفضول لمعرفة هذه الصلة بالأبناء. لنقل إنني إذا ما كان لديّ ذات يوم ولد صغير، فسأشعر ربما بالاضطراب لرؤية ملامحي فيه...

توقف الحوار هنا واستؤنف بعد وقتٍ قصير.

ن : هل تعتقد بأهمّية التوريث إلى الأبناء؟

أ : لا.

ن : ليس هذا مهمّاً في رأيك؟

أ : على الإطلاق، أتمنّى أن يكون أولادي على النقيض منّي، أتمنى أن يكونوا متفردين في كل ما يفعلونه. وسيّان عندي بعد ذلك أن يكونوا مثلي أم لا.

ن : ولا يرثون عنك بعض القِيَم؟

أ : إطلاقاً، ولا أفرض عليهم أي شيء. ما يهمّني فقط هو أن يكونوا مبدعين في عملهم، لامعين في موقعهم المهني، مهما كان العمل الذي يمارسونه.

ن : هل لتوريث شيء ما إلى الأبناء علاقة بالأبدية؟ إذا استمر وجودك من خلالي، مثلاً، وتابعت أنا توريث أبنائي الأشياء التي تلقيتها منك، فأنت لن تعود حينئذٍ موجوداً لتستفيد من ذلك... لست أرى منفعة في إنجاب أولاد لأن أملاً يحدونا بأن جزءاً منا سيستمر بعدنا... وماذا يهمني من ذلك؟ فأنا لن أعود موجودة حينذاك كي أرى. والأولاد، من جانبهم، ألا ترى أن لهم دوراً آخر يلعبونه غير أن يكونوا أعقاباً متوضّعين على أغصان شجرة النسب... لشُدَّ ما أرى ذلك سراباً موهماً ومُقنطاً. ولكن، حسناً، فإن لغالبية الناس أولاداً، حتى دون أن يرغبوا في ذلك، أو دون أن يفكروا. إنه نوع من التقليد...

أ : الأمر الأكثر أهمية إنما هو توريث أفكار، وليس توريث تشابه جسدي...

ن : أنا أتفق معك تماماً، ولكنّ هناك أشخاصاً كثيرين ينجبون أولاداً فقط من أجل إنجاب الأولاد.

أ : أجل. لأنهم ليس لديهم أي شيء آخر يفعلونه سوى إنجاب الأولاد. ولا شيء أكثر من ذلك. فهم يحسبون أنهم سيخلدون بفضل سيمائهم، فالناس في قريتي مثلاً يقولون عن الابن حينما يشبه أباه شبهاً كبيراً: «كأنه خرج من أنف أبيه، أو، كأن أباه بصقه من فمه!».

ن : نعم. فهم يشعرون بأنهم سيعيشون من خلال أبنائهم...

أ : بعض الأشخاص لديهم ضعف...

ن : ولكن، ما الجدوى من إنجاب الأولاد، إذن.

أ : جوهرياً، من أجل إعادة إنتاج الجنس البشري. فلو كان الناس كلهم يفكرون مثلك، لما بقي أحد على وجه الأرض في المستقبل!...

ن : نحن اليوم ستة مليارات ونصف المليار على سطح هذه الأرض!.

أ : إذا فكر هؤلاء المليارات الستة مثلما تفكرين، فلن يعود هناك ولد واحد، على الأرض بعد بضع سنوات.

ن : هذا يعني أن الناس ينجبون الأولاد لأسباب اقتصادية؟

أ : من أجل البقاء، من أجل الاستمرار...

ن: الاستمرار؟ من أجل ماذا؟ مادامت الأرض ستصبح كرة ميتة، ذات يوم، وتنطفئ الشمس أيضاً!.

أ: هذه مشكلة أخرى، لا علاقة لها بالحفاظ على بقاء الجنس البشري.

ن: بالتأكيد، ولكن، لماذا هذا الاستبسال للحفاظ على الجنس البشري؟

أ: هل ترغبين أن ينقرض الجنس البشري؟

ن: نعم! ! ! (ضحك).

أ: إذن، كان ينبغي أن تقولي ذلك منذ البداية! (ضحك).

ن: لا، ولكنني أريد، فعلاً أن أعرف لماذا. . .

أ: لأن الكائن البشري أجمل الأجناس الحيّة.

ن: نعم. . .

أ: ليس هناك ما هو أجمل منه. لذا ينبغي حمايته.

ن: ولكن لماذا لا نحمي، الآن، أولئك الذين يعيشون على الأرض، أولئك الذين تهلكهم المجاعات والأمراض والحروب. . . من دون شك، ينبغي حماية الإنسان، وهناك الكثير مما يمكن عمله.

أ: لو عدنا إلى الأولاد، فأنت تعرفين أنني لم أكن راغباً في إنجاب أبناء. لقد أتيتما كلاكما خطأً. . .

ن : نعم، أنا أعلم. . .

أ : أنت تعلمين هذا؟ كلتاكما تعلمان، أنت وأرواد؟ كنا أنا وأمّك ما نكاد نسدّ رمقنا، لم نكن نملك شروى نقير نتّقي به عوادي الحياة. . . ما كنا لننجب أولاداً ونجعلهم يعانون سكرات الحاجة مثلنا. ولكن حينما أتيتما، كنتما رائعتين! (ضحك).

ن : نعم، لديّ انطباع بأن الأمور تجري دائماً هذا المجرى. . .

أ : كنتما رائعتين. . . أنت مثلاً، بما أنك جئت مصادفة، هل كنت ترغبين أن لا تجيئي إلى هذا العالم؟ (ضحك).

ن : لقد فات الأوان الآن!

أ : لا، ولكن من حيث المبدأ، هل كنت ترغبين أن لا تري هذا العالم؟

ن : أحياناً، نعم.

أ : أحياناً، هذا صحيح، ولكنني أقصد من حيث المبدأ.

ن : لست أبالي كثيراً، لا أدري، في الواقع. فكما أنه لم يكن لي أي دور في ذلك القرار فأنا لا أستطيع الإجابة عن سؤالك. . .

أ : تلكم هي حال الإنسانية بأجمعها. . .

ن : أحس أحياناً بأن الحياة ليست شيئاً رائعاً. . .

أ : هذا صحيح. ألا تشعرين بالخوف من الموت؟

ن: بلى، بالتأكيد. أنا أخاف من الموت، أرتعد فرقاً منه. . .

أ: لماذا إذن لا تقولين إنّ الحياة شيء بديع؟

ن: لأنني اعتدت العيش، لا لأن الحياة بديعة وخارقة. . .

أ: كيف هذا؟

ن: لكن قل لي أين هو الجانب البديع من الحياة؟

أ: إذن، لِمَ تعيشين؟

ن: لا أدري، لقد جيء بي إلى هذا العالم، عليّ إذن أن أفعل شيئاً ما حتى لا يقتلني السأم، هذا كل شيء.

أ: يمكن أن يكون هذا سبباً كافياً. خليق إذن أن تفعلي شيئاً ما في الحياة.

ن: بوسعي القول الآن إنني أعيش من أجل عملي الفني. من أجل أن أنعم بأصدقائي، أن أشاركهم في السرّاء والضرّاء. منذ أن أدركت أنني لم يعد بوسعي الفرار، وأن عليّ أن أعيش. ارتضيت أن أفتح كل المغاليق، وأن أدع ما في داخلي يخرج إلى الملأ، ألقيت بنفسي في اليمّ، منكّسة الرأس، دون أن أدري إلى أين كنت أمضي، مستسلمة للتيار، يحملني حيث يشاء. . . حتى اهتديت إلى مبرّر وجودي، وها أنذا أعيش من أجل عملي الفني. من أجل الكون الذي فيه أعيش وأرتع، كل ما يعترض طريقي أزيحه، أو أضرب صفحاً عنه. ذلكم هو الشيء الوحيد

الذي يهبني الرغبة في أن أسعى وأتحرك، ولو لم يكن لديّ عملي، فما أدري ما عساي أفعل بنفسي. لأنني وجدت الحياة حُبلى بالعنف، والموتَ يهيمن كسيّد مطلق...

أ : ولكنّ الحياة يمكن أن تكون أجمل الأشياء طُرّاً، امرأة مشتهاة، رجلاً مشتهى، كما يروقك.

ن : نعم، هذا صحيح، ولكنّ كل هذا سراب وقبض الريح...

أ : لقد وهبتك الحياة إمكانية أن تصنعي بأصابعك أشياء وأشياء، وحينذاك تشعرين بأنك تخلقين العالم، وبأنك تخلعين عليه صورة جديدة...

ن : نعم. الآن، ومنذ أن منحت عملي كل وقتي، وكل نَفَس من أنفاسي. ولكن لا تنسَ أن تجربة الحرب أورثتني حالة من البارانويا، وأقصتني عن الواقع.

أ : كانت تلك تجربة في حياتك، هناك آلاف الفتيات عشن تلك التجربة مثلك.

ن : كل إنسان يعيش تلك التجربة مثلما يريد، وعلى الأخص مثلما يستطيع، فإذا كان هناك مليونا فتاة عشن الحرب، وتخلصن من آثارها، فليس معنى هذا أنني سأتخلص أنا أيضاً من آثارها.

أ : نعم، هذا صحيح، ولكن تلك حالات تكررت عبر التاريخ، وما هو تاريخي ليس أنطولوجياً بالضرورة.

ن : أنطولوجياً؟

أ : أعني أن ذلك لا يعرّض الوجود، حقاً، إلى الخطر، فكل ما هو تاريخي، يمكن للإنسان أن يتخطاه.

ن : هذا صحيح، فأنت يمكنك أن تتخطاه، ولكنّه يخلف عقابيل، تترك أثرها فيك، لا تنس العمر الذي كنتُ فيه!

أ : ولكنّ الإنسان قوي، قادر على فعل كل شيء.

توقّف الحوار هنا واستؤنف بعد فترة.

ن : أتساءل هل بوسع شخصين أن يحبّ أحدهما الآخر من دون أن ينجبا أولاداً بالضرورة؟

أ : بالتأكيد. . .

ن : هل يمكنهما أن يظلا معاً من دون إنجاب أبناء؟

أ : يمكن أن يظلا معاً زمناً طويلاً من دون أولاد. لأن الأولاد حينما يصلون يقلبون جو الزوجين عالياً سافلاً، ويخلق حضورهم مشهداً جديداً، وضعاً جديداً. حتى لكأنهم ثورة صغيرة داخل البيت.

ن : داخل علاقة الزوجين.

أ : نعم.

ن : ولكن، لِمَ ينجب الناس أبناءً، ما داموا يعلمون بأن مجيئهم سيخلق زلزالاً أرضياً داخل حياتهم الزوجية؟

أ : ثمة أسباب عديدة تجعل الناس ينجبون أولاداً. . وهي ليست دائماً، بالضرورة، أسباباً مهمة ومقنعة.

ن : أكنت تحب أن يكون لك ولد؟ عليّ صغير؟ أدونيس مستقبلي، مثلاً؟

أ : ما طرحت على نفسي قط أسئلة على هذا النحو. لم أفكر يوماً في مثل هذه الأمور، لأنني ببساطة لا أفرّق بين أن يكون لي ولد أو بنت.



٤

Lemon Inceste(*)

نينار: على الرغم من أنني لم أقرأك، هل تعتقد أن بإمكاني، مع ذلك، أن ألتقط أو أن أقبس شيئاً ما من شعرك؟ هل يشكّل شعرك حالة روحية، أم مرضاً معدياً؟

أدونيس: عليّ أنا أن أسألك هذا السؤال! فهذا السؤال موجّه إليك، وليس موجّهاً إليّ!.

ن: (ضحك) نعم، هذا صحيح!

أ: في صحّتك!

(يُقرَع بنعومة قدحان من النبيذ الأحمر).

هل هذا فصل جديد من الحوار، يبدأ بهذا السؤال؟

ن: نعم.

أ: إذن، لنتوقف.

ن: هل أنت متأكد؟ دعني أعصرك قليلاً.

(*) عنوان أغنية لسيرج وشارلوت غينسبرغ Serge et Charlotte Gainsbourg، ١٩٨٤.

أ : الساعة الآن التاسعة والنصف.

ن : نعم فلنتابع الحوار حتى العاشرة.

أ : (ضحك).

ن : دعنا نستمرّ في التركيز... ليس بوسعي أن أتفهم الشعر إلا بوصفه تجربة. وبالمقابل، فإن ما يمكنني إدراكه هو أنك شخص مختلف، لك عالمك، ولك طريقتك في الوجود، وهي طريقة شديدة الخصوصية: صرامة في العمل، حساسية مفرطة... كل هذه الأمور يمكنني التقاطها وإدراكها.

أ : نعم، ربما كان هذا كافياً، ما قولك؟

ن : ما ألاقي عنتاً شديداً في الوصول إليه هو الشعر ذاته، الشعر بوصفه نصاً، بوصفه بنية... ما خلا الإيقاع ربما. إذ إن بمقدوري أن أستشعره، فهو خليق أن يشبهك، خليق أن يشبه إيقاع جسدك، إيقاع جسدك في الحياة، حينما تسير، وحينما تتكدّر، وحينما تتناول الطعام، وحينما تمزح وتضحك... وعلى الأخص حينما تمارس الحب جسدياً... ولكنّ هذا، ليس في طوقي أن أعرفه! (ضحك) لأنني على يقين بأن لشعرك علاقة بإيقاع جسدك الحميم، بشهواتك، بملذّاتك وبآلامك، ولكن هذا الجزء من حياتك لا يخصّني!

توقف الحوار هنا واستؤنف في ما بعد.

ن : هل تعتقد بأن الآباء التقليديين الذين يختارون الأزواج لبناتهم (غالباً ما يكون هؤلاء الأزواج أو آباؤهم أصدقاء للأب)

هل تعتقد بأنهم يُسقطون ذواتهم أو رغباتهم على هؤلاء الأزواج؟ قد يكون تفكيري غريباً ولكنني لا أفهم هذا.

أ : هذا شيء بسيكولوجي جداً، وفرويدي جداً. . . أنا لا أعلم. . . فهذا مرهون بالأب. كل ما يمكنني قوله هنا، هو أنني لست من أنصار فرويد، على الأقل بصدد هذه النقطة. . .

ن : حقاً!

أ : لست من أنصار التحليل النفسي، بوجهٍ عام، وأرى أنّ التحليل النفسي ينطوي على كثير من الغلوّ والشطط. كما أرى أن محاولة تحليل كائن بشري عملية معقّدة، ومتعددة العناصر. وتركيز كل شيء على هذه النقطة إنما هو شيء متعسّف ومصطنع. فالإنسان، كائناً من كان، مزيج وتركيب هائل من المشاعر والانفعالات والأحلام. ومحاولة اختزاله، وتعليبه، لنهتف بعد ذلك: هي ذي النتيجة، إنما هي عنف وإكراه. لذا فإني ضد هذه النظرة إلى الأمور.

ن : ولاكان.

أ : لم يكن لاكان إلا متابعاً لفرويد. فهو الذي قاد ما يسمّى «العودة إلى فرويد». فأنت لا تملكين تحليل الكائن الإنساني على ضوء نظرية فرويد وحدها، لأن هذه النظرية إنما هي اختزال فظيع للإنسان. فالكائن الإنساني بالغ التعقيد! من الجائز مع ذلك أن تكون بعض التحليلات ناجعة وأن تقدّم حتى معونة معيّنة. لأن بعض الأشخاص بحاجة ماسّة إلى محاور يكون في ميسوره أن يلقي السمع إلى مريضه، ويخلق مناخاً يسوده

الاطمئنان والسكينة، ولكن ذلك لا يفضي إلى شفائه.

ن: ليس التحليل هو الذي يشفي من العلل، فأنت تشفي نفسك بنفسك...

أ: ولكن من الممكن أن يكون للإنسان صديق حميم يوليه ثقته الكاملة، فهو يستطيع أيضاً أن يبثه ضيقه وحصره، وأن يجعله نجيّه.

ن: لا، ليس هذا مماثلاً، ليس هذا هو الأمر نفسه على الإطلاق. فالصديق لا يسعه أن يكون «موضوعياً» أو أن يتخذ مسافة كافية من الأشياء.

أ: بلى. ولكنه قريب مع ذلك؟

ن: لا، على الإطلاق. الصديق لا يكون موضوعياً على الإطلاق. فهو يزجي النصائح لصديقه، أو يحدّثه وفق اقتناعاته، ووفق طريقته في رؤية الحياة. بينما المحلل النفسي قادر على أن يخلق مسافة مع مريضه، فهو لا يقدّم له نصائح، أو لا يحاكمه بحسب الدين أو الأخلاق. فإذا كنت لا تحب مثلاً أن تنجب أولاداً أو إذا كنت مثلياً جنسياً، فسيقول لك صديقك: «ليس طبيعياً أن لا تحب إنجاب الأبناء»، أو يقول «المثلية الجنسية مخالفة للدين» أو لا أدري أي شيء من هذا النوع. وأنت يمكن أن تغدو قانطاً، وحيداً على شاطئ اليأس... إذا ما قال لك أحد مثل هذا، وما أسهل أن تنهار، وأن تشعر أيضاً بأنك منبوذ... وهذا يمكن أن يدفع أشخاصاً إلى الانتحار.

أعتقد أن دور المحلل النفسي هو أن ينأى بنفسه عن قصص

الدين والأخلاق. ولكنه لا يفصل مريضه عن الواقع، دون أن يطلق مع ذلك أحكاماً عليه... فأنت تتعلم أن تتقبل حقيقة من تكون، أو تتحمّل ألوان ضعفك... أنت وحدك من يقوم بالعمل.

أنا أتكلم عن تجربة. ولكنني لست عليمة بنظريات التحليل النفسي ولا بما يتعلق بفرويد. لقد ألممت بأقل القليل مما تعلمته في البكالوريا! ولكنني أعود إلى السؤال حول الآباء الذين يختارون أزواجاً لبناتهم، رجالاً من الوسط الاجتماعي ذاته، لهم العقلية ذاتها والدين ذاته... حتى مع بعض التشابه الجسدي أحياناً! فأنا ألمح في ذلك موقفاً مريباً، نوعاً ما من الرغبة في المحارم... كما لو أن الأب، حين لا يتمكن من «مخالطة» ابنته، يجد ممثلاً له عندها. لديّ الانطباع بأن هؤلاء الآباء يتزوجون بناتهم بالإنابة.

أ : لماذا لا تنظرين إلى هذه الأمور من زاوية مختلفة. فإذا كان الزوج المستقبلي صديقاً للعائلة، فسيكون الأب واثقاً حينذاك بأن ابنته ستكون أكثر أماناً، وستلقى من زوجها المستقبلي احتراماً أكبر...

ن : لا، ليس هذا صحيحاً بالمرة. إذ يمكن أن يكون الزوج صديقاً مقرّباً جداً لأبيها أو حتى فرداً من العائلة، ثم يكون زوجاً سيّئاً، لا يحبها، ويسيء معاملتها، إلخ...

أ : نعم، ولكن هذه مشكلة أخرى، ليس لها أي علاقة بنكاح المحارم.

ن: ربما، ولكن ذلك دليل على جهل الأب. فأن يكون الزوج زوجاً صالحاً، يحترم زوجته ويحبّها فإن هذا لا علاقة له بأن يكون صديقاً مقرّباً للأب!

أ: حقيقة أن يكون الأب جاهلاً هي مشكلة أخرى أيضاً، فذلك لا يلغي حقيقة أنه يفكر على هذا النحو. في قريتي، يقولون للفتاة: «تزوجي من ابن عمك، فهذا أفضل من أن تذهبي مع غريب». ذلكم هو السبب الذي يجعلهم يتزوجون في ما بينهم، ابتغاء أن يظلوا في حضن العائلة، وأن يظل الأب مطمئناً ما وسعه الاطمئنان بشأن بناته...

ن: أنا أرى هذا مريباً جداً.

أ: هذا ممكن.

ن: كثيراً ما أقارن الرجال بك، أبحث عن الـ«أدونيس» داخل الرجال. وأنت، إذا ما مال قلبك إلى امرأة، وخضت تجربة حب معها، فهل تعتقد بأنك، في خبيئة نفسك، كنت تبحث عن فتاة تشبهني؟

أ: (يحمرّ وجه أدونيس، ويغرق في ضحكة مجلجلة حتى يكاد يختنق).

هذا ممكن! أعتقد بأن هذا ممكن ربما...

ن: كيف؟

أ: هذا ممكن، ولكنني لا أنظر إلى ذلك على أنه شيء له علاقة بزواج المحارم.

ن : أما أنا فأنظر إليه كزواج محارم.

أ : سأفسّر ذلك على أنه من قبيل التوافق، أو من قبيل التكامل.. حتى يبلغ الانسجام ذروته... هناك أيضاً، كما تعلمين، ما يسمّى بحب الذات، فأنا أحب ذاتي وأحب ذلك (أو تلك) الذي يشبهني. وهذا لا علاقة له البتة بنكاح المحارم...

ن : ولكن في مقدورنا أيضاً أن نحب شخصاً مختلفاً عنا أيما اختلاف. هل من الضروري أن نحب شخصاً يشبهنا؟ ولماذا يكون التوافق جسدياً فقط؟

أ : لا. لقد قلت ذلك على افتراض أن الشخص يشبهك.

ن : عليك أن توضح أكثر...

أ : (صمت).

ن : إلى أي حد تسمح لنفسك بالتفكير فيّ؟

أ : (ضحك).

لا بد من التمييز بين مستويين اثنين، المستوى الأول، هو أنني لا أفكر فيك، فأنت في داخلي مثل الهواء الذي أتنفسه، والشمس التي أراها فأنت جزء بالغ الأهمية في حياتي. أما المستوى الثاني، فهو أنني حينما أرى ذلك الجزء المهم من حياتي كسولاً متراخياً، أتخيل إلى أي حد يمكن أن يكون خارقاً ومبدعاً، وذا حضور قوي. على هذا النحو، أفكر فيكما، أنت وأرواد...

ن : ولكن لم يكن هذا هو السؤال.

أ : ما السؤال، إذاً؟

ن : ألا يرى أب من الآباء شيئاً آخر في ابنته، في بناته؟

أ : حينما يقال لي إنّ ابنتيك جميلتان، وذكيتان، إلخ. فسأكون فرحاً جداً وفخوراً. . .

ن : نعم، فهذا يداعب غرورك.

أ : هذا يفرحني. . .

ن : من دون ريب!

أ : أفكر في مسؤولية الإنسان الذي لديه شيء ما يقوله، والذي تسكنه حاجة إلى الخلق والإبداع، كي يصنع منها شيئاً يتّسم بالعمق، مثلما أمكنني أنا أن أفعل. . .

ن : نعم، ولكن لم يكن هذا هو سؤالي. كان بودّي أن أعرف أنك بسبب كونك قد غدوت أباً، أو لكونك أباً، تغطي عينيك بمصفاة تمنعك من رؤية ابنتك جالسة أمامك بتنورة قصيرة تكشف عن ساقيها، وبحذاء ذي كعب عالٍ أفلا تقول لنفسك إن لها ساقين جميلتين، أو شيئاً آخر كهذا، أنا لا أعرف. . .

أ : لا، فأنا لا أفكر في هذا النوع من الأمور.

ن : لماذا؟

أ : لأنني لم أعد أحتمل المزيد من القصص مع النساء. . .

ن : أوضحْ، فأنا لم أفهم، أود أن أعرف ما إذا كان لدى الآباء مصفاة بيولوجية، أود أن أفهم كيف لأب، بسبب كونه أباً

ألاّ يرى جسد ابنته، جسدها كامرأة. ألا يمكن أن يدخل الاشتهاء في حسابه؟ أريد أن أعرف ما الذي يدور في رؤوس الآباء!.

ثم هل تعتقد بأن من الصعب على أب أن لا يرى في ابنته شيئاً آخر سوى «ابنته»؟ امرأة مثلاً؟

أ : من جهة كونها جسداً، أنت تقصدين؟

ن : نعم، من جهة كونها جسداً!

أ : ولكنّ الجمال إنما هو جزء من الجسد؟ أم لا؟

ن : بلى، بالضبط. فكيف تتعامل أنت مع ذلك؟

أ : أتمنّى أن تهتمي بجسدك غاية الاهتمام، أن يكون جميلاً، وأن لا تُهمليه في يوم من الأيام، وأن لا تمنحيه إلى كائن من كان، وإنما إلى رجل يستحقه. تلكم هي الأشياء التي أفكر فيها كثيراً. ما يجعلني أشعر بالحزن هو أن أعلم بأن ابنتي تقضي الليل، أو تعيش مع رجل لا يستحقها، أو ليس جديراً بها. على العكس، فإن قلبي يطفح بالسعادة حينما أرى فتى عذباً وذكياً معها. أشعر بالحزن حينما لا تعرف ابنتي «الخارقة» إلى أي حد هي خارقة. حينما لا تقدّر قيمة جسدها ومسؤوليتها.

ن : لا تقلق أبداً، ولتقرّ عيناً، فمع بنتيك لن يغزوك همّ ولن توافيك مشكلة.

توقّف الحوار هنا واستؤنف بعد فترة.

ن : هل تعتقد بأن لدى الآباء مصفاة أمام عيونهم كي لا

يروا بناتهم حين يكنّ متبرّجات بثياب مثيرة أيّما إثارة، وحين يكنّ على وشك الخروج مع أصحابهن؟ وعندما يصرخ الأب بابنته ويأمرها بأن تبدّل تلك الثياب لأنها تبدو بها كعاهرة مثلاً، أفلا يكون هذا ربما مرتبطاً بأنها كانت مشتهاة من أبيها في البدء؟ كما لو أنه كان يقول في نفسه: «إذا كان لها هذا التأثير فيّ أنا، فكيف سيكون في الرجال الآخرين؟» من المؤكد أنني أبالغ قليلاً، وأصوّر الأمور بنحوٍ كاريكاتوري...

أ: من المستحيل أن أقول أشياء كهذه. يجوز أن أدلي بملاحظة إذا وجدت أن ثوبك ليس جميلاً جداً! (ابتسامة عريضة).

ن: ولكن ألا تعتقد بأنه حين يتصرّف أب على هذا النحو، فهذا يعني أن لابنته تأثيراً فيه، وعلى الأخص حين ترتدي ثياباً مثيرة؟

أ: هناك آباء على هذه الشاكلة، ربما، ولكن ليس أنا. فإذا رأيتك تخرجين بمثل ذلك الزيّ فإن ما يهمني هو ما إذا كنت أنيقة أم لا! (ضحك).

ن: آه! اتفقنا! (ضحك).

ماذا تفعل حين تكون أباً، وترى ابنتك تكبر، وتخرج مع فتى، وتحدس بأن لها معه علاقات جنسية؟ ماذا تفعل كي لا تتصور ذلك الجسد الذي «أوجدته» والذي داعبته، واحتضنته، ورأيته يكبر، بين ذراعي رجل آخر؟ وإذا رأى أب طرفاً من كفل

ابنته (ذلك جسد امرأة في نهاية المطاف) فهل يتخيل كيف يلامسه صديقها الصغير، وكيف يحتضنها؟ لاسيما إذا كان ذلك الأب قد داعب ابنته حينما كانت صغيرة... هل سيكون ذلك طبيعياً أم شاقاً بالنسبة إلى الأب؟ هل تعتقد بأنه من أجل أن لا يتخيل الآباء في المجتمعات التقليدية مثل هذه الأمور، فهم يحظرون على بناتهم أن يكشفن كثيراً من جسدهن، أو يخرجن مع فتيان قبل الزواج، وأن يبقين عذراوات، إلخ.

أ : إذا كان الفتى....

ن : ... نعم، أنا أعرف الجواب. إذا كان الفتى «خارقاً»...

أ : من المؤكد أن هذا يملأني سروراً. ولكن إذا كان الفتى تافهاً، فلشدّ ما سيحزنني ذلك (ضحك).

ن : هوذا ما كنت أعنيه. فأنت تقول هذا، بوجه التحديد، لأنك تقوم بعملية إسقاط على هذا الفتى! ليس من الضروري أن يكون تافهاً إذا لم يكن يتطابق مع صورتك!

أ : هذا أمر لا جدال فيه. أنا متيقن بأن الحب لا يتفق مع المنطق، إذ يمكن للمرأة أن تحب شخصاً بليداً، والعكس صحيح أيضاً. ولكني، شخصياً، على الرغم من اعتقادي بأن الحب لا يستجيب للعقل، وأن الحب أعمى، فإنني أتمنى أن يكون ذاك الذي اختارته ابنتي جديراً بها.

ن : قل لي بصراحة، أليس مكدّراً لصفوك أن ترى يدي فتى

تحطان على كفلَي ابنتك؟ ذانك الكفلان اللذان جاءا منك، واللذان داعبتهما حين كانت صغيرة.

أ : لا على الإطلاق، على العكس، فأنا سأكون بالغ السعادة حين أرى ابنتي مع فتى تهبه حبها.

ن : هناك الكثير من الآباء لا يفلحون في إقامة هذا الفاصل، مثلك.

أ : وهم يشددون الخناق على بناتهم...

ن : بل إن البعض منهم يضربونهن، ويجعلون حياتهن جحيماً لا يطاق.

أ : هؤلاء يمثلون حالات مرضيّة...

ن : نعم، بالتأكيد. ولكن أجبني عن السؤال الذي طرحته عليك. ألا تعتقد بأنه إذا كان الآباء في المجتمعات التقليدية جداً يمنعون بناتهم من أن يكشفن كثيراً عن أجسادهن. أو يخرجن مع الفتيان قبل الزواج، وأن يبقين عذراوات، فذلك من أجل أن لا يتخيلوا أشياء معيّنة؟

أ : لا، أنا أعتقد بأن ذلك له علاقة بالتقاليد... وهو ما يزال مستمراً أيضاً. ذلك أن فتاة تعرف الكثير من الرجال في حياتها يصعب عليها أن تجد رجلاً يقبلها أو يتزوجها. من الممكن أن يخرج معها، ولكنه لا يتزوجها.

ن : نعم، أنا أعلم.

أ : من الجائز أن يكون هذا هو السبب في موقف الآباء وفي الإجراءات التي يتخذونها. كي لا تفسد البنات مستقبلهن، أنت لا تجهلين أن المرأة في المجتمعات التقليدية لا تستطيع العيش في استقلال عن الرجل. فهذه المجتمعات ليس بإمكانها أن تتصور أن بمقدور امرأة أن تكون مستقلة مالياً، وأن تكون مسؤولة عن أفعالها، وأن بوسعها العيش بمفردها، أو اختيار الرجل الذي تحبه، أو اختيار الرجل الذي ترغب في أن تقضي الليل معه. لهذا السبب فإن هذه المجتمعات تعامل الفتيات كما لو أنهن عاجزات عن تدبير حياتهن. وهي تنظر إلى الفتيات من جهة كونهن «قاصرات» أبديات... والحياة الوحيدة الممكنة، والمستقبل الوحيد المتاح لهن، هو الزواج...

يغدو من المستحيل إذن أن تتزوج فتاة كان لها مغامرات غرامية وجنسية. أعتقد بأن السبب الرئيسي لكل ذلك هو أن الفتيات يُعتبرن مِلكيّة، لا كائنات حرّة ومستقلة، لهذا السبب فإن الآباء يكونون قُساة صارمين حين يتعلق الأمر ببناتهنّ وتتملّك واحدهم رغبة وحيدة هي السعي لتزويج ابنته من شاب ينحدر من أسرة ميسورة ومعروفة. ولكي ينجح في ذلك، يتحتّم أن «يحبسها» في المنزل، وهي طريقة للتعريف بأن ابنته عذراء لم يمسسها بشر من قبل.

ن : هذا يعني أن الفتاة عبارة عن استثمار، أو رأسمال ينبغي استرداده.

أ : نعم من أجل مصلحتها.

ن: لا، بل من أجل مصلحة والدها!

أ: من أجل مستقبلها...

ن: نعم، ولكن هذا المستقبل مرتبط بسياق المجتمع الذي تعيش فيه. (ملحّةً) هل تعتقد بأنه يمكن لأب أن يعيش قصة حب مع ابنته؟ نوعاً من هوى مشبوب؟

أ: إن شخصاً «طبيعياً» لا يمكنه أن يقيم علاقة حب مشبوب مع ذاته، وإنما مع جسد آخر، جسد مختلف... فإذا كانت ابنته هي «ذاته»، فإنها «جسده» بمعنى من المعاني. إن هذا النمط من العلاقة لا يمكن أن يكون إلا مرَضيّاً. ففي هذا النوع من العلاقة لا مكان للحب. لأن الحب يوحّد بين الأجزاء المختلفة، يوحّد بين الأضداد. ومن المستحيل التوحيد بين الشخص وذاته...

٥

It's a man's man's man's world(*)

نينار: قبل أن نتابع أودّ أن ألفت نظرك إلى أنك كنت حتى الآن بالغ التحفّظ والاحتشام، وكانت أجوبتك «تقليدية» إلى حدٍّ كبير! أنا أجد هذا مضحكاً بالأحرى، ففيما أبحث عن أدونيس الإنسان، وقعت على الأب. ولكن لنتابع. . . هل تعتقد أن بِمُكنة الإنسان الإفلات من قدره؟ هل يمكنه حقاً أن يكون حراً دون أن يفرض على نفسه ضغوطاً وإكراهات، ودون أن يتوسّل لنفسه عكّازات يتعكز عليها، على غرار الدين، أو المال أو الجنس؟ . . . هذا علماً بأنني، شخصياً، أعتقد بأن الجنس هو شيء ما «سماوي»، ضرب من «النيرفانا»! . . . لكنني أعتقد كذلك بأن الحرب جعلت اللبنانيين يدركون أن الله كان وهماً، غير أنهم كشعب متوسطي لم يستطيعوا أن يتقبلوا تلك الفكرة، واستمروا يزعمون أنه موجود وأنهم يؤمنون به. . . والواقع أن الإيمان والحميّة الدينية قد بدّلا الوجهة أو المرمى. . . أعتقد بأن اللبنانيين اليوم قد نصبوا، بالتأكيد، إلهاً جديداً هو الدولار! صار يجب

(*) **إنه عالم ذكور**، عنوان أغنية لـ جيمس براون James Brown، ١٩٦٦.

صنع أنصاب وتماثيل خضراء من الورق، وغدا الجري وراء المال أشبه بالهلوسة!

أدونيس: حقيقة أن اللبنانيين يحبون المال إنما هي ظاهرة قديمة، سبقت الحرب الأهلية. والشعب اللبناني ليس هو الوحيد الذي يضع نُصب عينيه هدف جمع المال. لأن المال يزرع فيهم شعوراً، وهماً بأنهم أحرار، ليسوا بحاجةٍ إلى أحد. وحينما يفتقرون إلى المال يشعرون بأنهم مقيّدون بالأغلال، فالحاجة إنما هي ضرب من العبودية، لذا فإن الحرية الكاملة ليس لها وجود. إنها في المحصِّلة مقيّدة بحدود وقواعد، وهي نسبية بحسب الثقافات والديانات والأعراف. . . فأنت بميسورك التحرك ضمن هذا الهامش بقدر ما تسمح شروطك بذلك. هناك أناس كثيرون لا يجازفون بخوض هذه المغامرة. ولكن، كقاعدة عامة، لا بد للمرء من أن يتساءل إلى أي حد يمكنه أن يكون حراً في مجتمع ليس حراً. ذلكم سؤال معقّد غاية التعقيد. أما ما هو مؤكد فهو حقيقة عدم وجود حرية مطلقة. وبمناسبة الحديث عن الحرية، فقد مُنعت صحيفة اللوموند بالأمس من دخول بريطانيا!

ن: آه، عجيب؟ لماذا؟

أ: نعم، لقد منعت لأن فيها مقالاً حول الحياة الجنسية للأمير شارل.

ن: هذا لا يُصدَّق!

أ: هناك دائماً حدود لـ. . . .

ن: ولكني لا أتكلم عن هذا النوع من الحرية.

أ : ليس من الممكن أن يكون المرء حرّاً كلّياً.

ن : هذا يعني أننا مجبرون دوماً على اعتناق دين أو أيديولوجيا؟

أ : حينما يكون الدين مرتبطاً بالدولة، ويصبح الدين شأناً سياسياً، فأنت لا تستطيعين في هذه الحالة توجيه النقد إلى الدين. وليس بإمكانك أن تعبّري بملء إرادتك عما تفكرين فيه. ليس بإمكانك، مثلاً، أن تتركي الإسلام، فإذا ما غيّرت دينك، فإن أي مسلم يحق له أن يسفك دمك.

ن : نعم. أنا أعلم.

أ : أي مسلم بسيط، فكيف تريدين لشخص فقير أن يكون حرّاً؟ تتوقف الحرية على تلبية الرغبات، وإذا كانت مرتبطة بالتعبير فذلك شأن يطول شرحه.

ن : كنت أودّ أن أتحدث عن حرية الكائن الإنساني، هل يمكنه أن يعيش دونما حدود، ودونما دين؟

أ : هناك العديد من الأشخاص يعيشون دون دين. وأنا واحد منهم. فأنا لا أؤمن بالدين.

ن : وأنا أيضاً. هل من الممكن العيش إذن دون أن يرتبط المرء بالدين أو بالمال؟

أ : يمكنك العيش حرة من دون دين، ولكنك لن تكوني حرة من دون مال.

ن : بهذا المعنى، فإن المال أشد قوة من الدين. هذا يعني أننا ما دمنا نعيش فنحن بالضرورة عبيد أرقّاء لشيء ما.

أ : ليس عبيداً بالضرورة. هناك قواعد تحدّ من الحرية، قواعد ثانوية حيناً وأساسية حيناً آخر، بحسب المجتمعات والثقافات والأفراد. فنحن عاجزون عن التفكير في الحرية إذا كنا من دون عمل أو من دون مال، لأننا سنكون بالضرورة تابعين للآخرين. هذه الحرية، في المحصّلة، أنت، نفسك، تخلقينها في عملك، فهي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالمسؤولية. فإذا لم نفلح في التعبير عن أفكارنا كما ينبغي، فكيف تريدين أن نكون أحراراً؟ لا بد من تحديد معنى الحرية بدقة. فالمرء يولد حراً، ولكن المجتمع يكبّله بالقيود، كما قال روسو.

ن : آه، حسن!

أ : ولكن كيف لنا أن نعيش خارج المجتمع؟

ن : المجتمع إذن هو الذي يفرض القواعد؟

أ : الأوامر والنواهي والضغوط إنما تصدر من داخل المجتمع...

ن : ربما يشكل الدين ضغطاً قاهراً لأنه مصنوع من أجل أن يمتلك السلطة ويحتفظ بمقاليدها.

أ : الدين والمال صِنوان لا ينفصلان. لقد كان الدين أحياناً وسيلة لتسلّم السلطة، وهو لا يستطيع أن يتسلم السلطة من دون المال. وحسب رأيي، فإن الدين كان وما يزال إحدى الوسائل للوصول إلى السلطة، والهيمنة على المجتمع.

توقف الحوار هنا، واستؤنف بعد ساعات.

ن: هل تعتقد بأن الرجل يمكنه أن يحب امرأة، لا تذكّره بأمّه، بنحو، أو بآخر؟

أ: ما في ذلك ريب. يمكنه أن يحب امرأة تبعده عن التفكير في أمّه.

ن: ولكنني لاحظت في كثير من الحالات أن ما أقوله كان صحيحاً! فقد كانت للمرأة الملامح الجسدية نفسها التي كانت للأمّ. من الممكن أن لا يكون التشابه جسدياً ويمكن أن يكون في السلوك أيضاً. كما لو كان هذا يعني العثور على أمّ ثانية...

أ: نعم، هذا ممكن... كما يمكن أن تكون امرأة تشبه ابنته أو امرأة من عائلته. على كل حال، فأنا أرى أن شخصاً يتزوج بشخص يشبه أباه، أو يشبه أمّه هو بلا ريب شخص يعاني مُعضلة شخصية أو بسيكولوجية...

ن: هل تعتقد بأن شخصين يمكن أن يتحابّا، وأن حبهما يمكن أن يدوم طويلاً، دون أن يتعرّف أحدهما في داخل الآخر إلى صورة والديه؟

أ: يمكن أن تحدث حالات من هذا النوع. ولكنك إذا طرحت هذا السؤال علي، فأنا لا أستطيع أن أبني علاقة إلا مع شخص مختلف، عني وعن والديّ سواء بسواء...

ن: هل تعتقد بأن الحب خارج الزواج يمكن أن يصمد للزمن، أو يقوم خارج منظور إنجاب الأبناء؟

أ : ما من شيء يدوم، لا الحب داخل الزواج، ولا الحب خارج الزواج.

ن : نعم، أعرف هذا. لقد قيل لي ذلك، والغريب أن الذين قالوه لي أو أخبروني به كانوا كلهم رجالاً. (ابتسامات).

أ : كل أشكال الحب مرتبطة بشروط البشر وبأوضاعهم. وأن تدوم قصة حب حتى النهاية، فهذا نادر كل الندرة.

ن : هذا مؤكد. ولكنني لم أقل إنهم سيحبون بعضهم بعضاً بجنون، كما في اليوم الأول، ما عنيته هو أن تلك العلاقة تكون ثابتة ومستقرة بنحوٍ ما.

أ : نعم. الحب يتحول إلى صداقة. أشكّ في أن قصة حب يمكن أن تدوم زمناً طويلاً بين شخصين... كل شيء يتبدّل ويتحوّل، لأن الكائن الإنساني هو نفسه في تبدّل مستمر.

ن : صحيح! فما من شيء يثبت ويدوم. وإذا نظرنا من هذه الزاوية يبدو الأمر أكثر بعثاً على الطمأنينة..

توقف الحوار هنا واستؤنف بعد فترة.

ن : كائنان اثنان أحبّ أحدهما الآخر حب الجنون، وتقاسما الحلو والمر وكل شيء، ثم انفصلا... لسبب من الأسباب، ولأسمِّه (س). وصارا صديقين، واستمرا يتلاقيان... حسناً، أنا لا أقوى على ذلك. إذا انفصلت عن الكائن الذي أحببته بجنون، عن الذي وهبته كل شيء، عن الذي شاطرته كل

شيء، فكأنني أقتلع نفسي اقتلاعاً منه، ولا يعود في إمكاني، بعد هذا الاقتلاع، أن أمنحه أي شيء، لأنني على يقين بأن جسدي، وقلبي ودماغي يسيرون معاً. . . لأنني إذا أحببته ثانيةً فسأرغب أن أكون معه. . . أنا عاجزة عن القيام بنصف إجراء. . . لا أصدّق أن شخصين يتبادلان الحب يمكنهما أن يفترقا. هذا مستحيل! فإذا انفصل هذان الشخصان فلأن أحدهما تخلّى عن الآخر. أو لأن أحدهما وجد هذا ملائماً له. ماذا ترى في ذلك؟

أ : أنا أيضاً لا أفهم هذا، ولكنه يحدث. . . يمكن ذلك الحب أن يتحول إلى صداقة «باردة» دون ضغينة ولا موجدة. ولكن هذه العلاقة لا يمكنها أن تتحول إلى صداقة متينة. . .

ن : إذا لم يعد هناك ثقة بين اثنين، فكيف يصبحان أفضل الأصدقاء في العالم! يعسر عليّ فهم ذلك. لقد لاحظت أن النساء أقوى وأشجع من الرجال. لا أتكلم هنا عن المآثر والأفعال البطولية، أو عن الخطر أو الحرب، بل عن حالات العشق الصعبة بالأحرى، وجدت أن النساء أشجع من الرجال. وأن بمستطاعهن أن يتخلّين عن كل شيء في سبيل رجل، أو من أجل بناء حياة جديدة في مكان آخر، ذلكم شيء أنثوي جداً، كما يبدو لي. وجدت أيضاً أن الرجال الذين يعيشون في وئام مع الشطر الأنثوي الراخم فيهم قادرون على أن يمتلكوا هم أيضاً هذه القوة. حدثني إذن عن «شطرك الأنثوي»؟ هل هو شيء يبعث فيك الخوف؟

أ : على المرأة أن تكون قوية. لأن امرأة «سهلة» مع الرجال تضنى طوال حياتها. على المرأة أن تكون قوية إلى أقصى

حد، وأن لا تهب جسدها إلا للشخص الذي تحبه حقاً. فإذا مُنيت هذه العلاقة بالإخفاق، فعليها أن تفكر وأن تحترس قبل أن تمنح جسدها شخصاً آخر.

ن: ولكن ليس هذا ما سألتك عنه، ليس هذا هو السؤال!

أ: من أجل هذا السبب يجدر بالمرأة أن تكون أقوى من الرجل.

ن: هل تعني أن هذا هو ما يجعلها أقوى؟ أم ما يجبرها على أن تكون أقوى؟

أ: إذا كانت المرأة «سهلة» فإن حياتها ستغدو بالغة العُسر، فهي ستفقد احترام الرجال لها.

ن: هل تقصد أن على المرأة أن تكون قوية على كرهٍ منها، كي تتغلب على المشكلات التي يخلقها لها مجتمع متخلف؟

أ: حتى في المجتمعات الحديثة... تُرى، ماذا تعني المجتمعات الحديثة. إنها مدن كبرى لا يعرف شخص فيها شخصاً آخر، لا يعرف شخص فيها من عاشر من...

ن: لا. هذه مسألة تربية.. ليس لهذا أي علاقة مع كبر المدينة أو صغرها...

أ: في المجتمعات القروية يتبادل الناس في اجتماعاتهم مثل هذا الحديث. فالجميع يعرفون من فعل كذا ومع من، سواء كانت المرأة متزوجة أو غير متزوجة...

ن : أنا أصرّ على أن هذه مسألة تربية. ففي الشرق، أو في البلاد العربية، الأم هي التي تربّي أولادها الذكور... وعلى الرغم من كونها امرأة فإنها تقول لابنها بأن يتزوج فتاة عذراء. الأم هي التي تقول ذلك، لا الأب، أي جنون هذا!

أ : ذلك لأنها تعرف بالتجربة أن المرأة التي تعاشر رجالاً آخرين خلال حياتها لا يمكن أن تكون مخلصة للرجل الذي سيتزوجها.

ن : إن من السذاجة التفكير على هذا النحو! فالمرأة التي لديها تجربة مع رجال عديدين تعرف كيف تجتني المتعة وكيف تهبها. فهي ليست فتاة ساذجة تجد نفسها هناك، على سرير، دون أن تدري ما الذي يحدث لها!

أ : نعم، ولكنها إذا تزوجت بعد كل التجارب فلا يمكنها أن تكون مخلصة لزوجها...

ن : هذا الحديث وهذه المحاكمة بعيدان كلّياً عن الصواب وخطران للغاية. إذ من الممكن أيضاً لفتاة لم تعرف الرجال قط، وبقيت عذراء، أن تفعل ما تشاء وتذهب مع من تشاء بعد أن تتزوج وتزول عذريتها، أفلا يحدث هذا في كل وقت، في المجتمعات الشرقية بسبب الكبت الشديد؟

أ : إنهن يعشن حريتهن في الخفاء، أو لا سبيل إلى الاعتراف بحريتهن من قبل الآخرين.

ن : أنا أشتمّ في منطق الأمّ التي تقول لابنها أن يتزوج فتاة

عذراء وفي كلامها رائحة العنصرية، مهما يكن من أمر فهي عدوّة المرأة! لأن كمال المرأة لا يكمن في فرجها!

أ : نعم، إنه على الأرجح كلام خاطئ. . .

ن : بل إنه كلام خاطئ بالتأكيد. فالإخلاص لا علاقة له بالعذرية!

أ : ذلك لأن هذه المجتمعات تطابق بين العذرية والطهارة. يجب أن يكون الزوج هو الرجل الأول الذي تلتقيه، وتقيم معه علاقة. وواقع أنه الرجل الأول يُعدّ ضمانة لاستتباب علاقتهما بصورة حسنة، وترسيخ الثقة بينهما، إلخ.

ن : إن استتباب علاقة حب أو علاقة زواج لا يتعلق بطهارة الفتاة أو بعذريتها، بل بسلوك الرجل معها وبسلوكها معه، سواء بسواء. ذلك أن علاقة بين رجل وامرأة يمكن أن تتفتح وتزدهر إذا كان الرجل محباً مغرماً بامرأته، يُحسن الاهتمام بها. إذا كان يصغي إلى أدق خلجات جسدها، ويمارس الحب معها بكل جسده، وبكل قلبه، إذا كان لديهما أشياء مشتركة، ورغبات، وعواطف، مشتركة، إلخ. والأمر ذاته بالنسبة إلى المرأة. أما إذا كان الرجال ينوون أن يقتصدوا في كل ذلك، إذا كانوا لا يضمنون ذلك، إذا كانوا غير أهل لذلك، عاجزين ومبغضين للنساء، فذلك أمر آخر. لا يجوز اختزال إخلاص المرأة بعذريّتها أو اختزال الجمال الخارق بالعلاقة «للمرة الأولى»! إن خضوع المرأة «دائماً وأبداً» هو أكثر ما يحلم به جميع الرجال المتخلّفين! إنه لأمر جوهري أن يتخالط الزوجان ويتآلفا روحياً قبل الزواج،

لأن هذه العذراء البائسة، يمكن أن تتزوج وتقع على رجل مثليّ يحب الرجال ولا يستطيع أن يمسَّها، وآنذاك ستغدو تعيسة، وكذلك هو، ويعيشان حبيسين في سجن للأشغال الشاقة.

أ : بوسع الرجل أن يعاشر العديد من النساء قبل زوجته، وما من أحد يلومه أو يذكره بسوء.

ن : ثمة لامساواة فادحة بين الاثنين...

أ : دون أدنى شك.

ن : لكني أعود إلى السؤال الذي طرحته عليك في البداية. أنت لم تقل لي شيئاً حول الرجال الذين يكونون في حالة وئام مع شطرهم الأنثوي. هل هم أقوى من الرجال الذين يعانون تصدّعاً في هذا الشطر.

أ : ليس في الميسور الإجابة عن هذا النوع من الأسئلة بهذه الطريقة، فنحن لا نستطيع أن نصدر حكماً بالمطلق، بنحو نظري. أسئلتك نظرية جداً. لهذا، يصعب أن أعطيك جواباً يتوخى الصواب والدقة. يمكنني أن أعطيك انطباعاً، رأياً. ولكن هذا لن تكون له علاقة مع الحقيقة الواقعية.

ثم إن هذه الأسئلة تتصل بمجتمعين اثنين. مجتمع حديث وآخر لا علاقة له بالحداثة. لديّ انطباع بأنك أنت التي تعانين صعوبات مع هذين المجتمعين كليهما، حتى لتبدو أسئلتك سائرة باتجاه الصعوبات التي تعيشينها الآن.

ن : ربما.

أ : أنا لم أواجه مثل هذا النوع من المعضلات.

ن : بالتأكيد، هناك فارق في العمر، ثم إنك رجل.

أ : أنا أواجهها بطريقة أخرى، على مستوى آخر.

ن : هذا يعني بالطبع وجهتَي نظر. لو كان لي عمرك وتجربتك، لما طرحت عليك هذه الأسئلة. أنا أطرحها بغية المقارنة بين رؤيتين، وتجربتين...

أ : لهذا فإن الإجابات تظل نظرية.

ن : نعم.

أ : هذه وجهة نظر شخصية.

ن : ولكن هذا هو ما أبحث عنه، ما أريده.

أ : ولكن هذا لا يحل المشكلة...

ن : كذلك فإن القيام بدراسة سوسيولوجية على مجتمع من المجتمعات لا يحل المشكلة أيضاً. من الممكن طرح أسئلة، أما الحلول، فذلك شيء آخر.

أ : أنا أرى أن لكل مجتمع من المجتمعات مستويين اثنين. أحدهما ظاهر والآخر محتجب، سرّي. والمجتمع المحتجب هو، في اعتقادي، ذلك الذي يعيش بأقصى قدر من الحرية. غير أن هذا الطابع السرّي مكبوت، وغير معترف به، بل إنه يتعرض لسهام النقد من قبل المجتمع الظاهر، المسيطر، مجتمع القوانين والسلطة والمال. ها هنا أيضاً يصعب عليك أن تطرحي أحكاماً،

فأنت لا تستطيعين أن تجري مقارنة بين مجتمع وآخر. هذا صعب. فلكل مجتمع آليّة عمله، وطريقة وجوده. تجري غالباً المقارنة بين دمشق وبيروت، على سبيل المثال. ففي دمشق مجتمع خفيّ يعزّ على التصور، أشدّ كثافة من المجتمع السرّي في بيروت، على الرغم من أن بيروت، تبدو، في الظاهر، أكثر تحرراً.

ن: لأن بيروت، أكثر تحرراً، على الأرجح، فهي لم تعد بحاجة إلى أن يكون لها مجتمع سرّي محجوب، في حين أن دمشق التي هي مدينة محافظة للغاية، وتقليدية، ظلت بحاجة إلى امتلاك بُعدٍ سرّي يعيش في الخفاء. فإذا سرت في سوق الحميدية، في دمشق، بين عروض المنتجات الحرفية، كالعباءات، والأراجيل، والأطباق النحاسية المصنوعة يدوياً، والمصاحف، والتحف الخشبية المصدّفة، يقع نظرك فجأة على سراويل داخلية نسائية صغيرة، تأخذ باللُّب... لا مثيل لها في بيغال! سراويل صغيرة للنساء، مشقوقة ما بين الفخذين، مع ريش ناعم صناعي، وحُبيبات كهربائية صغيرة، فحين تضغط على الزر تضيء وتومض على صوت موسيقى وأغنيات غربيّة شهيرة خاصة بالأعياد: «أجراس تصلصل، يا صنوبرتي الجميلة، عيد ميلاد سعيد، إلخ» مهارة خارقة! ويتبادر إلى الذهن سؤال يصعب كتمانه: ما الذي تفعله هذه السلعة في سوق شعبي، غير بعيد عن الجامع الأموي الكبير؟ تُرى، من الذي يشتري هذه المنتجات؟ من يرتدي هذه السراويل؟ ويدرك المرء بسرعة أنّ هناك إغواءً

عارِماً تختزنه هذه المدينة، على الرغم من المنظر الكالح، والمثبط للحواس، بل والمفرط في القبح للرجال الملتحين، وللنساء المحجّبات بقُفّازاتهنّ وبمعاطفهن الفاتحة اللون أو السوداء، تحت وطأة حرارة تقارب الأربعين درجة!

كنت تسألني كيف يمكنني المقارنة بين مجتمعين مختلفين، الفرنسي واللبناني. إيه حسناً. أنا أفعل ذلك بسهولة، لقد انحدرت من هذين المجتمعين كليهما، فهما يتعايشان في داخلي. انحدرت من مجتمع شرقي عربي، وها أنا ذا أعيش في مجتمع غربي، في باريس.

أ : تلك مقارنة صعبة رغم كل شيء، لأن المجتمع الفرنسي أنجز ثورته. وفصل بين الدين والدولة. لقد وضع قوانين، ورسّخ الديموقراطية. بينما لبنان ما يزال مجتمعاً قبلياً، إقطاعياً، ذا طابع طائفي. لم يقم لبنان بأي ثورة، بالمعنى العقلاني للّفظ، ليس ثمة ديموقراطية. فكيف تريدين المقارنة بين المجتمعين؟ هذا متعذر!

ن: بلى، ولكنني لا أستطيع المقارنة بين لبنان والعربية السعودية!

أ : نعم، ولكن لا يمكنك أيضاً المقارنة بين لبنان والمجتمع الفرنسي! لهذا السبب، فإن كل ما يتصل بالحرية في تلك المنطقة يُرى بوصفه ثورة على التقاليد، ويشير، في الوقت نفسه، إلى تأثير الحياة الغربية...

ن: نعم، هذا صحيح. حسن. حدّثني الآن عن «شطرك الأنثوي».

أ: لن أحاول أن أسرف في الحديث عنه، ولكنني، في الوقت ذاته، لا أستطيع السكوت عنه. إنه مرئيّ للعيان، سواء في علاقاتي مع الرجال أم في علاقاتي مع النساء. هناك العديد من النساء أحببني بسبب هذا العِرق من الأنوثة، وهناك أخريات أبغضنني بسبب هذا العِرق ذاته.

ن: هل هذا يقلقهن، هل يدخل جانبك الأنثوي في منافسة مع أنوثتهن؟ ذات مرة، ونحن إلى مائدة الغداء، سمعتك تقول بأن الزواج كان دائماً مؤسسة بليدة، أو لا طائل فيها. وقد أجبتك حينها: نعم، ولكن كيف تشرح لي أن الرجال الأكثر إثارة للاهتمام هم غالباً متزوجون (لا يجوز التعميم، بالطبع) ما هذا السر؟

أ: بحكم العادة، وبحكم المصلحة. تلك عادة اجتماعية. من الصعب الإفلات من إسارها. لا يمكن فعل أي شيء حيالها...

ن: هل هذا يعني أننا نقول شيئاً، ثم ننتهي بأن نفعل شيئاً آخر؟

أ: من الجائز أن الشخصين يكونان صديقين. ولكي لا يظلا صديقين فقط، يتزوجان. هذه الصداقة بين الاثنين تستمر أحياناً رغم الزواج. ولكنني، في ما يخصّني أفضّل أن تكون

الصداقة خارج الزواج، لأن مؤسسة الزواج، بالنسبة إلى هذين اللذين لديهما ما يقولانه، يمكن أن تكون خانقة، بل مميتة.

ن: ولكن كيف يمكنك أن تربّي أبناء، وتقول لهم ذلك؟ لقد تربّيت في بيت لُقّنت فيه أن الزواج ليس محتّماً، ولكنه ضروري... فكيف أمكنك أن تقول أشياء لا تؤمن بها؟ أم أننا نتزوج فقط من أجل المجتمع ؟

أ: لم أقل قط شيئاً من هذا القبيل.

ن: ليس الآن. ولكن حين كنت أصغر سنّاً.

أ: أنا لم أضعك في يوم من الأيام في أجواء الزواج...

ن: بلى، كانت هنا دوماً فكرة قارّة في الأعماق، فكرة الزواج من أجل المجتمع.

أ: تمنّيت على الدوام أن يكون لك أصدقاء «صالحون»، ليس أزواجاً بالضرورة. وبعد ذلك، فأنت التي اخترت معتمدة على تجربتك.

ن: نعم. هذا ما أقوله فعلاً. نحن نتزوج من أجل المجتمع.

أ: من الممكن رؤية الأمور على هذا النحو. ذلك أن مؤسسة الزواج هي عبارة عن استثمار اجتماعي. هناك أناس يتوافقون اجتماعياً، فينشئون حينئذ نوعاً من مشروع صغير لشخصين اثنين. بعضهم يصيب النجاح، رغم أن هذا النجاح

يخفي أحياناً أشياء كثيرة؛ أو أن هذا يغدو عقبة لأن الزوجين يظلان متمسكين بـ «المشروع» بداعي المصلحة فقط. فهما ما عادا يحبان بعضهما ولكنهما يتساكنان في الشقّة نفسها، محاولين أن يدبّرا أمرهما، ويعيشا كل في جهته.

ن: نعم، هذه هي حالة غالبية الأزواج.

أ: هم يتصوّرون أن كسر هذه العلاقة يمكن أن يكون أكثر خطراً، أو أعظم ضرراً من واقع اضطرارهما إلى أن يبقيا معاً حتى من دون عاطفة، أو حب، بخاصة إذا كان ذلك ملائماً للشخصين المعنيين كليهما.

ن: أنا أجد هذا غباوة! فمنذ البداية، يُستحسن العيش مع صديق، واتخاذ حبيب معشوق. تلك هي قناعتي.

توقّف الحوار هنا، واستؤنف في يوم آخر.

ن: كيف برئت من فِراق الريف، أنت الذي ولدت في ربوع قرية، وترعرعت في أحضان الطبيعة، بالقرب من الحيوانات، مقيماً علاقات فريدة مع الآخرين. ثم رحلت في طلب العلم إلى المدينة، ونأيت أبعد فأبعد عن القرية، إلخ. كيف تدبّرت هذا؟

فأنا حين غادرت بيروت، التي هي مدينة صغيرة بالقياس إلى باريس (بيروت لا تكاد تكون أكبر من حي في باريس!) أمضيت عشر سنين كي أتعود هذا الفضاء الفسيح، على مسافاته، وعلى

هندسته... كنت أشعر بأن على جسدي أن يعيد النظر في وعي المكان، أن يختبره. تماماً كحال المرء في الصغر؛ فهو يعتقد بأن باحة مدرسته هائلة الأبعاد، وكذلك المنزل، والرصيف الذي كان يلعب فوقه... وحينما يؤوب شابّاً إلى مراتع طفولته يكتشف باندهال بأن باحة اللهو لم تكن، في النهاية، كبيرة بذلك القدر.

أ: ما كان أشدّ رغبتي في أن يكون لي مدرسة في القرية. فلو تمّ لي ذلك، ووجدت المحيط الذي يمدّني بما كنت بحاجة إليه لما غادرتها في يوم من الأيام. ولكن رحيلي عن القرية كان على كره مني، ابتغاء تنمية طاقتي، واكتساب موقع لي في هذه الحياة. والآن وبعد أن أنجزت كل ذلك، فإني أعتقد جازماً بأنني سأفعل كل ما وسعني كي أعود إليها، كي أقيم في ربوعها، وألتقي الناس الذين عشت معهم يوماً، وترعرعت معهم. كي أزور الحقول التي عملت فيها... ومن أسف أن المنزل الذي نشأت بين جدرانه ما عاد موجوداً. أحب بشغف أن أجد من جديد كل هذا...

ن: في أية حالة ذهنية كنت، حين غادرت قريتك لأول مرة، متجهاً شطر المدينة.

أ: لم أكن أفكر فيها قط. لم أكن أحب الرجوع إليها. ولكنني الآن، وقد صنعت من حياتي شيئاً، واكتسبت اسماً وحضوراً في العالم...

ن: وامتلكت وسائل القوة...

أ : بدأت أتذكر القرية. وأنبش ذاكرتي عساني أعثر على الطفولة التي عشتها هناك، على ذكريات طفولتي. لقد كان فيها جوانب بالغة الثراء، طفولتي تلك...

ن : أما تغيّر المكان الآن؟ أما تجد صعوبة في العثور على المكان عينه؟

أ : نعم. كل شيء تغيّر، فأنا أتذكر منطقة كانت تبدو لي شاسعة الأبعاد.

ن : لأنك كنت صغيراً. تُرى، ما الذي تمثله القرية لديك؟ لقد عشت فيها صغيراً حتى بلغت الخامسة عشرة؟. فما الذي تنتظره منها بعد ستين عاماً تقريباً من النأي؟

أ : الذاكرة. إنها الينبوع الذي يغذّي ذاكرتي. أعتقد بأن الذاكرة جزء أساسي من الحياة، من العقل، من المشاعر. ينتابني شعور بأنني قد ولِدت داخل هذه الذاكرة وأن عليّ أن أوافي منيّتي فيها، أن أموت هناك حيث ولدت. ليس الريف فقط هو المكان الذي ولِدت فيه، بل إنه المكان الذي سأوارى فيه أيضاً.

ن : لماذا؟

أ : ليس في وسعي تفسير ذلك، ولكنّ هذا هو ما أشعر به. لشدّ ما أحب أن أدفن هناك... في ذلك المهاد الذي رأيت الحياة بين جنباته. لكم أتوق أن أعود إليه. يمكن للآخرين أن يقولوا عكس ذلك. لذا فأنا أعلم بأن هذا أمر شخصي محض. أفهم لماذا يرغب البعض في أن تُحرق أجسادهم بعد موتهم، وأن

يُذرّ رمادهم في مطرح من المطارح. في المحيطات أو في الفجاج، ولكنني أرغب أن أدفن في ربوع قريتي.

ن: ولكن لماذا؟

أ: لا أعلم لماذا. الأمر على هذا النحو.

ن: أحاول أن أفهم. فذلك المكان، ذلك المطرح الذي شهد ولادتنا، هل من الممكن أن يكون أقوى من المكان الذي لم نولد فيه، ولكننا فيه أحببنا، وعملنا، وفيه عشنا؟

أ: لهذا أقول بأن هذا شخصي. أعتقد بأن هذه مسألة تجذُّر، عودة إلى الجذور... طريقة في إقفال الحلقة، إذا صحّ القول، عَود إلى نقطة البدء.

ن: ولكن الحياة والموت مترابطان في المحصّلة، أو سيكونان كذلك، على الأقل. سواء حدث ذلك في المكان عينه أم في مكان آخر.

أ: نعم. ولكنّ هذا مَثَله كمَثَل شيء خارج ذاته ومكانه، وآخر داخله؛ صحيح أن الفرق شكلي، ولكن هذا الفرق أمر جوهري.

ن: هذا يعني أننا سنشعر بالأمان أكثر؟

أ: ولكننا بعد الموت لا نعود نشعر بأي شيء!

ن: بالضبط، وهذا سبب إضافي!

أ : ذلك شيء له علاقة باللاشعور. لست قادراً حقاً على تحليله. لهذا أقول بأنه مسألة اقتناع شخصي. لست ضدّ الذين يتمنون أن يُدفنوا خارج مطرح ولادتهم.

ن : أنا مثلاً، ولِدت في مستشفى، ليس لهذا أي معنى بالنسبة إليّ... لهذا فإنني أرغب أن يُحرق جسدي ويُنثر رمادي فوق مياه البحر المتوسط... ذلك معنى رمزي بالنسبة إليّ...

أنت تقول بأن «الهويّة» شيء نخلقه نحن بأنفسنا، وأنه في تبدّل مستمر، وأنه لهذا السبب مستقل عن الأوطان والجذور. لماذا إذن تصبح القرية، أو مسقط الرأس، بهذا القدر من الأهمية؟ إن مفهوم «الأرض» و«القومية» قد جعل الناس عبيداً، جعلهم تابعين للسلطة...

أ : ليس لهذا أي علاقة مع العبودية! إنه شيء طبيعي.

ن : لقد تطوّرت هويّتك، تبدّلت، فأنت أثريتها.

أ : بالنسبة إليّ، هذا خيار، وليس له علاقة مع الهويّة وتطوّرها... فإدوارد سعيد، مثلاً، لم يُدفن في القدس، بل في جبل لبنان ، في مقبرة عائلة زوجته. ليس بوسعنا أن نختار مكان ولادتنا، وإنما مكان موتنا. فنحن نملك اختياره. ذلك ما أفعله أنا. أختار مكان موتي.

ن : نعم... لا أدري، لست أفهم.

أ : هذا لا يمكن فهمه، فليس له علاقة بالمنطق.

ن : يمكنني أن أسلّم بقرارك، ولكنني لا أفهمه. إلا إذا كان

هذا مسألة اعتراف. لقد احتفى بك العالم بأسره، في الواقع، واعترف بك. بقيت تلك القطعة من الأرض، قريتك، والتي ستكون آخر من يعترف بك، الشاهد الأخير.

توقّف الحوار هنا واستؤنف في ما بعد.

ن: حين غادرت قريتك، وأنت في الرابعة عشرة، كنت تتحدّى، بنحوٍ ما، «قدرك». كذلك، فحينما ذهبت لتُنشد شعرك أمام رئيس الجمهورية، في تلك الفترة (٢٢ آذار/ مارس عام ١٩٤٤) الذي كان يزور منطقة الساحل السوري، وطلبت إليه «إرسالك إلى المدرسة»، وحصلت من بين أشياء أخرى، على استقلالك. ثمّ أخرجت نفسك من إسار الصيغة العائلية التقليدية العربية، فوجدت نفسك وحيداً، ولاسيّما حين فقدت والدك مبكراً جداً. هل كان ذلك تجربة قاسية بالضرورة. هل كان لتلك الحرية طعم مُرّ؟

أ: لا، على العكس. لقد علّمني ذلك دروساً جمّة.

ن: لقد أثراك ذلك، منحك الحرية؟

أ: ذلك هو ما منحني حرية أكبر، وعلّمني أن أعتمد على نفسي. تعلّمت أن أبني نفسي، أن أكون مستقلاً، أن أحب العمل. لقد بدّل هذا البعاد حياتي. وأعتقد أنني لو بقيت هناك لغدوت فلاحاً مثل الآخرين! إنها المصادفة التي خلقتني...

ن: لم تتحدث قط، تقريباً، عمّا كان من ردّ فعل أبيك بعد

«ظفرك» لدى الرئيس. ما الذي فكر فيه بشأن ذهابك إلى المدرسة؟

أ : كان طافحاً بالفرح، مترعاً بالسعادة.

ن : وماذا قال؟

أ : كان مزهوّاً بهذه المبادرة. كان ذلك مبعث فرح غامر له.

ن : لا ريب في أن هذا قد أفادك وشجّعك، وحتى لو فقدته بعد ذلك، في سنّ مبكرة. ولم يرك وأنت تحقق النجاح وتغدو شاعراً. فلربما كان هذا قد خلق إحساساً عميقاً عشتماه وتقاسمتماه معاً (لو كان شاهداً على انتصارك). هل يمكن لهذا الإحساس أن يمنحك العزاء لأنه لا يستطيع أن يراك اليوم.

أ : لا، في الواقع، فهذا شيء ما يزال يثقلني بمزيد من الحزن والألم. لكم تمنيت أن نرى بعضنا أكثر، أن نتعرف إلى بعضنا أكثر، فأنا، لم أكن أعرفه! لهذا السبب فهو في عقلي دائماً، ساكن هناك لا يبرح، كما لو كنت أسعى إلى التعويض من هذا الفقد الذي حدث مبكراً.

ن : سمعت مرة، إيليا سليمان، يردّ على أسئلة الصحفيين بعد عرض فيلمه «يد إلهيّة» (الذي حصل على جائزة لجنة التحكيم في مهرجان كان عام ٢٠٠٢) قال يومها شيئاً جميلاً وصحيحاً: «غدوت يهودياً. بالمقابل فإن كثيراً من اليهود في إسرائيل فقدوا صيرورتهم اليهودية». لقد أعجبتني الفكرة عن

«الصيرورة»، ولهذا فأنا أقرأ الآن كتاب: «الألف هضبة Mille Plateaus» لدولوز وغاتاري. لم أفهم منه شيئاً حتى الآن، ولكنني لم أستسلم حيال صعوبته، لأنني مبلبلة جداً إزاء قصص «الصيرورة الحيوانية». وأنت. في أي «صيرورة» تكون، وصوب ماذا دفعك المنفى أو حملات الهجوم ضدك؟

أ: الوسط الذي تطوّرت فيه، اجتزته، وحيداً. لم أعشه، ولم أحاول الاندراج فيه. عشت محافظاً على مسافة، وهو ما سبّب لي مشكلات. ولكنه جعلني أيضاً أتقدّم بقوة. لم أندمج بهذا الوسط، ولم أهاجمه أيضاً. لهذا السبب، ربما، جرى تفسير ذلك بعدم ركوني إلى الاستقرار والثبات... فبلدك أمّتك، أرضك، (سمّها كما شئت) لست أنت التي خلقتها. وحده الحيوان يظل على علاقة مع الأرض التي يعيش فيها. من زاوية النظر هذه، أنا أقرب إلى الطيور المهاجرة. إنني بعيد عن ذلك الشعور بالانتماء إلى مكان، إلى أرض. فهذا «المكان» هذه الأرض، أحملها معي أنّى يمّمت وجهي.

ن: ولكنك مع ذلك قررت أن تموت على (وحتى في) أرضك الأم. ألا يحمل هذا تناقضاً؟

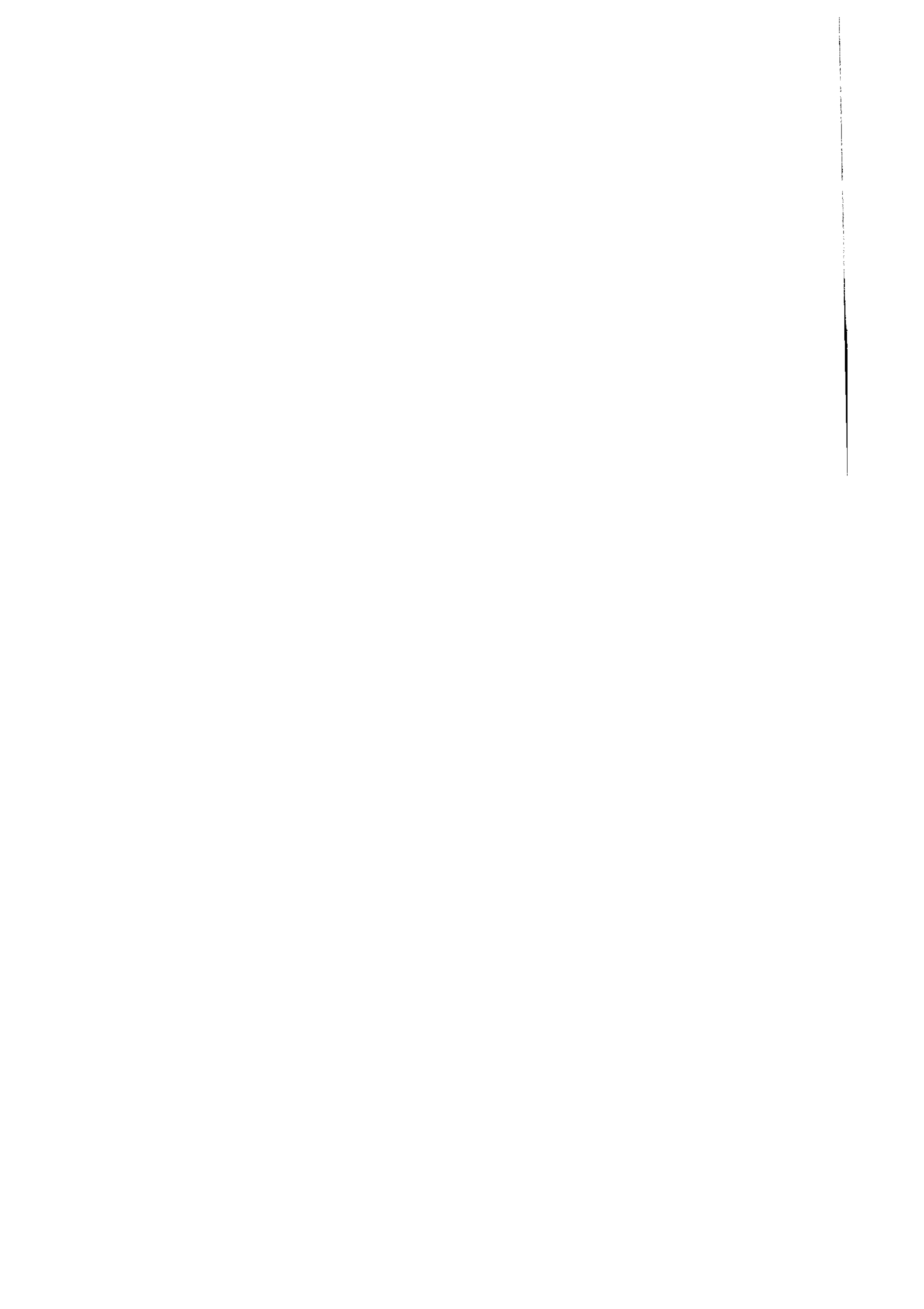
أ: نعم. لأنه ليس ثمة حركة في الموت. فأنا لا أعود أتحرك!

ن: نعم.

أ: في كل مكان ذهبت إليه، ابتدعت مكاني الخاص.

فأنا أتعلق بالمكان الذي يمنحني إمكانية التفتح، والعمل، وممارسة جميع نشاطاتي. أما المطارح التي تعيقني عن هذا، فأنا أبارحها وأبدأ في البحث عن مطارح أخرى أكثر مؤاتاة لي.

بالنسبة إليّ، فإن المكان ليس سوى فضاء مرتحل. لقد قلت دوماً إنّ «وطني» لم يكن سوى لغتي... اللغة التي بها أكتب.



٦

Je t'aime moi non plus(*)

نينار: هل ساعدك الشعر على العيش؟ أو على البقاء؟ وكيف؟ إلا إذا لم يكن قد لعب دوراً كبيراً بهذا القدر؟

أدونيس: أعتقد أن الشعر والكتابة كانا، بالنسبة إليّ، نوعاً من التعويض، عن كل ما له علاقة بـ«الوطن»، وبالأرض... لقد ظلت صِلتي بعالم اللغة أقوى من علاقتي بالبشر وبالأمكنة. ربما كان هذا نقصاً أو خطأ. ولكنّ الأمور جرت هذا المجرى. لم أنسج قط علاقة مع المكان بحدّ ذاته، بل مع الخيط الذي يشدّني إلى المكان. وهذا الخيط هو الرباط الذي أتاح لي أن أكتشف نفسي، وأن أحيط بها أكثر. ولولا أن ساعدتني اللغة لما استطعت تحقيق ذلك.

ن: وهذه اللغة، بقدر ما أنت تخلقها، فهي لا تبرح تخلقك في الوقت ذاته.

أ: بالضبط.

(*) **أحبّك، ولا أنا**، أغنية لسيرج غينسبرغ وجين بيركن Serge Gainsbourg et Jane Birken، ١٩٦٩.

ن: أيّ موقع تحتلّه اللغة اليوم عندك؟ هل تطوّر هذا الموقع مع الزمن؟ وهل تشعر أنك ما تزال بحاجة إليها أكثر بكثير مما مضى؟ هل تملك المزيد من السيطرة عليها، أم أنها الآن أسرع إلى التسرّب من قبضتك.

أ: هذا مرهون بالعلاقة مع الذات. فما دامت هويّتي في تحوّل مستمر، فإن لديّ شعوراً مزدوجاً. فمن جهة، لابد أن تأخذ هذه الهويّة مداها في المكان، ومن جهة أخرى، فهي بحاجة إلى الزمن، لكي تستطيع أن تحتل موقعها. ويغدو الزمن أكثر أهمية من المكان. لهذا السبب، فإن علاقتي بالزمن علاقة تراجيدية، لأنني لا أبرح أشعر بحاجة ماسّة إلى الزمن، في حين ما عاد لديّ منه الكثير... لهذا فإن الأيام التي يعيقني عائق عن العمل فيها، توقظ لديّ شعوراً بأنني فقدت الكثير من نفسي... فمع تقدم العمر، يتولد لديك شعور بأنه ما عاد لديك الوقت لتقولي ما أنت بحاجة إلى قوله. وهذا شعور ممضّ للغاية، ولاسيما حين يكون لديك الكثير من الأشياء التي تودّين قولها، أو حين تملكين السيطرة على موضوعك. يراودني شعور أحياناً بأنني كلما تقدمت في رحلة العمر أكثر صنعت أشياء أقل، وأنني ما عملت كل ما كان عليّ عمله. وكل هذا يخلق لديّ حسّاً تراجيدياً.

ن: ما الذي جنيته حقاً من كتابة الشعر؟

أ: لقد أجبت سابقاً عن هذا السؤال بالقول إن الشعر أتاح لي أن أعرف نفسي. وأعرف العالم الذي يحيط بي على نحوٍ

أعمق وأشمل. أتاح لي، على الأخص أن أعيش حياتي على نحوٍ أفضل.

ن: هل الشعر هو الميدان الذي اخترته أنت بنفسك، أم أنك تأثرت بالحب الذي كان يوليه والدك للشعر العربي القديم (ربما كان ذلك نوعاً من هواية ثم انتهيت بحبه والولع به)؟

أ: وُلدت في مناخ يَسَّر لي هذا اللقاء.. كان والدي نفسه شاعراً، وهو الذي علّمني قول الشعر. وُلدت في أكناف الشعر، صُنعت من الشعر. ولكنني نأيت بنفسي عن ذلك الشكل الأول. فقد تطوّر هذا الشكل، وتحوّل إلى شكل جديد، مختلف كلّياً...

ن: هل هذا يعني أن علاقتك بالشعر في البداية كانت أمراً مسلَّماً به؟

أ: لم تعد لي علاقة مع ما كنت عليه في الماضي. لقد تغيّر شعري كلّياً.

ن: في البداية إذن، كان هذا أمراً مسلَّماً به، كان بديهياً.

أ: نعم، مثله مثل ولادتي...

ن: كيف نعرف أن ما نكتبه صالح للقراءة وأنه سيلاقي قبولاً؟ كيف عرفت أنت أن ما كتبته كان جيداً، وفريداً، وجديداً؟ هل هذا شيء نستشعره في داخلنا، أم أن الناس هم الذين جعلوك تطمئن إلى ذلك؟

أ: في البداية، ثمة عنصر خارجي، الآخر. فعبر ردود

أفعاله، وطريقته في القراءة، يوحي إليك بمدى أهمية ما تكتبين وقيمته. وبعد ذلك فإن الشعراء والمبدعين، في اعتقادي، هم الذين يصبحون فوانيس هادية لأنفسهم ولبعضهم بعضاً. يصبحون أفضل الحكام على أعمالهم. لأنهم ينتمون إلى سياق واحد. فحينما تكتبين قصيدة، فأنت تقارنينها، بوعي منك أو من دون وعي، بما صنعه الشعراء عبر اللغة ذاتها. وبفضل هذه المقارنة يمكنك معرفة ما إذا كان ما كتبته مختلفاً ومتميزاً. ما إذا كانت قصيدتك جديدة أم لا . . . أعتقد إذن بأن الحَكَم الوحيد الممكن هو الشاعر ذاته، فإذا كان نزيهاً، فهو أول ناقد لشعره.

ن: أظن بأن هذا يسري على كل مبدع.

أ: ما من أحد قادر على أن يفهم عملك أفضل منك أنت ذاتك.

ن: هل تظن بأننا بحاجة إلى تشجيع الآخرين؟ هل تناقش قصائدك وأفكارك الجديدة مع أصدقائك؟ مع من؟ هل يهمك عرض أفكارك الجديدة على الآخرين، أم أنك ترى من الأفضل أن تعرض فكرتك على الورق ما إن تجدها ناضجة؟

أ: في الماضي، كنت معتاداً قراءة قصائدي أمام أصدقائي قبل نشرها. أما الآن فما عدت أفعل ذلك. فأنا أقول ما ينبغي عليّ قوله دون الرجوع إلى أحد.

ن: إلى أي حد يحتاج الفنانون، بمختلف ميادينهم، إلى نظرة نقدية من الجمهور أو من المختصين؟

أ: في ما يخصّني، كلمة جمهور بلا معنى. فمفهوم

الجمهور إنما هو أسطورة، لقد أخذت هذه الكلمة اليوم وقعاً تجارياً، بنحوٍ أساسي. فالجمهور كمٌّ هائل من الأشخاص، مختلف بعضه عن بعض. فإذا أُعجب بك الجمهور، فهذا يعني أنك تقدّمين الطابع «العام» في عملك، لا طابعك الفريد. لهذا السبب، أنا لا أحب «الجمهور». ما يمتلك أهمية عندي هو الفرد، الشخص، القارئ. ومن جهة أخرى، فنحن لا نكتب من أجل أن نكون مقروئين؛ ولا نكتب، كذلك، للتعبير عن ذواتنا، أنا ضد هذه الفكرة. لأنك لا تستطيعين التعبير عن كينونتك كلها، ولكنك تكتبين، تبدعين لكي تتعرفي إلى كينونتك بنحوٍ أفضل، لكي تفهمي نفسك فهماً أعمق... لكي تفهمي العالم فهماً أعم وأشمل...

ن: لكي نفعل ونتفاعل مع العالم، والمجتمع؟

أ: فإذا كان الناس يستجيبون لعملي، ويقدّرون قيمته، فهذا حسن، وإذا لم يقدّروه فلست أعاني أية مشكلة أيضاً. هناك العديد من الفنانين، والكتاب، يكتبون للجمهور، أما أنا فلا.

توقّف الحوار هنا ثم استؤنف بعد فترة قصيرة.

ن: لديّ الآن سؤال هو أقرب إلى «الكليشه»، هل تعتقد أن بوسع المرأة أن تكون أمّاً وفنانة معاً؟ هل تقوى امرأة، في اعتقادك، على أن تكون كاتبةً عظيمة، أو فنانة عظيمة، حين يكون لها أسرة وأولاد؟ أعتقد بأن هذا مرهون بتنظيم الوقت، وبشعور داخلي ملحّ. إذا ما شعرت بأنني موجودة من خلال

أولادي، ومع أولادي، فلن تتهيّأ لي القوة أو حتى الحاجة إلى الخلق. ربما كانت هذه مشكلة مختلفة، أو أنها محاولة أخرى للحط من شأن المرأة، أو إشعارها بالذنب، بالقول لها إنّ المرأة هي أمٌّ أولاً، فإذا لم تكن أمّاً فإنها «عاقر». . .

أ : هذا مؤكد. لقد كان لدى باخ عائلة كبيرة جداً. . .

ن : أنا أتكلم عن النساء الفنانات. . .

أ : بالتأكيد، هذا محتمل.

ن : ولكن ليس هناك العديد من الفنانات العظيمات من النساء اللواتي أنجبن أولاداً. . .

أ : على العكس. يمكن لشعور الأمومة أن يفجّر كل عبقريتها.

ن : (مرتابة). . .؟

أ : من الجائز أن يحدث العكس. هذا مرهون بالنساء.

ن : آه! هو كذلك، بالأحرى.

أ : ليس هناك قواعد ثابتة.

ن : آه، حسن، لا أدري؟، ولكن لديّ شكوك.

أ : المرأة مثلها مثل الرجال.

ن : لماذا إذن يوجد رجال فنانون أكثر من وجود نساء فنانات؟

أ : بوجهٍ عام، هناك رجال فنانون أكثر عدداً. فضمن الإطار الاجتماعي لم يُتح للمرأة طوال التاريخ فرصة لتكريس نفسها من أجل فنها. لأن الفن بحاجة إلى جاهزية عظيمة، والمرأة لا تستطيع أن تهب نفسها كلّياً إلا لابنها، هذا أعظم ما فعلته.

ن : آه! انظر، حتى أنت تقول بأن «هذا خير ما فعلته»!

أ : أنا أتكلم عن الابن، مادام ذلك هو ما اختارته.

ن : آه، حسن!

أ : هناك أناس، حلمهم الوحيد في الحياة هو أن يخرجوا من أحشائهم كائناً صغيراً، يستمتعون بالنظر إليه، وبتربيته. ولهذا السبب فإن رغبتهم في الخلق ضعيفة جداً حسبما أعتقد.

ن : نعم.

أ : وهناك نساء يُنجبن أبناء، جرياً على مألوف العادة، في حين أن اهتمامهن الرئيسي في الحياة ينصب على فنّهن أو إبداعهن.

ن : ولكن إذا كان لديك أولاد، فكيف تريد أن تهتم بعملك أكثر من اهتمامك بأولادك؟

أ : أنا فعلت هذا دائماً.

ن : نعم، أعرف، ولكنك أب. بينما أتحدث أنا عن الأمّهات. لأن للأمّهات علاقة أخرى مختلفة مع الأبناء.

أ : هذا صحيح، تلك مشكلة حقيقية. غير أن هناك نساء لديهن أبناء، ويكتبن مع ذلك. ولكن يتعيّن، لهذا السبب، تفحّص قيمة ما يكتبنه، أو قيمة فنّهن.

ن : نعم بالتأكيد. يمكن لجميع الناس أن يكتبوا، أو أن يرسموا، أو يصنعوا أفلاماً، ولكنني أتحدث عن أولئك النسوة اللواتي يتملكهنّ استحواذ حقيقي...

أ : من أجل خلق شيء ما باذخ...

ن : نعم. لأن مدار الاهتمام هنا هو توظيف الطاقة!

أ : تلكم هنّ النساء العظيمات في التاريخ...

ن : ولم يكن لهنّ أولاد...

أ : لم يكن لهنّ أيضاً حياة زوجية سعيدة...

ن : فيرجينيا وولف، مثلاً، هل كان لها أولاد؟

أ : لا أعلم.

ن : كان عملها مستحوذاً عليها طوال حياتها. أليس كذلك؟ حين ترى امرأة على شاكلتها، فأنت تتساءل كيف كانت ستفعل لو أنجبت أبناء؟ لربما تصيبهم الأمراض! ليس بوسعك أن توزّع طاقتك على حياتك الأسرية (زوج، أولاد، إلخ) وعلى عملك... هذا مُضنٍ في حال استمراره!

أ : نعم تلك مُعضلة حقيقية.

ن : قُصارى القول أن ليس ثمة خيار لامرأة. سواء أكانت

أُمّاً، لا تملك أن تكرّس نفسها بكل كيانها لفنّها، أم كانت فنّانة، لا تملك أن يكون لها أبناء...

أ : ليست هذه قاعدة...

ن : أنت تدرك إلى أي حد يتعيّن على المرأة أن تكون قوية، جبّارة. يتحتّم عليها أن تبذل جهوداً أكبر بثلاث مرّات من أي شخص آخر، كائناً من كان.

أ : يلزمها إذن أن تمتلك شخصية قوية.

ن : ووقتاً ممتداً بلا حدود. فأنت مضطر إلى تقسيم وقتك إلى أجزاء عديدة.

أ : نعم. خليق أن تكون امرأة استثنائية.

توقف الحوار هنا واستؤنف بعد فترة قصيرة.

ن : إلامَ تمتد حدود الشعر؟ أين تقع تخومه؟ هل يمكنه أن يطيق التبدّلات، والتحوّلات، والثورات في أسلوبه، أم أنه سيكون أسيراً لبعض القواعد؟

أ : ثمة خصوصية للفن، سواء أكان شعراً، أم نحتاً، أم رسماً، ألا وهي أنه ليس هناك قواعد ولا حدود للفن. فالفنان هو الذي يضع القواعد، وهو يستطيع أحياناً أن يغيّر جميع أُسس الفن، أو الشعر، ما من أحد يمكنه القول بأن ما عمله ينتمي إلى الفن، أم لا. ذلكم، من دون ريب، أحد أعظم أسرار الخلق، والإبداع، وهو أنه لا يطيق أن يضع لنفسه حدوداً وتعريفات.

فالفن شيء دائم الحركة، جديد دوماً، وقواعده مندغمة في نسيجه. أنا أرى أنه ليس هناك حدود للشعر، فاللاشعر يكون أحياناً شعراً.

ن: كيف يمكنك أن تصف علاقتك باللغة العربية؟ إنها أداة عملك، وهويّتك، وجسدك، وروحك.

أ: لا أرى نفسي داخل أي لغة من اللغات. فاللغة العربية تسكن أعماقي، إلى حد أنها تغار من كل لغة أخرى. أعتقد أن التجذر العميق للغة العربية في داخلي قد حكم عليّ بأن لا أكون قط موهوباً في أي لغة من اللغات الأخرى. لقد أحببتها إلى درجة أنها أحبّتني، وطوّقتني. وحالت بيني وبين أن أتعلم لغة أخرى.

ن: ذلك شيء طالما استشعرته...

أ: قالت لي صديقة مرة بعد أن استمعت إليّ وأنا أتلو شعري: «لست بحاجة إلى امرأة، فأنت تمارس الحب مع اللغة!» وكانت على حق!

ن: أية علاقة تنصحني بأن أقيمها معها. ذلك وسواس دائم، في داخلي ما ينفكّ يقلقني. كتبت القليل بالعربية، ولكنّ هذا ليس كافياً، فأنا أشعر بهذه اللغة، كما لو أنها واجب ملقى على كاهلي، أو كمعشوق هجرته، وهو يلاحقني. أشعر فوق ذلك، بأن عليّ أن أمتلك زمامها حتى يتسنّى لي أن أعرفك أكثر، وحتى أحافظ على هويّتي العربية. إنني أتقلب بين هذين

الموقفين. موقنة بأنها ستكشف لي عن كثير من الأشياء حولك. أليس هذا غريباً؟

أ : نعم. تلك مشكلة حقيقية، ولكنني لا أملك حلَّها لك. عليك أن تهتمي بها وحدك، لأن من المستحيل فهم شاعر إذا لم نفهم اللغة التي يستخدمها. يمكننا عبر الترجمة أن نجد مدخلاً ما، أن نفهم الأفكار، والصور، وأشياء عامة أخرى. وأن نستشعر نفحة شاعرية، غير أننا لكي نستطيع حقاً أن نفهم شاعراً يتحتّم علينا قراءته بلغته الأمّ. ذلك هو مأزق الترجمة. وتلك هي، بنحوٍ ما، المشكلة التي تعترضك.

ن : ولكن إلى أي حد يتوجّب عليّ أن أفهمها؟

أ : يتوجّب عليك معرفتها كاملة. ولكن من الصعب عليك الآن الإمساك بزمامها.

ن : إلى أي حد؟ مَن ذا الذي يحدّد المستوى المطلوب؟

أ : من غير الممكن امتلاك لغة من اللغات بنحوٍ كامل، فنحن لا نمتلكها إلا جزئياً. مَثَل اللغة كمثل أفق لا نهائي، نتقدم صوبه، وكلما تقدمت أكثر شعرت بأن معرفتك باللغة تتضاءل. غير أن هناك جانباً اجتماعياً أيضاً: فنحن نولد في حضن لغة تشكّل جلدنا، تشكّل العروق التي تجري فيها دماؤنا. فإذا لم نرضعها منذ البداية الأولى، مع حليب أمهاتنا، فلن نفلح في تعلمها. يمكننا أن نتعلم مبادئها وأن نقرأ بها، ولكننا نعجز حقاً عن أن نكتب بها، لأنها مثل الصرخة الأولى التي تطلقينها حال

ولادتك، مثل شهقتك الأولى. وأنت الآن، كمبدعة وفنانة خليق أن تكون اللغة التي تستخدمينها على هذا المستوى. بوسعك الآن اختيار اللغة الفرنسية وحينئذ سيُنصب بيننا هذا الحاجز دائماً. حاجز شعري ولغوي. عليك أن تسلّمي به، ولكن لا ينبغي أن يكون منبعاً للقلق بالنسبة إليك. فأنا لا أعرف ما هي اللغة التي تصرخين بها وتبكين. لا أعرف إن كانت هي العربية أم الفرنسية، مهما يكن من أمر، فأنا أعتقد بأن لغتك العربية ستظل لغة ثقافة بالنسبة إليك، وليس لغةً أمّاً.

ن: لاسيّما أنني أشعر أحياناً بأنك أنت واللغة تؤلفان زوجين عصيّين على الانفصال! وأنكما اتحدتما في السرّاء والضرّاء. أشعر أحياناً بأنها أخت لك، وأن أباك عهِد بها إليك، طالباً إليك أن ترعاها، وأن تحبها، وتعيش معها، وتعمل كل شيء من أجل مرضاتها وجعلها سعيدة وجميلة... فهي تتألق بين يديك، وفي فمك على الأخص. إنها، في آن واحد، زوجتك وأختك وابنتك. من النافل القول بأن هذا هو الشيء الوحيد الذي يجعلني غيورة حقاً. لأنها جميلة فعلاً، قوية، وعاشقة. وهي متلألئة، متوهجة، مشبوبة الأوار، قاتلة وحاذقة. إنها شعر، إنها صنعة باذخة، إنها بديعة من البدائع، داخل فمك، وأسفل حلقك، وفوق لسانك، وفي أعماق حنجرتك... تتشرب الكلماتُ لُعابَك، فتغدو رطبة، دافئة... وحينما تغادر الكلمات فمك تلتصق من جديد داخله، في حركة لا تني ولا تتوقف؛ وأنت ما تبرح تخلقها من جديد. فالكلمة ذاتها حين

تقولها تختلف عنها متى قالها غيرك... فهي تنطق من خلالك، ومن خلال آخر. وليس الأمر ذاته. الكلمات مع الآخرين لها معنى أقلّ ولها معك معنى أكبر. فأنت تجعلها تفعل مثلما تشتهي لها، تنحتها، وتهدهدها كطفل في سرير. وحين يسمعك السامع وأنت تنشد قصائدك، فتلك لعمري قطوف من موسيقى التانغو، متمازجة بموسيقى الفلامنكو، مغموسة بنفحة من رقص شرقي... ومن دلهٍ، ورغبة، واشتهاء، وسحر...

أ : هذا صحيح، ولكنني أخشى أن يخلق ذلك حواجز بيني وبين القرّاء العرب. لأنهم يجدون صعوبة في التقاط لغتي، وفي فهمها فهماً وافياً.

ن : أعتقد بأننا إذا أردنا حقاً أن نفهم قصائدك، علينا أن نفهمها كفعل حب. كما لو أن هناك، حقاً، علاقة شهوية بينك وبين اللغة. ليس علينا أن نفهم الكلمة في ذاتها، بل أن نفهم بالأحرى علاقتك باللغة العربية. وندرك أن تلك ليست كلمات مثلما أَلِفتها آذاننا، بل كلمات تجري على لسانك...

أ : ما تقولينه بالغ الأهمية. هل اكتشفته بمفردك؟

ن : نعم، لأن هذا جلِيّ، لا يحتاج إلى اكتشاف، إنه مسموع، ومرئي...

أ : هل تشعرين بأن اللغة العربية أدخلتني في دائرة الحرام؟

ن : هي معشوقتك.

أ : إنها تخلق دائرة إحرام حولي. فهي لا تني تجعل القرّاء

عاجزين عن استيعابي، عن فهمي بنحوٍ وافٍ. حين تلاحظين معظم الشعراء، وهم يكتبون ويستخدمون اللغة، فأنت تشعرين بأنهم موجودون في مكان، واللغة العربية موجودة في مكان آخر.

ن: لهذا السبب، بالضبط، أجد أن اللغة العربية الآن، إنما هي أنت. لا يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك. وحتى إذا لم أقرأ قصائدك، فأنا أشعر بأن الصلة بينكما وثيقة جداً... ما سمعت في يوم من الأيام مثل ذلك السحر يجري على لسان أحد من الأحياء. ستقول لي، بالطبع، المتنبي، أو لا أدري من. حسناً، ولكنهم موتى...

أ: هناك العديد من الأشخاص الذين يوافقونك الرأي. لست وحدك من يقول هذا. جميع الذين يسمعونني أنشد قصائدي يقولون إنّ ذلك شيء آخر، مذاق آخر، تجربة أخرى. ويضيفون أنه ما من شخص في العالم العربي يجيد قراءة القصائد مثل أدونيس.

ن: وحتى في العالم كله...

أ: قرأت اليوم شيئاً جميلاً جداً كتبه فيليب سولرز.

ن: حول بيكيت؟

أ: نعم، حول بيكيت. تقول الجملة الأخيرة: «الصوت يحمل شذا الحقيقة». هذا جميل جداً! اللغة صوت. لشدّ ما أحببت هذه الجملة. فحينما تستخدمين اللغة وتقرئينها مثلما أقرأها، تشعرين حقاً بشذا الحقيقة يفوح من حولك.

ن : ذات يوم، سمعتك تقول إنّ من الضروري، حين ندقق في كلمات اللغة العربية، أن نعود إلى اللهجة المحلّية. ماذا يعني ذلك؟ كنت تتحدث مع المفكر الاقتصادي العربي سمير أمين.

أ : لا. قلت يومها إنّ معظم الكلمات في اللهجة المحلّية لها أصول في اللغة العربية. لهذا السبب، لابد أحياناً من تغليب اللهجة المحكية، لغة الحياة اليومية، على اللغة الأدبية والفصحى. لأن الكلمات تموت مثلما تموت الكائنات الحيّة، وتخرج من الاستخدام. هناك العديد من الشعراء، يذهبون للبحث في مقابر كلمات اللغة، كي يبعثوا الكلمات من قبورها. غير أن هذه الكلمات تبدو ميتة وغير قابلة للاستعمال، بعيدة، على الأخص، عن المعنى العام. لهذا ينبغي أن نحرص على أن لا نستخدم إلا الكلمات التي ما تزال جذورها حيّة في حياتنا اليومية. تكمن معضلة الشعر في أن الكلمات لا تمتلك معنى خاصاً، بل يجري تحديدها داخل النسيج. والشعر، أيضاً، أشبه بحرفة النسيج. تُحاك الكلمات فيه بعضها إلى بعض، ولكنه نسيج يُحاك عفوياً، كما لو كانت الكلمات ذاتها هي التي تُملي حبكته.

٧

Rock The Casbah(*)

نينار: لماذا، في رأيك، كل هذا التعلق بالأعراف والتقاليد في البلاد العربية؟ أعتقد بأن التقاليد كلها ما عادت تستحق هذا الحرص المفرط، وأن الناس الذين يُسرفون في التعلق بها عاجزون عن العمل من أجل المستقبل. لقد أزاحت الثورات في أوروبا هذا الركام من التقاليد. فهل وُجِدت في التاريخ العربي ثورات، وأفكار عن الديموقراطية؟ والفوضوية؟ هل حاول العرب؟ هناك تمرّدات وعصيانات بالتأكيد، ولكن ضد المحتل، ضد جيش غازٍ، مستعمر. هل يشكّل مفهوم الثورة جزءاً من البنية العقلية أو التاريخية عند العرب؟

أدونيس: التاريخ العربي حافل بالثورات. فهي لم تهدأ قط في يوم من الأيام. إنها ثورات صغيرة بالتأكيد، أو ثورات كان هدفها تقديم تأويل مغاير للإسلام. ولكنّ جميع الرجال النابغين من العرب في التاريخ الإسلامي، من أبي نواس حتى المعرّي، وجميع الشعراء العظام والفلاسفة، شقّوا عصا الطاعة على الدين.

(*) عنوان أغنية لفرقة Clash، ١٩٨٢.

وما من فكرة من الأفكار صدرت مباشرة عن الدين، مثلما يمكن لرائحة زكيّة أن تصدر عن زهرة. فالمفكرون والشعراء خلقوا زهوراً أخرى كي يستخلصوا منها رائحة زكيّة أخرى. لهذا لم يكن هناك أدب ديني في الإسلام، من جهة كونه ديناً، بحصر المعنى. وفي السياق ذاته لم تكن هناك فلسفة أيضاً. كان هناك لاهوت وشريعة، أعني كل ما تمحور حول تفسير القرآن، وسنّ القوانين والقواعد؛ وخارج نطاق ذلك كان الأدب والشعر كثيراً ما يُستخدمان لمناوأة الدين. فكل شاعر كان يعتبر نفسه نبياً، ويزعم بأن شعره أفضل مما جاء به الدين، وأنه ليس منصاعاً لما يدعو إليه الدين، ولكنّ كل ذلك ألفى نفسه مهمّشاً، لأنه مضادّ للدين، مضادّ للأخلاق الدينية والتقاليد. . .

ن : إذن، لماذا اليوم. . .

أ : اليوم، أصبحت الثورات مختلفة. فالتيار المهيمن صار همّه دائماً أن يثبت أنّ هناك ثورات ترفع راية الإسلام، ولكنها في واقع الحال، مثلما أرى، ثورات سياسية ليس لها اتساع آفاق الثورات الشاملة، الأيديولوجية، والفلسفية، والفنية، على غرار الثورات التي هي مدار اهتمامنا وحديثنا. فـ«الثورات» اليوم تنحصر بمطالب سياسية في مواجهة السلطة القائمة، أو في مواجهة هيمنة خارجية. لهذا فهي ليست ثورات حقيقية.

ن : لماذا لا نشهد ثورات بالمعنى الحقيقي للكلمة؟

أ : ولكن هناك دوماً تيارات تطالب بالعلمانية وتسعى إلى التقدم والرقيّ.

ن : في أية فترة من التاريخ؟

أ : في تاريخنا الراهن والمعاصر. لقد طالبت جميع الأحزاب، وطالب جميع المثقفين، بهذا النوع من المطالب في سائر البلدان العربية، ولكنهم خسروا معركتهم، ومُنيوا بالإخفاق بكل بساطة. وخابت أفكارهم وآمالهم. لأن النسيج الاجتماعي العام نبذ هذه الأفكار.

ن : ولكن لماذا؟

أ : كان التأثير الديني هو الأقوى.

ن : التقاليد؟

أ : التقاليد، والمؤسسات الدينية.

ن : لماذا المجتمع في أوروبا...

أ : لسبب جوهري. ففي الإسلام ليس الدين مسألة إيمان وحسب. ولكنه أسلوب حياة أيضاً. فالدين يدخل في أساس الزواج، والثقافة، والعائلة، إلخ.

ن : مثله مثل الدين المسيحي واليهودي. فالديانات التوحيدية حافلة بالأوامر والنواهي: «لا تفعل كذا، بل يجب عليك أن تفعل كذا. لا يجوز أن تمارس الحب مع زوجتك على هذا النحو، بل على هذا النحو!»...

أ : نعم. ولكن ما إن قامت الثورة حتى تغيّرت الأمور.. ولا سيّما في أوروبا، لقد أنجزوا ثورتهم. أما العرب فليس هذا

حالهم. الثورة لا تُبتكر هكذا ابتكاراً، لا بد لها من وسط مهيّأ لحملها...

ن: ما قلته الآن يشير إلى أن الوسط الاجتماعي ـ الثقافي في العالم العربي عاجز عن حمل هذا النوع من الثورة.

أ: نعم. بالضبط. فالمجتمع لا يمكنه أن يتغير أو يتقدم، ببساطة، لأن هناك بضعة أفراد متنوّرين، طليعيين، علمانيين. خذي لبنان على سبيل المثال، هناك العديد من الثوريين، ولكن المجتمع لم يتغير مع ذلك، لأن المجتمع لا يمكنه أن يتغير إذا لم تتغير المؤسسة، إذا لم تتغير بنية العائلة، وبنية السلطة أيضاً. فحينما تتغير المؤسسة، يتغير المجتمع، ولكن بُغية تغيير المؤسسة، ليس بمقدورك أن تفعلي ذلك بأفكار مجرّدة! أنت بحاجة إلى ثورة حقيقية، يُقبل الناس فيها على التغيير، وعلى الأخص تغيير المؤسسات.

ن: كيف يتقبل الناس التغيير؟

أ: يمكنهم أن يتقبلوا مع الزمن. ولكن كل هذا يحتاج إلى الزمن. فالثورة لا تُبتدع هكذا بسهولة.

ن: من أجل أن يتقبل الناس التغيير، وهو ما لا يحدث بين عشية وضحاها، لا بد أن يكونوا مهيّئين لذلك.

أ: نعم. هذا يتطلب سيرورة طويلة ودؤوبة. نحن لم ننجح بعد، وعلينا تقبُّل ذلك.

ن: ما الذي يمكنه أن يغذّي هذه السيرورة؟

أ : الأفكار. ينبغي دائماً التشديد على الأفكار. ينبغي دائماً التحدث عنها، وعدم التوقف حينما نلمس بعض التقدم. لأن من الجائز أن يتلاشى هذا التقدم أو أن يتراجع، لأدنى سبب.

ن : كيف تفسّر موقف أولئك المتثقفين اليساريين، وبعضهم كان في أقصى اليسار، حينما تحوّلوا إلى «إسلاميين» بعد الحرب؟ هذا شديد الغرابة!

أ : لأن أفكارهم، في الأساس، لم تكن عميقة، متجذرة. كان هؤلاء محترفي سياسة، كل ما يعنيهم هو الوصول إلى السلطة. كانوا يتصوّرون أنّهم ما إن يتسلّموا السلطة حتى يكون في استطاعتهم تغيير كل شيء. ثم ثبت في ما بعد أن ذلك كان وهماً وضلالاً. ذلك لأن الوصول إلى السلطة لا يعني أي شيء. فحتى الوصول إلى السلطة باسم الثورة يمكن أن يفرّخ من الفساد أكثر مما في حقبة السلطات المخلوعة. خذي مثلاً الأحزاب القديمة، التي كانت تُسمّى أحزاباً وطنية. والتي تسلّمت السلطة بعد الاستقلال، فقد كانت، للمفارقة، أكثر تقدماً من الأحزاب التي تزعم اليوم أنها ثورية.

ن : ما الذي يدور في رأس شخص ينتمي إلى أقصى اليسار حتى يغدو إسلامياً؟

أ : عوامل عديدة... أولها البنية الأيديولوجية لليسار المنتمي إلى العالم العربي. فهو يزعم أنه يمتلك أجوبة لكل المشكلات. على غرار الدين تماماً.

فالأحزاب السياسية في العالم العربي غدت للأسف أدياناً

جديدة. أنت لا تستطيعين مجابهة الدين بدين آخر. فلمجابهة الدين لابد من تقديم أفكار، وقِيَم، وفلسفة تُبطل مبرِّرات الدين. لم تحلل هذه الأحزاب تاريخياً أسباب الدين ومبرّراته التي أعطته قوّته وحضوره. لكنها كانت، على العكس، تتطلع إلى السلطة. وحين وصلت إلى السلطة نسيت القاعدة الأساس، لهذا فقد خاب مسعاها ومُنيت بالإخفاق.

ن: قلت قبل قليل إنّ أحد الشروط التي تمكّن من قيام ثورة هو تغيير المؤسسة.. ولكن ألا تلاحظ أيضاً أن المجتمعات العربية مُمعنة في الانكفاء على نفسها الآن، وهي ترفض الاختلاط بالتالي؟ أفلا يكون التعصب الذي نراه يستفحل الآن هو الخلجة الأخيرة لنزعة المحافظة، قبل حدوث انفتاح لا معدى عنه. هذه المجتمعات ستهلك بالتأكيد لعزوفها عن التجدد. وسيكون هذا التعصب خلجة اليأس الأخيرة قبل النهاية.

أ: بكل تأكيد. ثمة نكوص رهيب وعنصرية مروِّعة.

فما يزال الزنجي يُسمّى عندنا، حتى اليوم «عبداً». وهناك أيضاً هيمنة متنامية للدين. فالدين يزداد قوة يوماً بعد يوم، ليس فقط على مستوى الأفكار بل على مستوى المشاعر، والتقاليد، والحياة اليومية. تزعم بعض الأحزاب بأنها إذا تسلّمت مقاليد السلطة فستغير الأحوال وتقلب الأوضاع، ولكن بعد خمسين عاماً على تسلّمها السلطة، ومحاولتها التغيير، ورفعها لواء التغيير، ظل الوضع على حاله. خَبَث وزبد، وهشيم تذروه الرياح. لا معدى إذن من إعادة النظر في الأمور، والتفكير في حلول أخرى.

والواقع أن شرارة الثورة، وشرارة المطالبة بالحقوق يتعذر أن تنطفئ داخل المجتمع، لأن هناك دوماً تيارين اثنين يصطرعان داخل المجتمع: التيار المحافظ، والتيار الذي يسعى إلى التغيير، ولا تبرح جذوة الصراع تتّقد بين هذين التيارين، وهاتين الرؤيتين. لا بد لنا، من أجل التغيير الجذري، ومن أجل الثورة، من سنوح فرص تاريخية... فلنترقّب إذن...

ن: ألا تتصوّر أن ثمة خطراً محيقاً يهدد بانفجار هذه المجتمعات الراكدة، المنغلقة على نفسها، الرافضة للتغيير والتمازج؟

أ: أجل: تلك واحدة من أعظم المعضلات التي تلقي بثقلها على كاهل المجتمعات العربية المعاصرة. حتى فكرة «الشرق» آخذة بالزوال. ما الذي تبقّى من الشرق العربي؟ لم يعد هناك تاريخ للاستشراق. فالمجتمعات العربية اليوم تشكّل جزءاً من الغرب، لأنها ما عادت تنتج أي شيء. بل إنها تعيش على إنتاج الغرب، وإنتاج الآخرين.

ن: نعم، هذا صحيح. فالشرق العربي أشبه بضاحية خلفية للغرب، لا أهمية لها في نظره. ولكن الشرق العربي يرفض دائماً التسليم بذلك. فمازال العرب يتحدثون عن العروبة، وعن الأمة، إلخ.

أ: الواقع، أن الدين هو الذي يغذّي هذا الوهم. فالمجتمعات العربية تستعمل كل مخترعات الغرب، ولسان حالها يقول: إن الله هو الذي سخّر لنا هذا! فيما تظل راكدة كالطود في

مكانها. . . ذلك وضع مستحيل، لا يمكن أن يدوم. ولكن، مرة أخرى، لابد من الوقت. لأن مجتمعاً ظل على هذا النحو ألفاً وخمسمئة عام لا يمكن تغييره في عام أو عامين. ربما يحتاج الأمر إلى خمسمئة عام أخرى!

ن: هذا يعني أن الإسلام هو الذي يشكّل بنية المجتمعات العربية. وأن الدين هو الحجر الأساس أو البنية العميقة. هل ثمة عناصر أخرى كان لها تأثير بنيوي وبنّاء؟

أ: الإسلام يؤلف قاعدة هذه المجتمعات، إنه بنية سياسية ـ دينية.

ن: ما الذي أصاب ذلك المجتمع الذي كان موجوداً قبل الإسلام. لقد ظهر الإسلام منذ ألف وخمسمئة عام تقريباً. . . ولكن قبل ذلك كانت هناك حضارة أخرى، ما الذي ورثناه من تلك الحضارة؟ لا شيء؟

أ: لقد جرى تدمير كل شيء. . .

ن: كل شيء؟ لم يتركوا منه أثراً؟

أ: على الإطلاق!

توقّف الحوار هنا، واستؤنف بعد فترة قصيرة.

ن: لاحظت أن كثيراً من النساء العربيات «يعلنّ حرباً» على الشَّعر. لديهنّ تقليد راسخ بنتف الشَّعر بواسطة شمع النحل أو غيره. فالنساء ينتفن. أو يكلِّفْنَ من ينتف لهنّ شعر الساقين

والفخذين، وما تحت الإبطين. بل والذراعين والساعدين أيضاً. وشعر العانة. أنا أتساءل ما إذا كان هذا شيئاً قد ورد في القرآن. على كل حال، هناك من قال لي إن الشيعة (رجالاً ونساءً) يحرصون على نتف شعر الجسم بكامله! من أين جاء هذا الاستحواذ، بنتف الشعر، في رأيك. هل يفعلن ذلك ابتغاء النأي بأنفسهن عن الحيوانات، وعدم التشبه بها؟ أم بسبب القذارة؟ لماذا يكون الشعر قذراً إلى هذا الحد؟

أ : لا. يجوز أن هذا يعود إلى سبب آخر. كي يظهرن مختلفات عن الرجال اختلافاً كاملاً.

ن : آه، نعم. هذا محتمل!

أ : الرجل هو الذي يكسو جسمه الشعر. فهنّ يحسبن، ربما، أنّ هذا الاختلاف هو ما يجذب إليهن الرجال. أنا أعتقد بأن هذه فكرة جنسية (إيروسية) سبقت الأدب الجنسي. فالرجل يكره أن يرى شعراً على جسد المرأة، وإلا فإنها تشبهه.

ن : هذا مثير للاهتمام... لم يخطر لي ذلك البتة!

أ : يبدو لي أن هذا هو السبب...

ن : نعم. أتصوّر أنّ هذا نوع من الهوس تقريباً. فأنا أعرف أشخاصاً ينتفون شعر الذراعين... هل يحلق الشيعة أجسادهم تماماً؟

أ : لا. فالشيعة يرخون لحاهم ويتركونها تطول.

ن: لا، أنا لا أتكلم عن اللحى. . .

أ: هم ليسوا ضد الشعر، بالمطلق.

ن: ألهذا السبب، يعتقد بعض الأشخاص أن الشعر جزء من الجسم لا يجوز الكشف عنه، وأن بعض النساء، يبادرن، من تلقاء ذاتهن، إلى تغطية شعورهن بخِمار؟ أم أن ذلك ببساطة يمكن أن يوحي بأفكار جنسية؟

أ: لا. هناك تفسيرات عديدة لما تقوم به النساء من ارتداء الحجاب. من الممكن أن يعني ذلك أنه لا يجوز للنساء الاختلاط بالرجال، خشية حدوث شيء ما! فهم يقولون بأنه إذا ما التقى رجل وامرأة كان الشيطان ثالثهما! ويقولون بأن من الممكن أن يفتتن أحدهما بالآخر. وهم يريدون أن يحولوا دون هذا الافتتان. ولكنهم، ببساطة، لا يولون أية خطورة إذا ما استهامت المرأة، أو دار في خلدها أفكار! . . . فالإثم والخيانة، في نظرهم، هما التقاء الأجساد، أو اختلاطها بعضها ببعض. غير أن الرجل (أو المرأة) يقترفان الخيانة بأفكارهما، أو بأحلامهما، أو بمشاعرهما، ولكنهم لا يعيرون ذلك أي انتباه.

ن: ألا تعتقد بأن المرأة التي تغطي شعرها، أو التي تتحجب تغدو أقرب إلى «جنس متجوّل». ألا يشير واقع ارتدائها للحجاب إلى واقع أن رأسها عورة، عورة محجّبة. فبدل أن تغطي عورتها تلك فهي تستلفت إليها الأنظار، وتظهرها أكثر إلى الملأ. تأمل هذا المشهد الطريف جداً، فعلى شاشة القناة الفرنسية الثانية «فرانس دو»، برنامج اسمه «كامبوس» ظهرت فيه

الأختان ليفي محجّبتين. كان قد دعاهما مدير البرنامج غيوم دوراند إبّان عاصفة الجدل حول الحجاب في المدارس.. انبرت إحدى الأختين لتدافع عن الحجاب قائلة: «الحجاب، إنما هو من أجل الاحتشام. فكيف يطلبون منا خلعه، كأنما هم يطلبون منا أن نخلع السليب (السروال الداخلي)».

أ: قلت لأحدهم ذات مرّة: «أنت لا تدرك أنكم إنما تضعون الحجاب فوق الجزء الأشد جاذبية بالنسبة إلى الرجل؟ وهكذا فإن الحجاب لا يفعل شيئاً سوى أن يزيد من إظهار الشعر، والعينين، والفم...» ولكنني أحسب أن الحجاب في غالبية الحالات لا يعدو أن يكون رغبة من المرأة في أن تقول: «أنا لست مثل المرأة الغربية»...

ن: لا، على العكس، فهم يختزلون المرأة في شيء واحد: العَوْرة. أو يُعمِّمون عَوْرتها عليها (أي على من تضع الحجاب).

أ: نعم، هذا صحيح تماماً.

٨

Résiste(*)

نينار: ألا تعتقد بأن الحجاب الإسلامي، مثلما ترتديه النساء اليوم، قد انتقل إليهم من الرومان، ففي بومبيي (بإيطاليا)، وعلى جدران فيللا ميستير، ثمة رسوم جدارية جنسية فاضحة، تُظهر شيئاً يفتن الناس، ألا وهو قضيب ذكري بالغ الضخامة (فاسينوس) يظل مغطى على الدوام بغطاء أدكن كي لا تقع عليه الأبصار. وقد حلل باسكال كينيارد، في كتابه «الجنس والرعب»، على نحوٍ رائع جداً ظاهرة الافتتان هذه: «ينبثق السرّ، حينما يضاف إلى الرعب عنصر الافتتان؛ فلكي يكون هناك افتتان لا بد من حضور فاسينوس، فالفاسينوس إنما هو المركز، وهو مغطى بقماش أدكن اللون. داخل سلّته المقدّسة المصنوعة من الأسل. فالشعور بالرعب الديني، أو الرهيب، يقرن بين الإحساس بكونك زاخراً جيّاشاً والإحساس بكونك خاضعاً». أفلا تغدو النساء المحجّبات رمزاً بالغ القوة، «رمزاً لما ينبغي لهن أن يخفينه لأنه موضوع فتنة وشهوة»؟ وشيئاً ما مقدّساً أيضاً. المقدّس الذي لا يمكننا رؤيته

(*) **قاوِم**، عنوان أغنية لفرانس غال France Gall، ١٩٨١.

عياناً. فإذا ما أردت أن أجد علامة إيجابية لكل هذا، فسأقول بأن المرأة تتحول بالحجاب إلى وثن، تفتن الرجال، وتغدو في الوقت ذاته، منبع استيهامات لا حصر لها.

أدونيس: هذا صحيح. قلت مرة لأحد أصدقائي الأوروبيين: «لا تندهشوا حين ترون النساء محجّبات، لا تندهشوا لأن الرجل يريد لهن أن يتحجّبن، لأن المنافس الوحيد لصورة الله هو المرأة، ولهذا السبب يريد الرجال تحجيبها. . .».

ن: نعم، أنا أفهم ذلك، وأوافقك الرأي. ولكن لماذا كل هذا العنف حيال المرأة في الديانات التوحيدية؟ هل هو فقط انعكاس للمجتمع، أم هناك سبب آخر؟

أ: ذلكم تقليد مستند إلى تأويل سياسي ومزيّف للقرآن.

ن: ولكن لماذا؟ وفي جميع الديانات دون استثناء: ففي الديانة اليهودية مثلاً يقول اليهودي التقليدي خلال صلاته: «الحمد لك يا رب، لأنك لم تخلقني امرأة». سمعت ذلك في فيلم لعاموس جيتاي، عنوانه: «كادوش» يروي عن الحياة الحميمة والاجتماعية لطالب دين، وكيف يعيش مع زوجته، ويعرض وجهة نظره تجاهها. هذا لعمري بالغ القسوة والعنف تجاه المرأة. ولدى المسلمين بالتأكيد أشياء لا تقل قسوة وعنفاً.

أ: يسري ذلك، لدى المسلمين، على مستوى التشريع الديني، لأن الإسلام، في الوقت نفسه، حلّل للرجل حق الاستمتاع، إذ يحق له أن يتزوج أربع نساء، عشر نساء. . . فعلى صعيد الاستمتاع، وشهوات اللحم، جعل الإسلام من المرأة

موضوعاً لشهوة الرجل ومتعته. فللمسلم الحق في أن يمتلكها جسدياً لإطفاء شهوته.

ن: ولكن الرجل هو الذي يجني المنفعة من ذلك. فكل هذا من أجل ملذّاته هو!

أ: أجل، هذا صحيح، هذا يخص الرجل وحده.

ن: إيه حسن. ولكن العنف راخم هنا. فكل شيء مهيّأ لمتعة الذكر، وليس لمتعة الأنثى!

أ: ولكن المرأة قبل الإسلام كانت حرة في الطلاق والزواج، على هواها، ما من أحد كان يمنعها أو يلومها.

ن: نعم، قبل الإسلام. ولكنني أتكلم عن الديانات التوحيدية. لماذا أنزلت كل هذا العسف بساحة المرأة؟

أ: لأن هذه المجتمعات كانت مجتمعات بطريركية (أبوية). فالأب يقوم مقام الإله. والمرأة لا تملك إلا أن تتبعه، لاسيّما أنها لم تكن مستقلة اقتصادياً فهي عبارة عن شيء من الأشياء التي تعود ملكيتها إلى الرجل. هناك تناقضات لا حصر لها. يقال مثلاً بأن المرأة «مدنّسة» (لاسيّما في ما يتعلق بجسدها). . . حسن، إذا كانت المرأة، فعلاً، كائناً مدنّساً ونجساً فكيف يمكنها أن تمنح الحياة، فتنجب ابناً مثل المسيح، أو النبي محمد؟ كيف يمكنها أن تلد رجلاً صالحاً؟ فهي نجِسة وشرّيرة، وتلد مع ذلك أنبياء ورجالاً صالحين. ثمة تناقضات غير مفهومة، ومضحكة.

ن: ولكن النبي محمداً كان، في الأساس، رجلاً عادياً، حتى اختير لتلقي الوحي. . . فكيف يمكن لأمّه أن تكون كائناً لا أدري ماذا؟. . . أليس الله هو الذي اختاره؟

أ: نعم، هذا ما انتهى إلينا. . . وينبغي تصديقه. أعتقد أن الديانات التوحيدية كانت نوعاً من حركات تمرد، ثورات ضد مجتمعات تلك الحقب. كان التوحيديون يتمتعون بالفطنة والذكاء، فهم لم يجرّدوا جيوشاً جرّارة، وإنما وجدوا تلك الوسيلة لتغيير مجتمعهم والسيطرة عليه. ستلاحظين أن جميع الديانات التوحيدية كانت معادية للعقل المجدد والمبدع. ليس ثمة ديانة توحيدية واحدة فعلت ما فعلته سومر أو بابل، أو اليونان القديم، أو الفراعنة، في ميدان الفن، أو حتى في ميدان الفلسفة والشعر. . . هذا يثبت أن تلك التجارب لم تكن تجارب وجودية عميقة، وإنما بالأحرى، مشاريع سياسية، أو مشاريع للهيمنة.

ن: كيف تفسّر أن المرأة هي من عُهد إليها بأن تضمن وتصون شرف العائلة؟ من خلال عُذريّتها، ثم عبر زواج صالح من رجل فاضل. هل كان ذلك من أجل أن يتنصّل الرجل من الاضطلاع بأي دور مهما صغر؟ من أجل أن يكون على المرأة وحدها الاضطلاع بهذا العبء، وتحمُّل الإثم والخطيئة. هل الرجل عاجز عن النهوض بذلك؟

أ: لا. الرجل يتبوّأ موقع السلطة، فهو لا يطلب من نفسه الاضطلاع بهذا العبء. والمرأة في موقع الحرام، موقع ما هو محرّم. وإذن، فإن مسّها، إنما هو مسّ بجوهر العائلة. مس

بشيء ما محرّم ومحظور. ولا يجوز بأي صورة من الصور، انتهاك هذا الحظر، لأن المرأة في هذه المجتمعات، هي الضامن للميراث، وللانتماء إلى قبيلة. فهي تغدو على هذا النحو معطى اقتصادياً. لهذا السبب فإن من المهم جداً معرفة حقيقة من هو الأب. من هنا ينبع تحريم الزنى، لأن الولد الذي سيولد بعدئذ، كيف له أن يرث؟ كل شيء مرتبط بالمسائل الاقتصادية. لهذا فإن شاعراً مثل أبي نواس يقول:

أنفتْ نفسيَ العزيزةُ أن تقنعَ

إلا بكلّ شيءٍ حرامِ

فلكي يخرج الشعراء والمفكرون من إسار القواعد والقوانين، بدأوا في الإقبال على كل ما هو محرّم وممنوع. لأن ممارسة ما هو محرّم، كان علامة على الحرية وعلى رفض القانون الديني.

ن: أنا أفكر في سبب آخر. أتساءل ما إذا كان هذا يعود أيضاً إلى واقع أن العائلات في الشرق عائلات شديدة التشابك. وأن أجساد أفرادها متشابكة أيضاً كأنها جسد واحد، وهكذا فإن الفتاة إذا ما «وُلجت» خارج الإطار العائلي الذي يدبّر أمر زواجها فكما لو أن الأب قد وُلج من قبل عاشق الفتاة. فالقرابة بين الأجساد تجعل جميع أفراد العائلة، الأب والأم، إلخ. يشعرون بأنهم قد وُلجوا هم أيضاً.

أ: نعم، يمكن تفسير هذا كما لو أنه عدوان موجّه ضدهم. ويغدو الاعتداء على ابنتهم اعتداء على جميع أفراد العائلة.

ن: بسبب هذه القرابة بالضبط. وفي الوقت نفسه فحين تمارس فتاة الحب مع رجل تشتهيه، لا يعود هذا عدواناً! إلا في حالات الاغتصاب، فذلك شيء آخر أفهمه تماماً...

توقّف الحوار هنا واستؤنف في الغد مساء.

ن: بابا... هل نبدأ؟

أ: أهلاً وسهلاً!

ن: لماذا نحن بحاجة إلى فكرة الله؟ ما أزال أتحدث هنا في إطار الديانات التوحيدية: لماذا لا يستطيع الإنسان أن يختار إنساناً آخر كإله. وهكذا دواليك. فإذا أحببنا أحداً بكل جوارحنا نعتبره فعلاً كـ«إله حيّ.»، أنا، على كل حال أتصرف على هذا النحو، أو على الأقل أرغب في أن أكون على هذا النحو. فحينما أحب رجلاً فإنني أضعه، بوعي كامل، في مرتبة الألوهية تقريباً. وإذا ما فرّقتنا الأيام فسأشعر بالتأكيد بصدمة مريرة قاسية، ولكن مثلما يحدث في حياة العشاق، فهم يقعون في شباك غرام جديد، ويذهبون للبحث عن «إله» آخر... ونحن النساء ألسنا خليقات بأن نكون «إلهات» لعشاقنا؟ لك أن تعتبر ما أقوله بالغ السذاجة. لربما كان ذلك من بقايا المراهقة التي أرفض أن أتخلى عنها؟

أ: لقد جرى «اختلاق» فكرة الإله من أجل حل مُعضلة العالم غير المرئي، ومعضلة الموت. تلك فكرة قديمة، وجِدت قبل الديانات التوحيدية. ولكن هذه الفكرة تطوّرت واتخذت أشكالاً متعددة، بحسب الشعوب، والحقب التاريخية. والتطور

الأخير الذي طرأ عليها جاء مع الديانات التوحيدية ـ فبدلاً من آلهة متعددة، أصبح هناك إله واحد. إنها إذن فكرة ترمي، حسب زعمهم، إلى تسكين قلق الإنسان إزاء المجهول، على أساس أن أولئك الذين يؤمنون بها مقتنعون بـ«وجود» بعد الموت. ما كُنه هذا الوجود؟ هذه الصيرورة؟ إنهم يعتقدون بالجنة، وبأن الإنسان سينعم بـ«الإقامة» إلى جوار الله بعد الموت. في الوقت ذاته، هناك آخرون لا يؤمنون بوجود إله بل يؤمنون أن الإنسان ظاهرة من ظواهر الطبيعة أو واحد من المخلوقات الحيّة على الأرض، وحينما يموت يتحلل ويذوب في الطبيعة، ويغدو تراباً. وهم يعتقدون أيضاً بأن الحياة الآخرة ليست إلا وهماً خادعاً، سببه قلق الإنسان إزاء ظاهرة الموت التي يعجز عن تفسيرها أو فهمها. غير أن هذا موضوع لا يمكن الخوض فيه من خلال العقل أو المنطق. لا يمكن نقده عقلياً أو منطقياً. لأنه مرتبط بإيمان القلب، والنفس. مرتبط بقلق البشر، بضعفهم، وبفكرة الموت. لذا يمكننا احترامه، ولكن لا يمكننا رفضه أو نقده، احتراماً منا لقلق المؤمنين وهواجسهم، احتراماً منا للآخرين، بكل بساطة. أمّاً الشيء الوحيد الذي نستطيع فعله حيال هذا الإيمان، إذا ما أردنا ذات يوم أن نتخذ موقفاً، فهو عدم الإيمان به. من الممكن الإيمان بشيء آخر، بالإنسان مثلاً...

ن: إذن، ما الذي ينقص الإنسان كي يغدو نوعاً من «إله» بالنسبة إلى شخص آخر.

أ: سنصل إلى هذا الموضوع... هناك أشخاص قاموا

بمثل هذه البادرة، داخل الإسلام ذاته. فنظروا إلى أشخاص آخرين كما لو أنهم آلهة، وأولوهم كل ثقتهم وإيمانهم، وصعّدوا أو جرّدوا علاقتهم بذلك الشخص. فاعتبروا هذا الشخص تجلّياً لله. ليس إلهاً، وإنما هو انعكاس لذلك المجهول، ذلك الماوراء، باعتبار أن من غير الممكن رؤية ما لا يُرى إلا عبر المرئي. وبهذا المعنى، أخذوا في تأليه الزهرة، أو الوردة، أو النهر، أو الجبل. وعلى غرار أولئك الذين كانوا يؤمنون بآلهة متعددة، فقد آمنوا أيضاً بأشخاص.

ن : هل تتحدث هنا عن أنبياء؟

أ : لا، فالأنبياء لا وجود لهم إلا في داخل الديانات التوحيدية.

ن : هذا صحيح. ولكن من هم أولئك الأشخاص الذين أمكن للآخرين أن يروا اللامرئي من خلالهم؟ أنا مولعة بأولئك الذين ألّهوا الزهور، والأنهار، والجبال! أنا مولعة بهذا!

أ : لا أدري إن كان يحق لنا أن نتحدث عنهم، لاسيّما أنهم اعتُبروا من قِبل غالبية المسلمين ككفرة، مارقين، مرتدين، ملحدين. وهو ما أفضى إلى تعذيبهم واضطهادهم. لهذا يتوجب احترامهم، وعدم التحدث عنهم.

ن : كيف تقول ذلك «إذا كان لنا الحق»؟

أ : من الصعب التحدث عنهم... غير أن هناك فِرَقاً تؤمن بأن الله قد تجلّى بعليّ. ولكن لكي لا يكون هناك سوء فهم (لأن

كائناً يولد، ويمرض، يأكل ويموت مثل سائر البشر لا يمكن أن يكون إلهاً. تلك هي وجهة نظر المؤمنين: فالله لا يمكن أن يموت، وإذن ينبغي خلق صورة لله الذي ليس له مثيل بين البشر)، أجابت، هذه الفرق، بالقول: نحن نستند إلى رمز عليّ، وليس إلى صورته ككائن بشري (يولد ويموت)، ولكنّ هذه الفكرة رُفضت من قِبل المسلمين الآخرين. وكان لدى مختلف المدارس الصوفية هذا النوع من الإيمان بالأشخاص. فقد نقلوا إيمان الوثنية بالأشياء إلى الإيمان بالأشخاص.

ن: ولكن من الممكن أن يكون الإنسان إلهاً، ليس بالمعنى الديني بالطبع. (مثل المسيح الذي كان يجترح المعجزات، فيمشي فوق الماء، أو يحيي الموتى). ولكن بمعنى «المرشد» كما في البوذية. فبوذا كان إنساناً بلغ نوعاً من الكمال...

أ: نعم. من الممكن وجود مثل هذا الإنسان، والبوذية برهان على ذلك. ولكنني كنت أطرح أمثلة من داخل الديانات التوحيدية. نعم، هناك البوذية بالتأكيد، وهناك أيضاً شخصية الغورو (مرشد روحي) الذي يُعتبر كمعلّم، أو يعتبر كمن بلغ عتبة حقيقية معيّنة، والذي «يعرف»... يصغي إليه تلاميذه ويطيعونه كما لو كان كلامه كلاماً إلهياً. تلكم تجربة حياة تستحق الاحترام أيضاً، والابتعاد عن إصدار الأحكام عليها، ومناقشتها عقلياً. لأن الحقيقة لا تنبع من منبع واحد.

ن: إذا أفلح أناس في الركون إلى فكرة الإله، ورقي شخص منهم في معارج الحقيقة أو الكمال (بوذا، مثلاً) فلماذا

يكون آخرون بحاجة إلى شيء آخر؟ غير أنني من خلال معرفتي، ومن خلال ما فهمته الآن من الحديث معك، أعتقد أنه إذا كان بوسع أشخاص عاديين أن ينظروا إلى أنفسهم كآلهة فتلك كارثة. إذ ربما يكون هناك مرشدون روحيون (غورو) مخرّفون، يبشّرون بنهاية العالم، أو بوصول كائنات من كواكب أخرى، أو يطلبون من تلاميذهم الانتحار جماعياً، إلخ. وهذا يدفعني إلى التفكير في الدكتاتوريين الذي يحسبون أنفسهم آلهة، وهؤلاء كثيرون!

أ : نعم، فهذه الفكرة تتخذ أيضاً أبعاداً سياسية. فأنت ترين رؤساء، أو زعماء في العالم يعتبرهم أنصارهم ومشايعوهم على أنهم الأكثر كمالاً بين البشر.

ن : إذا كانت مسألة زعيم أوحد فليكن إذن من لا مكان.

أ : ولكن المؤمنين يميلون إلى نقل هذه التراتبية إلى الأرض. لأن شخصاً يُنظر إليه كإله، فهو يطاع بسهولة. يمكن القول بأن الوحدانية (الإيمان بإله واحد) ساعدت على اصطناع الدكتاتوريين على الأرض.. فقد أحلّوا محل فكرة الإله الواحد فكرة ديكتاتور واحد. الزعيم الملهم، إلخ.

ن : أو العديد من الدكتاتوريين الصغار. ففي البلاد العربية الإسلامية يمكن لأي شيخ أن يُملي فتوى كما يشاء، وحول ما يشاء، والناس يتبعونه. ولكن، هل وُجد يوماً فلاسفة تحدثوا عن أن الإنسان يمكن أن يكون إله نفسه. وأن يكون في داخله جحيمه وجنّته؟ لماذا لا نستطيع أن نكون آلهة أنفسنا، أو شياطين أنفسنا؟

أ : نعم، هناك من يقول ذلك. فكل ما يتصل بالأشياء الموجودة خارج الواقع يغدو موضوعاً شخصياً، بحصر المعنى، مثل الحب، على سبيل المثال. فكل امرئ يحب كما يهوى، ويفكر في الحب كما يهوى، ويمارسه كما يهوى. تلك أشياء موجودة، ومطروحة. غير أن هذه المسائل الفلسفية شديدة التعقيد. وقد وُلدت مع الكائن الإنساني ولا حلول لها. لابد من القبول بمختلف وجهات النظر، والآراء. لذلك فإن مسألة إدخال الإيمان في الحياة السياسية مسألة محفوفة بالخطر. . لأن الإيمان سيغدو إلزامياً بالنسبة إلى الجميع. غير أن الناس جميعاً لا يؤمنون بالأشياء ذاتها. لقد حلّت المسيحية هذه المسألة، فأنت تريدين أن تؤمني وأن تتمسكي بالعقيدة، أن تذهبي إلى الكنسية وتصلّي، أو لا تريدين، فهذا شأنك، ففي داخل المجتمعات التي لم تعد تتمسك بالإيمان قوانين مدنية تطبّق على الجميع. وهذه القوانين لا علاقة لها بالإيمان الشخصي. فالإيمان، أو العقيدة لا تعني أحداً إلا صاحبها. ولا يجوز مطلقاً فرضها على أحد آخر لا يريد أن يؤمن بها، أو لا يؤمن بها.

لهذا فإن فصل الكنيسة عن الدولة كان عملاً صائباً. تلك هي، بوجه الدقة مُعضلة الإسلام. فالمسلمون يرفضون أن يقوموا بمثل هذا الفصل. ومن هنا يبرز الجانب التعسّفي لهذا الدين. كما لو أن الإسلام يريد أن يفرض قوانينه على الجميع. وعلى الأخص، على من يكون مسلماً ويرغب في تغيير دينه، ولكن هذا لا يحق لك فعله على الإطلاق (وهو يُسمى الردّة). فكل من يفعل ذلك يُعتبر كافراً، يحق لأي مسلم قتله. هذه، في رأيي،

إحدى المعضلات الأشد خطورة في الإسلام. لأنه غدا اليوم مذهباً مفروضاً بالقوة، في حين أن قسماً كبيراً من المسلمين لم يعد يتمسك بأهدابه، أو الإيمان به، ولكنهم مضطرون إلى التظاهر بعكس ذلك، وبالخضوع لأحكام هذه العقيدة، لاسيّما في الدول الإسلامية التي اعتمدت الشريعة كقانون. لذلك فنحن نشعر كما لو أن هناك صدعاً بين العالم والمجتمع الإسلامي. حيث أن هذه الأيديولوجيا لم تعد تستجيب لحاجات الأفراد الذين ينحدرون من هذه المجتمعات، بل إنها تُفرض عليهم فرضاً بالقوة. مهما يكن من أمر، فإن غالبية الأفراد يذعنون لأشياء ما عادوا مؤمنين بها وهذا يخلق اضطرابات وتوترات في المجتمعات المتعددة الأديان، كما في لبنان، والعراق، ومصر التي تضم أدياناً أخرى غير إسلامية.

ن: وقبل ذلك. سيكون من الخير لو أنهم بدأوا بقراءة القرآن بلغتهم الأمّ. وأن لا يضطروا إلى تعلم العربية. فلربما سيفهمون بنحوٍ أفضل ما يقرأونه ويؤمنون به لو فعلوا ذلك.

أ: هذا لا يغيّر شيئاً في العقيدة أو في الأيديولوجيا... فقط يؤذّنون للصلاة بالعربية. ولكن الأتراك مثلاً، يقرأون القرآن بالتركية. وكل مسلم يمكنه قراءة القرآن بلغته.

ن: إنهم يرغمونهم على تعلُّم العربية، كما في إيران.

أ: ولكن الجميع لا يتكلم العربية...

ن: ليس الجميع؛ بل الذين يرغبون في دراسة الدين والفقه.

أ : تماماً. فأنت لا تستطيعين تعلم القرآن إذا لم تتكلمي العربية.

ن : صحيح. فلماذا لا يتمكنون من ترجمة القرآن إلى جميع اللغات؟

أ : بل إنه مترجم إلى جميع اللغات. إلى الأندونسية، والأوردية، والتركية ولكن الذي يرغب في دراسة العربية لا أحد يمنعه. والذين يتعلمون العربية هم الأكثر تديّناً. فهم يعتقدون بأن خصوصية الإسلام تكمن في اللغة العربية. وهم يحبون قراءة القرآن الذي أوحي إلى النبي بلغته الأصلية. ويعتقدون أيضاً بأن عقيدتهم ستكون ناقصة إذا لم يقرأوا القرآن بالعربية، مثلما نزل على النبي.

ن : يزعم الإسلاميون بأن القرآن رفع من شأن المرأة. لأن العرب قبل الإسلام كانوا يئدون البنات لدى ولادتهن. هل هذا صحيح؟ في الوقت نفسه، طالما تساءلت كيف أمكن لشعراء الجاهلية الذين نظموا أجمل القصائد في الحب والنساء أن يعيشوا في مجتمع كان يرتكب أفظع الجرائم، جريمة قتل البنات بعد الولادة لأنهن ينتمين، بالضبط، إلى «فئة دنيا».

أ : أعتقد أن هذه حكايات مختلقة ومزوّرة. فالقول بأن العرب، قبل الإسلام، كانوا يئدون البنات بعد ولادتهن، هو حكاية مختلقة من قبل الرُّواة المسلمين. ليس هناك دليل يثبت أن العرب كانوا يئدون بناتهم، خشية الإملاق أو خشية العار، نحن لا يمكننا أن نثق بمثل هذه الحكايات. حتى تسمية ما قبل

الإسلام بالجاهلية (من الجهل) خطأ يجب إعادة النظر فيه. لقد كان للعرب قبل الإسلام ثقافة، وكان لديهم أفكار وحضارة، لذا فإن تسمية تلك الحقبة بالجاهلية هي تسمية خاطئة وغير مسوّغة، وينبغي رفضها. وهذا يعني أن جميع الفرضيات أو المزاعم حول تلك الحقبة ينبغي تمحيصها وإعادة النظر فيها، أو حتى رفضها.

ن: خاصة حينما نقرأ كل هذا الشعر الغزلي والجنسي المنظوم في تلك الحقبة، والطريقة التي يصف بها مشاعر الحب، والنساء، والجنس، أجد من الغريب أن. . .

أ: وأكثر من ذلك، حين تقرئين ما كتبوا عن حرية المرأة، كانت المرأة هي التي تقرر الطلاق، وهي التي تقرر ما إذا كانت راغبة في الزواج، وفي من تتزوجه. . . هناك قصص عن امرأة تزوجت أربعين رجلاً! وما من أحد أخذ عليها أي مأخذ.

ن: هل كان ذلك المجتمع مجتمعاً أمومياً؟

أ: لا. ولكن المرأة كانت تنعم بحرية عظيمة، ولدى بعض القبائل. . .

ن: كانوا وثنيين، أليس كذلك؟

أ: نعم.

ن: معظم الآلهة كانت من النساء؟

أ: نعم، مثلاً: العُزّى، ومناة، واللات.

ن: أعتقد بأن العرب الذين يُتَّهمون بوأد البنات بعد

الولادة، ما يزالون هم أنفسهم، يدفنون النساء، منذ الولادة. فهم دائبون على دفن رؤوسهن تحت الماء على امتداد صباهن ومراهقتهن، حين يقولون لهن، ويقنعونهن بأنهن يحملن الخطيئة في داخلهن، وأن جسدهن ليس ملكاً لهنّ، بل هو ملك للأب، والأم، والعائلة عموماً، أو للمجتمع الذي يعشن فيه. كما أن الطمث يجعل النساء في حالة من الدنس، ويحرمهن من حق الانضمام إلى بقية الجماعة من أجل الصلاة، أو الصوم، أو لمس القرآن، أو حتى الوجود في غرفة واحدة مع الشيخ، إلخ. وأن عذريتهن هي ضمانة طهارتهن وسمعتهن (وسمعة عائلتهن، بالتأكيد، وسمعة القرية أحياناً! دعك عن جرائم الشرف، إلخ.) ولا يعزيني كون الأوساط الريفية في إيطاليا الجنوبية، وفي كورسيكا، وفي إسبانيا الجنوبية، وفي البرتغال، يرتكبون أحياناً جرائم الشرف. ولا لأنه مرّت عهود على أوروبا كان الرجال فيها برابرة تجاه النساء، يجب أن أعتبر هذا شيئاً نسبياً. كذلك فإنهم يعتبرون المرأة أدنى من الرجل، في كل الظروف والأحوال، وأن شهادتها تعادل نصف شهادة الرجل. أعتقد أيضاً بأن دفع مهر للمرأة هو سلاح ذو حدّين. لأنها تكون في وضع سلعة «مشتراة»، ولأن هذا يحملها أيضاً على أن تتخلّى عن رغبتها في أن تكون مستقلة مالياً. . .

أ : القول بأن الإسلام حرّر المرأة، لا سيّما حين تطّلعين على تشريعه ومبادئه، بحاجة إلى إعادة النظر ووضعه موضع التساؤل. . .

ن: كيف يمكننا «تحرير» المرأة إذا كنا نقمعها منذ نعومة أظفارها، من خلال إشعارها بدونيّتها إزاء الرجل، واعتبارها مدنّسة في حال الطمث. إذا ما احتجنا إلى شهود أحضرنا امرأتين مقابل رجل؟ ينبغي الكفّ عن هذا!

أ: نعم. فشهادة رجل تعادل شهادة امرأتين.

ن: نعم. أقول بأن هذا يجاوز الحد.

أ: وفوق ذلك. فهي ترث نصف حصة الولد!

ن: الواقع أن علاقة الخضوع هذه التي تمارس على المرأة في الإسلام قد تمخضت عن ظواهر عجيبة، على غرار «ظاهرة الفولار» (غطاء الرأس) التي أقارنها بـ «ظاهرة البيتلز» (فريق موسيقي غنائي بريطاني مؤلف من شباب أطالوا شعورهم، حتى أصبح هذا موضة). فالمرء يتبنّى موقفاً، ثم يجعل منه هويّة له... وبهذه الطريقة فهو يختبر مقاومته تجاه العالم، أو يكتشف حدود الآخرين، فيحس فجأة بأنه موجود، لأنه يروم الدفاع عن «جلده» وهذا «الجلد» يمكن أن يتجسد بالحجاب، أو بثقب الأنف أو الأذن، أو بوشم الجلد، أو بالقنزعة (عند البانك)، أو بالثياب العسكرية، إلخ. ويغدو الفولار هنا رمزاً للتجمع، للهوية. فالفتيات يكبلن أنفسهن أحياناً بمحض إرادتهن بقيود خُصّصت لهن. إلا إن هذا جنون مُطبق! فهن يخلقن لأنفسهنّ نواهي ومحظورات، ثم يعتدنها. وهذا لا يمكن أن يزول بسهولة. المعضلة هنا هي أن هذه الرموز الثيابية تخضع لقوانين إلهية، وها هنا بالذات تغدو ثقيلة الوطأة، ومنذرة بالخطر. لأن

هذه القوانين لا تتقبل الانفتاح، ولا الحوار ولا التمرد. لشدّ ما يكون من الصعب على فتاة أن تخلع حجابها بعد سنوات من ارتدائه، وفي سياق اجتماعي مغلق وتقليدي.

هل تعتقد بأن الإسلام يمكن أن يقبل الحداثة؟ مَن ذا الذي يستطيع أن يفعل ذلك؟

أ : المشكلة، من هذا الجانب تكمن في الطريقة التي تتم بها قراءة القرآن. إن ما يحدّد نصّاً من النصوص، هو قراءته. وهكذا، فحين تحللين العلاقة بين النص القرآني والمجتمع خلال حقبة تمتد على مدى ألف وخمسمئة سنة، تلاحظين أنه لم تطرأ تبدّلات كبيرة. لأن الإسلام في البداية كان ديناً «متسامحاً»، فخلال الحقبة العباسية كانت المثلية الجنسية مقبولة. فكان يقال: «جاء فلان مع غلامه...» وبمناسبة حديثنا، قرأت بالأمس أن محكمة ماسّاتشوسيتس في الولايات المتحدة أعلنت شرعية زواج المثليين.

ن: برافو، هذا خارق!

أ : لقد كان هذا شائعاً في الحياة اليومية والاجتماعية عند العرب.. فإذا كان النص موجوداً عبر (ومن خلال) قراءته، فإن المجتمع الإسلامي، يمكنه، بهذا المعنى، أن يتطور (يصبح حديثاً). إذا ما سمح نظام سياسي منفتح، وطليعي، بحرية التفكير والتأويل للنصوص الدينية على ضوء العصر، وعلى ضوء المشكلات التي تواجه الإنسان، وعلى ضوء حياته، فمن الممكن أن يعانق القرآن الحداثة، لأن النص الديني لابد له من أن يكون

متحركاً مع حركة الحياة، ما دام قد نزل لمساعدة البشر، ولخدمة الإنسان، من أجل حريته وتطوره، وليس العكس. فإذا سلّمنا بوجهة النظر هذه فلابد لنا من قراءة النص الديني على ضوء حاجات الإنسان، وعلى ضوء المرحلة، والمعضلات التي نواجهها الآن.

ن: من الذي يتخذ مثل هذا القرار؟ هل هم الشيوخ؟

أ: لا! بل المدنيون! فإذا كانت السلطة السياسية حرة وضامنة لحرية جميع الأفراد، يمكن لهؤلاء الذين ليسوا من رجال الدين أن يقولوا ما يفكرون فيه تجاه القائمين على الدين. إذا كان هناك المزيد من الحرية، فإن غالبية الناس سيوافقون على تأويل النص بطريقة تستجيب لحاجات الإنسان، ولحياته. أعتقد إذن بأن المعضلة الأساسية تكمن في السلطة السياسية. لأن السلطة السياسية تقف دوماً إلى جانب الدين.

ن: حقاً.

أ: على هذا المستوى لا تكون السلطة حكَماً، بل «خصماً». وبهذه الحرية سيكون باستطاعة المجتمعات العربية أن تتطور. هناك أمثلة على ذلك، فالرئيس بورقيبة أعطى المرأة التونسية الكثير من الحرية، حتى اعتقد العديد من المؤمنين بأن ذلك كان مخالفاً للدين. ولكن هذه الحقوق جرى التصويت عليها، ونجحت. كذلك فإن القوانين التي يتطلع ملك المغرب محمد السادس إلى إقرارها الآن يمكن أن تعطي المرأة المغربية حقوقاً ذات شأن. على الرغم من قراءة النص القرآني التي يتولاّها

رجال الدين. إن الكابح الرئيسي يأتي إذن من السلطة السياسية. لذا ينبغي لهذه السلطة أن تكون حَكَماً، وليس خصماً متحكماً في النقاش الدائر. ينبغي لها أن تعطي الحرية ابتغاء فتح باب الحوار، وتبادل الرأي بنحوٍ ديموقراطي. وحينذاك، فإن النص الديني يجري تأويله بما يتلاءم مع الحياة ومعضلاتها. . لأنه إذا كانت المرحلة تتغير، فإن الله ذاته الذي أوحى ببضع آيات قد نسخها في ما بعد، وأبدلها بأخرى، أكثر ملاءمة. يمكن للإنسان إذن أن «يقلّد» الله ويغيّر القراءة المتصلبة والمغلقة للنص القرآني. هناك على سبيل المثال آيات نُسخت، فقد تبيّن بعد نزولها بزمن أنها لم تعد ملائمة للجماعة الإسلامية. . . فأبدلها الله بآيات أخرى، وأوحى بآية تبرر ذلك. تقول الآية: «ما ننسخ من آية، أو نُنسِها، نأتِ بخيرٍ منها أو مِثْلَها».

حدث كل هذا إذن، كما لو أن الله كان يبدّل قوانينه وآياته، لأنها لم تعد ملائمة للواقع. ينبغي أن يؤخذ هذا كمِثال يُحتذى. . . وحينئذ سيتمكن الإنسان، بالطريقة ذاتها، أن يغيّر قراءته للنصوص الدينية، ويعدّلها بحسب حاجاته.

ن: ولكنهم سيقولون إنّ أي إنسان يمكنه، في هذه الحالة أن يغيّر القوانين كما يشتهي.

أ: لابد بالتأكيد، من وجود قواعد صارمة. . .

ن: هل تعتقد بأن الأديان تستطيع الصمود أمام المكتشفات العلمية؟ هناك المزيد من المكتشفات التي تشكّل خطراً على الإيمان الديني. أليس كذلك؟ لهذا فإن من مصلحة الأديان أن

تتكيف، وأن تنفتح. . . ومع ذلك، فأنا أشعر أحياناً بأن هذا يزيدها تصلّباً، على العكس تماماً. أعتقد، مثلاً، بأن من الجريمة، الآن، القول بأن الكيس الواقي (لمنع الحمل) محرّم في الدين. ليس لهذا علاقة بالعلم. ولكنه يتعلق بالمجتمع.

أ: تلك مسألة شريعة. هناك مؤمنون سيقولون بأن جميع المكتشفات العلمية وردت في النص القرآني.

ن: نعم، أعلم!

أ: ماذا لديك لتجيبي عن ذلك؟ يمكنني أن أطلعك على نص مكتوب بقلم أحد المؤمنين، يقول فيه بأن أحداث الحادي عشر من أيلول كانت إنذاراً من الله!

ن: من الذي كتب هذا النص؟

أ: واحد من الأصوليين! أرسله إليَّ أحد الأشخاص. وهم يقومون كذلك بحسابات وتقديرات منافية للعقل ومضحكة.

ن: . . .؟

أ: سيكون هناك دائماً أشخاص يعارضون العلم، أو يقولون بأن العلم ذاته ورد في القرآن، وكذلك جميع الاكتشافات.

ولكنّ النص القرآني، في رأيي، لن يصمد، ما بقيَ خارج العالم. ومرة أخرى أيضاً، فإن الإيمان هو ما يقوّي النص ويمنحه الصمود والمقاومة، وليس العقل.

ن: سمعتك مرة تقول بأن الإسلام أعاق حرية الاختيار والإرادة، أو بأن الإسلام كان معادياً للحرية الفردية؟ وأتيت بأمثلة على ذلك، ولكنني لم أعد أتذكر الحجج التي سقتها آنذاك، هل لهذا علاقة بأننا لا نستطيع تغيير ديننا إذا كنا مسلمين؟

أ: قلت ذلك، لأن الإسلام لا يفسح في المجال للفرد، بوصفه كائناً مستقلاً وحراً، فهو يربطه ويقيّده بالجماعة أو بـ«الأمّة». فالأمر الجوهري في الإسلام على المستوى الاجتماعي، وعلى مستوى الفكر، هو الأمة، وليس الفرد. نتيجة لذلك، فهو لم يتضمن أية حرية في أي مجال من المجالات. فحريته مشروطة بالقواعد والقِيَم التي تفرضها عقيدته وثقافته على الأمة. هناك سُنّة تلخّص كل ذلك: «من قال في الدين برأيه فهو مخطئ ولو أصاب!».

وهكذا فقد كان دوماً إسلام الجماعة، إسلام الأمة، وليس إسلام الفرد.

ن: المجتمع العربي مصاب كلّه بالشيزوفرينيا، بين الافتتان بالغرب، والكراهية التي يوحي بها إليه هذا الغرب ذاته.

أ: مثلما قلت سابقاً، فإن هذا النوع من المجتمعات التي يحددها فقدانها للحرية يخلق مستويين اثنين على الصعيد الثقافي: مستوى مرئياً يتوافق مع غالبية المؤمنين، كما يتوافق مع النظام السياسي، ومستوىً آخر غير مرئي، محتجباً. وهذا الجزء المحتجب هو الذي يفضله أولئك الذين يرغبون في أن يعيشوا بحرية. من المؤكد أن هذا نوع من النفاق، ومن الازدواجية.

ن: ما في ذلك ريب!

أ: الشيزوفرينيا، شيء آخر، إنه مرض سريري. ولكننا نتحدث هنا عن أشخاص لهم وجهان: وجه يصلّي، ويصوم ويؤتي الزكاة، ووجه يمارس كل الموبقات المحظورة ويتقلب بحرية كاملة، على سبيل المثال، على سرير الشهوات الجنسية، بكل أنواعها. في داخل المجتمع المرئي يمارسون كل ما هو حلال، وفي داخل المجتمع المستتر يمارسون كل ما هو حرام.

ن: ولكن كيف يحدث كل هذا؟

أ: هذا عائد، بنحوٍ جوهري، إلى انعدام الحرية. فالناس مضطرون إلى التواري عن الأنظار كي يمارسوا حريتهم.

ن: أتساءل، كيف يمكن للإنسان العيش في هذه الشروط. متحملاً الكذب في كل شيء.

أ: هذا فظيع حقاً. ولكن الإنسان يفلح أحياناً في ابتكار وسائل أخرى...

ن: كيف؟

أ: كل كائن إنساني، حتى في داخل بيته، مضطر أحياناً إلى ابتكار وسائل سرّية كي يمارس حريته، دون أن يقع تحت طائلة الأحكام الدينية...

ن: نحن جميعاً بحاجة إلى الاحتفاظ بـ «جزء سرّي»... ذلك ما نفعله حينما نكون مراهقين، من أجل بناء شخصية

مختلفة عن شخصية أبوينا، ولكي نؤكد على تجربتنا الشخصية. يختبر المراهق حدود والديه، ويختبر حدوده أيضاً... ولكنّ عليه، بعد ذلك، أن يضطلع بمسؤولية أفعاله... لا يمكننا أن نلعب دوماً لعبة الاختباء، لأن هذه المتع المختلسة والبالغة الإثارة تغدو بعد لحظة كما لو أنها عمل «قذر» يتوجب إخفاؤه، ولا ينبغي على الأخص التحدث عنه... ولربما يخلق ذلك توتّرات ومآسي...

توقّف الحوار هنا، واستؤنف بعد فترة قصيرة.

ن : لو كان المتزمّتون دينياً يتقبّلون رغباتهم وشهواتهم لهان الأمر، ولبثوا هادئين مطمئنين؟ هل المعضلة أنهم عاجزون عن تقبلها؟

أ : نعم، ولكن لا يقتصر الأمر لدى المتدينين على أن أحدهم لا يكون صادقاً مع نفسه، ويكذب... فأنت تجدين أشخاصاً يستمرون في الكذب حتى ولو عاشوا في مناخ من الحرية. خذي مثلاً امرأة تكذب على زوجها بأنها تحبه، في حين أن بمقدورها بكل بساطة أن تقول له: «لم أعد أحبك». ولماذا لا يذهب الولد (أو البنت) إلى أبيه ليقول له: «أحب هذه الفتاة، أو هذا الفتى». مثلما تقولين أنت. هناك جانب معيّن من الإنسان الذي يحب الأشياء المحرّمة أو الممنوعة. فهو يحب أن يفعل بضعة أشياء في الخفاء... كيف يمكن حلّ هذا المأزق؟ إنه مأزق اجتماعي وليس دينياً فقط.

ن: نعم، ولكنّ هذا يقلب قيمة الأشياء. ذلك أن أموراً جميلة، ومحببة، لفرط ما نمارسها في الخفاء تغدو «مضرّة» أو «قبيحة». لست الآن بصدد القول بأن علينا أن نفعل كل شيء في العلن، وعلى رؤوس الأشهاد، فأنا أحب الأشياء المحرَّمة، التي تُعمل في الخفاء... ولكنني أتكلم بالأحرى عن أشياء بسيطة. مثل ممارسة الحب خارج الزواج، على سبيل المثال. غير أن هذا الفعل لدى مجتمعات معيّنة، وخاصة المجتمعات العربية الإسلامية، مدان كما لو كان يقوده الشيطان شخصياً.

الإكراه الوحيد الموجود في أوروبا، والذي ترغب في التهرّب منه هو القانون، ولكنك لست مضطراً إلى التهرّب من الدين، أو من نظرة المجتمع، يمكنك هنا، رغم كل شيء أن تحب كما تشاء. يمكنك أن تتجافى عن أشخاص، لا يشايعون خياراتك وأذواقك. ولكنك ستجد أشخاصاً يمكنهم أن يدافعوا عنك، وحتى أن يشاطروك أذواقك. يمكنك هنا أن تخلق لنفسك حياة سرّية، أو حياة موازية مفعمة بالغنج والتدلل، أو اللعب، أو الرغبة في اجتناء المتعة القصوى... ليست هذه مسألة حياة أو موت مثلما هي في العالم العربي اليوم.

أ: هذا النزوع إلى الحياة السرّية إنما هو ظاهرة اجتماعية، لا تتعلق فقط بالمتديّنين، أو حتى بالمسلمين. إن لهذا علاقة بالطبيعة الإنسانية، وليس فقط بالدين. ولكن ربما كان الدين قد نمّى هذا النزوع بوجهٍ خاص.

ن: لنقل إنّ هذا قد فاقم كبتهم... فالرجال والنساء

في العالم العربي مكبوتون جنسياً، يُقرأ هذا من نظراتهم النهمة! وحينئذ فإن كلاً منهم يخطف ما تطوله يده، ولكن خِفيةً، طبعاً.

أ : بالتأكيد. ذلكم مجتمع يكذب. مجتمع مُراءٍ.

ن : هذا ما كنت أقوله الآن! هناك عنف فظيع تجاه الفتيات، في كل الحالات. إذا سارت فتاة في الشارع مثلاً، وكان مظهرها مثيراً قليلاً، فإنها تغدو هدفاً لعدوان كلامي سافر أو تنهال عليها حجارة لفظية ثقيلة. أنا لا أتحمل ذلك. لديّ رغبة في قطع ألسنتهم! (ضحك).

أ : ولكن خذي بيروت أو دمشق...

ن : نعم، بالضبط!

أ : ولكن بمنأى عن الدين، هناك، مع ذلك، «مجتمع سرّي» يعيش في الخفاء في قلب المجتمع المرئيّ للعيان.

ن : أعود إلى قصة الكبت هذه. فكلما ازداد كبت الأشخاص، ازداد تعلّقهم بالأديان الأكثر تشدّداً وعسراً، أو بالتقاليد التي تبقيهم في جحيم هذا الكبت. فكل امرأة تتجرّأ على أن تعيش حياتها الجنسية بصورة طبيعية تُعامل كـ«بغيّ». كان لي أصحاب في بيروت يقولون لي: «أحب هذه الفتاة» وكنت أقول لهم: «آه، نعم. ما أبدع ممارسة الحب حين يكون المرء عاشقاً بجنون» وكان الصديق يردّ عليّ قائلاً: «آه، لا! لا يمكنني أن أنام معها، فأنا أحبها!»...

أ : لديك مَيل إلى رؤية الأمور من زاوية التحليل النفسي، هذا ممكن.

ن : أعتقد لو أن الإسلاميين الذين هم في باكستان، أو في أفغانستان (من نمط الطالبان) أو أولئك الذين يعيشون داخل الأحياء المتديّنة جداً في دمشق أو في الرياض. . .

أ : هؤلاء مكبوتون جميعاً.

ن : نعم، بالتأكيد، أعتقد لو أن كل هؤلاء المكبوتين أقاموا علاقة طبيعية مع امرأة، لو كان بوسعهم أن يمارسوا الحب، لو كان بمكنتهم أن يذوقوا طعم العشق، لو كانوا يستطيعون تأمّل جسدهم والانزلاق به فوق جسد امرأة. فسيصبحون أقل محدودية وبلادة، وأقل خطراً على الأخص. ودون أن أكون «باباكول» (شديدة التساهل)، وهو ما لم أكنه في يوم من الأيام، أعتقد بأنه لو أمكن لكل هؤلاء المتزمّتين أن يحبّوا، بالمعنى الواسع لهذه الكلمة، فما كانوا ليصبحوا طالبانيين في عقولهم وفي أجسادهم.

أ : إنهم ليسوا مكبوتين حيال المرأة وحسب، وإنما في حياتهم اليومية، أيضاً. ليس لديهم أي شيء يفعلونه، أي شيء ينجزونه، ومن الجائز أن يولّد لديهم هذا شعوراً بالهلاس يدفعهم إلى عناق القضايا الدينية والولوع بها.

ن : هناك الكثير من الأمور التي تمسّ الدين وأنا أفسّرها بسيكولوجياً.

أ : سأنحاز إلى هذا الرأي. فذاك الذي يسوق حياة

اجتماعية أو حياة جنسية محبَطة والذي يعجز عن التواصل مع الآخرين، والذي لا يُبدع، والذي ليس لديه أي شيء يقوله، محكوم عليه بالفشل. إنهم يعوّضون ذلك الكبت باللجوء إلى أي إطار لا على التعيين يمنحهم إحساساً بالوجود، ويمنحهم على الأخص شعوراً بأن لهم دوراً يلعبونه. على هذا المستوى فإن الدين هو أعظم هذه الأُطر فعالية، وأشدّها قوة، ولاسيّما في المجتمع العربي.

ن: نعم، لأن الدين يمنحهم إحساساً بأنهم يمتلكون السلطة القصوى...

أ: وهذا يُظهر لك أن هؤلاء الأشخاص مجرّدون من أي تفكير، ومن أي معرفة، فهم يردّدون مثل الببغاوات تعاليمهم ووعظهم... ويخلقون لأنفسهم عدّواً كي يمارسوا سلطتهم، و«شعورهم الجديد بأنهم موجودون». لأنهم من دون عدوّ لا يمكنهم أن يفعلوا شيئاً. وهم لا يكتفون بإيمانهم، بل يحتاجون إلى أن يمارسوا إيمانهم على أحد ما.

ن: إنني أراهم هنا في باريس، هؤلاء الفتيان الذين يحسبون أنهم أئمّة يافعون، أو طلبة لاهوت يافعون، بجلابيبهم، ولحاهم، والطواقي البيضاء فوق رؤوسهم. لكم يبدو هذا كاريكاتورياً، من الممكن أن يكون في كلامي بعض المغالاة، ولكنني حينما أراهم جيّداً لا أرى بينهم أيَّ فتى صبيح.

٩

Stairway to heaven(*)

نينار: حدّثْني عن علاقتك بالدين.

أدونيس: على الرغم من أنني نشأت في وسط ديني، وعلى الرغم من حبي الذي لا حدود له لوالدي، فأنا لم أُقِم أيّ علاقة مع الدين، أيّ علاقة على الإطلاق.

ن: والعلويّون؟ هل تشعر بأنك علويّ؟ هل هذا مهمّ بالنسبة إليك؟

أ: ليس له أدنى أهمية على الإطلاق. وإذا كان لي من صلة بالعلويّين، فهي صلة اجتماعية تاريخية، من حيث الجوهر. والواقع أنني أحمل شعوراً بالتعاطف حيالهم، لأنهم شعب تعرّض للاضطهاد، والتعذيب، والطرد، والتدمير، عبر التاريخ. إنني أتعاطف مع هذا الشعب الذي عانى التهميش والإقصاء. أفكر الآن في برغسون الذي كان يهودياً، ثم قرر أن يتحوّل إلى المسيحية، ويغدو كاثوليكياً. ولكنه مع صعود النازية، واضطهاد

(*) **سُلّم إلى السماء**، عنوان أغنية لـ ليد زيبلين Led Zeppelin، ١٩٧١.

اليهود، شعر بالتضامن معهم، وتخلّى عن صيرورته كاثوليكياً. . . لم يكن ذلك لأسباب دينية. بل كان بالأحرى نوعاً من اتخاذ موقف، فعلاً أخلاقياً.

على النحو ذاته، أعتقد بأن موقفي تجاه العلويّين موقف أخلاقي بالأحرى. فأنا قد ولِدت داخل هذه الجماعة، في حين أنني لا أؤمن بأيّ دين من الأديان. ولكنني مع ذلك أحترم الإيمان، لأنني أحترم الكائن الإنساني، وأحترم حريته. . .

ن: هل أضايقك إن قلت لك بأن هذه طائفة قديمة. تضيّق على المرأة. أنا لا أفكر في السياسة حين أقول ذلك. . . بل أتحدث عن المذهب، بعيداً عن السلطة.

أ: أتمنى أن يكون رأيك مستنداً إلى معرفة بالموضوع، إلى تجربة حياة مع هؤلاء الناس، لا إلى نوع من التعالي. . .

ن: ليس لديّ مشكلة مع الأديان، أو مع المتديّنين، يمكنهم أن يعبدوا بنات وردان (حشرة تعيش في المطابخ). ذلك آخر ما يشغلني. كل ما أريده أن يدعوني وشأني، وأن لا يقتربوا مني. أنا لم أفعل سوى أن كررت ما سمعتك تتحدث به (أنت وأرواد) عن وضع المرأة عند العلويّين. ذلك هو الموضوع الذي يشغلني كثيراً.

أ: أنت تعلمين بأن هناك شائعات وقصصاً بعيدة عن الصدق حولهم. ينبغي الاحتراس. فالمرأة عند العلويّين مثلاً لا ترتدي الحجاب، ولا تتحجّب أبداً، ولكن من ناحية أخرى، فليس للنساء الحق في تعلّم الدين. . .

ن : نعم.

أ : ولكن هناك العديد من الأفراد لا يلقّنونهم الدين.

ن : تقصد من الرجال ؟

أ : نعم، من الرجال... هناك على سبيل المثال أمور يطلقون عليها اسم الأسرار، أو «المعرفة الأخيرة» لا يعرفها غالبية العلويّين. ليس الأمر إذن خاصّاً بالنساء... فالمرأة عند العلويّين مندمجة في نسيج الحياة اليومية. وليس هذا سيّئاً بالقياس إلى المجتمعات العربية!

ن : إن شئنا!... فإن هذا يبدو لي للوهلة الأولى مثالياً للغاية كشرط حياة! ولكن كان عليّ أن آخذ رأي واحدة من نسائهم! (ضحك).

حسن، ثمة شيء إيجابي مع ذلك... فمن الأشياء النادرة التي أحبها في الدين الإسلامي، أنه لا يشجّع على الشعور بالإثم في ما يتعلق بالجنس والمال...

أ : نعم، فالإنسان على هذا المستوى متصل بربّه مباشرة، عبر إيمانه... ليس هناك وسيط، ولا كهنة... ولهذا، فليس ثمة شعور بالإثم والخطيئة...

ن : بالمقابل فإن ما أجده منافياً للعقل هو أن كل شيء «مكتوب» ومقدّر، وأن الغاية النهائية هي إعداد العدّة لدخول الجنّة. وعليه فلا يمكن أن يوجد هنا على الأرض مباهج وملذّات. فالمتعة الوحيدة ينالها المؤمن في الجنة. وهذا غير

مؤكد لدى أشدّ المتفائلين تفاؤلاً، وغير موجود، في رأيي! فإذا كانت السعادة والمتعة (مادام هذا يُعدّ مكافأة وثواباً) لا تُجتنى إلا في الجنة، أفلا يكون هذا سبباً للانصراف عن تحسين دنيانا، والعدول عن التمرد والثورة، وعن الحلم، أو عن الإبداع والخلق؟ وفي البوذية أيضاً، هناك، في اعتقادي، جانب انهزامي مفعم بالتشاؤم. إذ يقال بأن الحياة إذا كانت جائرة معنا، ولم نفلح في الخلاص من شرورها وعواديها، فذلك إنما يعود إلى كارمانا (لكل إنسان كارما هي سبب سعده أو بؤسه). وعليه، فإن الإنسان إذا ما وجد نفسه في وضع حرج أو مأساوي فهو إنما يخضع لكارماه السيّئة، ويدفع الثمن لقاء ذلك.

أ: إنهم يعيشون حياة سرّية، في خفاء عن العيون.

ن: نعم، غير أن هناك أناساً لا يعيشون بالمرة، بكل بساطة.

أ: لكي يعيش المرء ملذّاته وشهواته لابد له من وسائل من أجل ذلك.

ن: لا. ليست المسألة مسألة وسائل؟

أ: بلى، بالتأكيد! هناك أشخاص لا يملكون الوسائل لدعوة امرأة لاحتساء فنجان من القهوة! ولا يملكون الوسائل للسفر، ولا لشراء الأشياء...

ن: ولكن المتع والمباهج تبدأ حين يكون المرء صادقاً مع نفسه. وحين يحب جسده...

أ : المتع. إنما هي نوع من الترف.

ن: ما الذي تعنيه بـ«الترف»؟

أ : الترف، هو الحاجات التي نسعى إلى تلبيتها، بعد تلبية الحاجات الأساسية كالمأكل، والملبس، إلخ. وهناك أشخاص لا يملكون حتى هذا الحد الأدنى.

ن: لا تقل لي بأن الرجل بحاجة إلى المال لكي يحب امرأة!

أ : لابد أولاً من الاقتناع.

ن: هذا ما يبدو لي.

أ : وبعد أن يقتنع، لابد له أيضاً من وسائل لممارسة قناعاته.

ن: ليس في كل الحالات..

أ : على وجه التقريب..

ن: لا أعتقد ذلك...

أ : هناك أشخاص، أيضاً، لا يملكون الوسائل لشراء زجاجة من الخمر. على كل حال، هذه تفصيلات مشروطة بوضع كل شخص. فنحن نتكلم بالعموميات.

ن: ولكننا لسنا بحاجة إلى إحصائيات! من المؤكد أنني أخوض في العموميات غير أن بوسعي أن أطرح أسئلة من هذا النوع؟

أ : هـذه أحكـام وآراء، وامتـلاك مـعـرفـة بـتـفـاصـيـل هـذا الـمـجتمع، وبالطريقة التي يعيش بها أفراده. . . أنت ترين، يا عـزيـزتـي، بـأن مـن الـضـروري تـوخّـي الـدقّـة فـي هـذا الـنـوع مـن الـموضوعات. لا يـمكنك إطلاق الأحكام على الناس، بهذه الصورة.

ن : لديّ، مع ذلك، بعض الأصدقاء في بيروت. وأعرف كيف يعيشون، كلهم بعمري، وكلّهم يتحرقون رغبة إلى اللهو والتسلية. ولكنهم، من أجل ذلك، يذهبون مع الغانيات. ذلك أقـصى مـا يـطـمـحـون إلـيـه! إذن فـإن هـنـاك تـحـريـمـات. وهـذه التحريمات تنوء بثقلها على المجتمع. لست أبداً ضد أن يذهبوا إلى الغانيات. ولكنني أتساءل حول واقع أن هذا هو الحل الوحيد بالنسبة إليهم.

أ : هذا سبب إضافي!

ن : لست، بالمطلق، بحاجة إلى المال كي تعيش أحاسيس جيّاشة، أو مغامرات، هذا يثبت أكثر بأن ذلك عائد إلى العقلية السائدة.

أ : لنسلّم بأن هذه العقلية موجودة. يكفي الذهاب إلى رأس بيروت. ولكن إذا ذهبنا إلى برج حمود أو إلى حيّ اللّجا نتساءل حينئذ كيف يعيش الناس هنا وكيف يمارسون متعهم وملذاتهم. فالافتقار إلى المال وانعدام العمل لهما بالغ الأثر في تقرير ذلك.

ن : ما تقوله فظيع! فهذا يعني أن المتع والشهوات، إنما

هي ترف مقصور على الأغنياء أو على الطبقات الوسطى! هذا فظيع! ولكنني كنت أعتقد بأن المتعة، أو المتع، كانت شأناً مرتبطاً فقط برغائب الناس وشهواتهم. كأن يقول أحدهم «أريد أن أستمتع» أو «أقبل أن أستمتع»، ولكنني لم أكن أعتقد بأنها شأن اجتماعي! لأن المتعة كما أعلم شأن ذاتي للغاية وفردي. . . من المتعذر بالطبع أن يجتني الجميع المتعة ذاتها، أو أن ينسخوا متعة على الآخرين. نعم، فنحن بحاجة إلى المال لشراء هذه المتعة التي نشتهيها لدى الآخرين. كالسفر مثل الجيران في أيام العطل مثلاً، أو شراء السيارة نفسها التي اشتراها الرفيق، أو إهداء الزوجة طقم المجوهرات ذاته الذي أهداه الصديق إلى زوجته، أو الخروج مع شقراء كاسحة تضج بالإثارة، لأن الموضة الشائعة الآن هي موضة الشقراوات إلخ. نعم، بالتأكيد، هذا يكلّف غالياً. ولكن ليست هذه هي المتعة في رأيي. ذلك عيش بالإنابة. على غرار الناس الذين يذهبون للفرجة على مصارعة الثيران، فهم بحاجة، في رأيي، إلى أن يعيشوا شجاعة المصارع بالإنابة، أو بنحوٍ أكثر خشونة، أن يكونوا مصارعين بالإنابة. يمكن أن أفهم الصراع بين الثور والمصارع، وأن أقبله، لأن المصارع يخوض مجازفات. وتتعرض حياته للخطر. يمكن أن يصاب بجراح خطيرة. فهذه العلاقة العاطفية المشبوبة بين الإنسان والحيوان لا يسعني إلا أن أحترمها، أو أنحني لها، ولكن ما بال جميع هؤلاء الضواري من حوله، أنا أجد فعلهم هذا تلصّصاً جباناً. كما لو أن حشداً كان بحاجة إلى بلوغ ذروة اللذّة، فحبس زوجين وجعل يراقبهما وهما يمارسان الجنس، فقط، من أجل

أن يتمكن هذا الحشد من التلذذ بالإنابة. تلك هي حال كل هؤلاء المتلصّصين الذين يذهبون إلى حلبة المصارعة، والذين يخوضون هناك تجربة المصارعة تلك، على هذا النحو، نعم.

أ : لا نكران في أن المتعة فردية، من جهة كونها محصورة داخل حدود الفرد نفسه، ولكن هل توجد، حقاً، متعة من هذا النوع؟ لا، لأن المتعة بحاجة إلى شريك، إلى آخر. والبحث عن الشريك، أو عن هذا الآخر، يُدخلنا في الإطار الاجتماعي، يضعنا وجهاً لوجه أمام قِيَمه، وتقاليده وشروط الحياة التي نعيشها. فالمتعة، بهذا المعنى، مرتبطة بالمجتمع، وبحالة هذا المجتمع. انطلاقاً من هذه النقطة، يمكن القول بأن المتعة، في العالم اليوم، تُشترى وتباع مثل أي سلعة.

توقّف الحوار هنا، واستؤنف في يوم آخر.

ن : قل لي، ما الذي تفكر فيه بشأن «الانتحار» حين يكون عملاً مرتبطاً بالمقاومة؟ مثلما يمارسه الانتحاريون، أو أولئك الذين يرفعون راية الجهاد في الإسلام. أنا أعلم بأن الجهاد في القرآن لا يعني الانتحار، بل شيئاً آخر. من المؤكد أنني أقف إلى جانب المقاومة ضد دكتاتور، أو ضد جيش احتلال، أو ضد طاغية من الطغاة، إلخ. لطالما استهوتني تلك الفكرة أنا أيضاً، وتملكتني الرغبة في الانخراط في المقاومة، وأنا صغيرة، خلال الحرب في لبنان، وخاصة أثناء اجتياح الجيش الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢.

كنت في الحادية عشرة من عمري، في الصف السادس الابتدائي، حين بدأ الاجتياح في السادس من حزيران/ يونيو عام ١٩٨٢، كما أعتقد. كان الطيران الإسرائيلي يقصف الجنوب. وكنا نسمع هدير الطائرات في بيروت. وفي حوالى الساعة الثالثة أو الرابعة بعد الظهر كنت قد عدت من المدرسة، وبدأت تناول غدائي، فيما كنت أنت وأمي ما تزالان في الكلّية لإلقاء دروسكما.

استبدّ بي الخوف، وأحسست بأن صوت هذه الطائرات الذي كان مألوفاً لديّ ولدى كل اللبنانيين، كان مختلفاً هذه المرة. لم تكن تلك الطائرات، في الحقيقة، تتسلّى باختراق حاجز الصوت فوق العاصمة، لكي تلعب بأعصاب الناس... فقد استمر أزيزها وقتاً طويلاً، مترافقاً بضجة مُصِمّة من القصف المتواصل. وفجأة، بدأت صليات من الرصاص تنطلق من بنادق كلاشنكوف ويُسمع أزيزها في كل مكان، وبدا كما لو أن هناك سيلاً متدفقاً، غامضاً وغير مرئي، من قشعريرة ومن شعر منتصب، يدهم كل مادّة حيّة في المدينة. كل شيء جمد في مكانه: البنايات، والأحجار، والنباتات، والطيور، والقطط، والكلاب، والكائنات البشرية، والطاولات، والكراسي، والسيارات، ورمال الشاطئ، وحتى البحر، كنت على يقين من أنه قد ارتعد فرقاً، وانسحب بعيداً ليحمي سكانه المقيمين في أعماقه.

كائن جديد من العنف يسفر عن وجهه، لا يشبه في جبروته وضراوته الحرب الأهلية التي كانت مع ذلك، قذرة، بغيضة،

بلهاء، ولا تُغتفر. فالعدوّ الآن، بنحوٍ مباغت، كان عدوّاً آخر، أشد قوة وجبروتاً، كان خفيّاً غامضاً، يهاجم من البحر، والبرّ، ومن السماء على الأخصّ، وحين يهاجم من السماء، فما من مهرب كان ممكناً، على غرار فئران المختبر التي لا تعرف من أية جهة تنقضّ عليها يد لتثبتها بالدبابيس فوق الطاولة. كانت تلك تجربة هلوسية بالنسبة إليّ. وكنت أشعر أيضاً بما يشبه السحر لأنني بقيت في بيروت، ولأنني في النهاية قاومت الوحش ببقائي هناك. كان ذلك يعني بالنسبة إليّ تجربة جديدة، وأصواتاً جديدة (كان لدى الجيش الإسرائيلي معدّات لا يعلمها إلا علاّم الغيوب، أسلحة حديثة جداً، جديدة على الاستخدام، نماذج جديدة لم تعرفها الميليشيات اللبنانية الهزيلة التي كان قد ولّى عهدها).

أصوات جديدة، كانت بالنسبة إليّ سريالية، ما عدت سمعت مثلها قط، ولا حتى في أعظم أفلام الخيال العلمي الأميركية، وبأسماء جديدة: قنابل انشطارية وقنابل فراغية وقنابل فوسفورية.

كانت تلك حقبة المفاجآت العنيفة والغارات الوهمية. مع قطط هائمة تموء وسط الخرائب. وببغاوات بالمئات أطلقها أصحابها من محابسها، ولكنها كطيور وِلدت في الأقفاص، وألفتْ حياة الأسر، ما عادت تحسن الطيران ولا تستطيع تدبير قوتها... كان تحريرها في النهاية حكماً عليها بالموت.

كان علينا للمرة الأولى مغادرة شقتنا والنزوح إلى منطقة في بيروت أكثر أمناً والذهاب للعيش مع أناس نعرفهم، وهو ما يعني مفارقة الجيران وخلاّن الطفولة. كان على كل عائلة أن تذهب

لتفيء إلى مكان أكثر طمأنينة وأماناً. تحتّم علينا أيضاً ترك الحيوانات التي ربّيناها وألفناها. كان عليّ أن أعطي قطّتي المفضّلة، بلانشيت، إلى شخص ما. وكانت قطة متوحشة بأذنين طويلتين كأذني ثعلب... لأنني لم أكن أستطيع اصطحابها معي إلى بيت أولئك الناس، ولاسيّما إذا كان علينا الإسراع بالفرار، وتعذّر علي نقلها والاحتفاظ بها. أعطيتها، إذن، لشخص كان سيأخذها إلى الريف. كانت تلك اللحظة، بالنسبة إليّ، أنا بنت الحادية عشرة، لحظة كرب يعزّ على الوصف، مختلطة بمشاعر من الذنب، ومن الجور أيضاً.

بقينا في بيروت، مدة شهرين كاملين، داخل طوق من الحصار فرضه الجيش الإسرائيلي، وتحت قصف جحيمي يفوق التصور (ألف قنبلة في الساعة)، مع مقاومة بطولية من قبل مجموعات من المقاتلين كي لا تسقط بيروت في قبضة الإسرائيليين. وذات يوم دخل الجيش الإسرائيلي المدينة، وسقطت بيروت أسيرة في أيديهم.

بعد معارك شوارع، أفلت العنف فيها من عقاله حتى بلغ مداه (كنا نعيش في الملاجئ طوال أيام كاملة) احتل الجيش الإسرائيلي بيروت، وحط رحاله فيها.

حينذاك أُتيح لنا، للمرة الأولى، رؤية وجه العدوّ! إنسان عادي، ولكنّه مقنّع تماماً بمظهرٍ، من نوع: «أنا ذاهب إلى الحرب»، جعاب ضخمة على الظهر، وجهاز راديو ليبقى على اتصال، وخوذة مغشّاة بشبكة من الخيوط، وزي عسكري مموّه. كانوا يقومون على هذا النحو بدوريات داخل المدينة، على هيئة

مجموعات. كل منها مؤلفة من عشرة جنود. كانوا يسيرون دون أن يُحدثوا أية ضجة، بحيث يفاجأ المارّ بهم عند منعطف شارع، حين يلتقيهم وجهاً لوجه دون أن يتوقع ذلك، ويتولاّه الذعر من أن تزهق حياته!

ذات يوم، قرر الجيش الغازي الانسحاب من المدينة. كنت مع أمي نسير في الشارع التجاري الرئيسي في بيروت الغربية، شارع الحمرا، حين رأينا وسمعنا جندياً إسرائيلياً يقف في سيارة حاملاً مكبراً للصوت وهو يقول بالعربية: «يا أهالي بيروت، لا تطلقوا النار علينا، فنحن منسحبون من المدينة!» أيّ هياج تفجّر آنذاك! رحل الإسرائيليون عن بيروت في نهاية أيلول/ سبتمبر عام ١٩٨٢، ولكن، لمّا قرروا البقاء في لبنان، في جنوبه على الأخص، اشتعلت شرارة المقاومة، وازدادت الهجمات على الإسرائيليين وعملائهم. وفي عام ١٩٨٤، كما أعتقد، حدث حادث جنوني، جعلني أعيش في حال دائم من الهلوسة: سناء محيدلي، الانتحارية الأولى، فخخت جسدها بالمتفجّرات، وقامت بهجوم انتحاري ضد رتل إسرائيلي في جنوب لبنان. كانت مناضلة في صفوف حزب علماني. لشدّ ما ألهبت خيالي وتركت أثراً عميقاً في نفسي! لقد صعب عليّ أن أفهم. كنت قد سمعت، بالتأكيد، كلاماً عن الكاميكاز (الانتحاريين) اليابانيين، الذين كانوا ينقضّون بطائراتهم، خلال الحرب العالمية الثانية على أهداف أميركية، لتنفجر فيها. ولكن، ها إن ذلك يحدث فجأة، هنا، عندنا، في بلدي. وفوق ذلك فقد كان من قام بالهجوم امرأة، فتاة في مقتبل العمر، وكان هجومها ضد الجيش لا ضد

المدنيين، وكان على الأخص، خارج نطاق الدين.

أن يقبل المرء بأن يغدو بطلاً مجهولاً، فهذا يتطلب الكثير من الوجد ومن السخاء، وربما قليلاً من الجنون أيضاً. . . أفكر في مقاومة الهنود الأميركيين ضد مستوطنات البيض، ومقاومة الفرنسيين خلال الحرب العالمية الثانية. وأنا أنحاز كلّياً إلى مهاجمة أهداف منتقاة بذكاء يحدوها حسّ الاحترام لحيوات الأبرياء والمدنيين، على غرار مهاجمة البنى التحتية المدنية مثلاً، والبنوك، والجسور، والسكك الحديدية، إلخ. أو البنى التحتية العسكرية، (كالمعامل، ومصانع السلاح، ومخازن الذخيرة. . .) ولكنني لا أؤيد مهاجمة الأهداف المدنية البريئة، مهما كانت القضية التي ندافع عنها. فأنا أجد هذا عملاً إجرامياً، حتى لو كان العدو لا يعرف حدوداً في قسوته وبربريته فليس لنا أن نفعل مثله. وإذا لم يكن لدينا سوى الموت كردّ على البغي، فنحن نقدّم سبباً لهذا البغي، لأننا نرفض العمل بذكاء، ونرفض التفكير في مشروع مستقبلي، وبرنامج سياسي. . . لأننا نرفض الحياة بنحوٍ ما. . . لأننا نفعل مثلما يفعل «العدو» أياً كان هذا العدو. . .

لهذا السبب أحببت بشغف فيلم إيليا سليمان «يد إلهيّة» لأن نبرة الفيلم كانت صادقة، مرهفة، ذكية. . . أما المقاومة فعولجت بروح من الدعابة اللطيفة. دون أيّ تحفّظ في النقد الذاتي. وهذا أمر أساسي. لا شك في أن هذا الفيلم مقتبس من الحياة، وهو ما يجعله بالغ الفعالية والتأثير. . . لهذا فإن العرب، المعتادين موقف الضحية وتصوير «النساء، بزيهن التقليدي، وهن يبكين

تحت أشجار الزيتون» لم يحبّوا هذا الفيلم. أحببت كثيراً أيضاً الفيلم الوثائقي (الطريق ١٨٠) لإيال سيفان وميشيل خليفي، والذي لا يحتاج إلى أي تعليق، فالأقوال المسجّلة تنطق من ذاتها... ولكنّ الأبلغ تأثيراً في هذا الفيلم هو مشهد النهاية. هي ذي مقاومة على مستوى المأساة، لأنها تجذب الناس إلى الحياة لا إلى الموت. يتوجّه هذا الفيلم إلى أجيال بأسرها من الشباب بالقول إنّ لديهم الخيار، وإن بمقدورهم أن يجدوا طريقاً للخلاص، بنحوٍ آخر، بمقدورهم أن يقاوموا على نحوٍ مختلف، دون أن «يفجروا أنفسهم». من السهل عليّ بالطبع قول ذلك. فأنا لست في موقع الشباب الفلسطيني، داخل الأراضي المحتلة، أولئك الذين ليس لديهم فرصة أو إمكانية لمشاهدة هذه الأفلام، لإقامة مسافة كي يفكروا في الأمر ملياً، والذين ليس لديهم إلا قناة الجزيرة ليكوّنوا رأياً. فلو كانت القنوات العربية تقدّم لهم زاداً «ثقافياً» ببثّ هذا النوع من الأفلام، بدلاً من الأفلام التاريخية التي تتغنى بأمجاد العرب والإسلام، أو الأفلام الأميركية التي لا تدفعك إلى التفكير، وإنما إلى الاستهلاك فقط، فإن خطوة صغيرة إلى الأمام كانت ستتحقق بالتأكيد.

على كل حال، فإن ما أجده عنيفاً ورومانسياً في آن واحد، هو أنه في كل مرة يكون هناك عملية انتحارية في العالم، أتساءل دائماً: هل عثروا على أشلاء الانتحاري، وماذا فعلوا بها... وأحياناً أقول لنفسي: هذا الرجل مجنون مع ذلك، لقد أراد أن يقتل مئات الأشخاص، ولكن ما يتعذر تصديقه، هو أن اتحاداً مروّعاً حدث في لحظة الانفجار بين جسده وأجساد ضحاياه!

فالأجساد تداخلت، والأشلاء اختلطت، والدم امتزج. تلكم عربدة جنائزية تفوق الوصف! أخيراً فإن ما أراه يتجاوز خطة الانتحاريين، هو أنهم، في اللحظة النهائية، يتحدون بضحاياهم... تلك «قُبلة الموت» إذا صح التعبير.

أ : هذا جميل! أتفق معك، بأن العنف ليس مبرّراً إلا في حالة المقاومة ضد احتلال.

ن : ولكنني لم أقل الآن إنني من أنصار العمليات الانتحارية!

أ : أنا من أنصار المقاومة في حالة العدوان، أو الاجتياح، أو الاحتلال. أعلم أيضاً بأن المقاومة لا يمكن أن تحدث دون عنف. ولكنني خارج هذه الاستثناءات أقف بالمطلق ضد كل أشكال العنف... لأنني إذا كنت عاجزاً عن إقناع الآخر بأفكاري، وأفعالي، وعملي، فلن أستطيع إذن أن أقنعه بالسيف، أو بالسجن، أو بالجور، أو بالإقصاء. بهذا المعنى فأنا أقرب إلى فكر غاندي.

ن : نعم، بكل تأكيد. لقد كان رجلاً خارقاً... لشد ما أعانني في حياتي تعرّفي إلى حياته وسيرته... إنه بالنسبة إليّ أقوى رجل عرفه تاريخ البشرية. لأنه كافح بقوة ضد نزوع الإنسان «الطبيعي» إلى العنف.

أ : من دون ريب! أنا ضد كل الصراعات المبنية على العنف. ولا أبرّرها على الإطلاق، ما قلته صحيح وجميل جداً.

فحينما يحدث احتلال، عليك أن تقاتليه، أن تدافعي عن أولئك الذين تحبّينهم. لأن كل احتلال إنما هو إذلال وامتهان. من الواجب أن يدافع الإنسان عن شرفه وعن عائلته أيضاً، وعن بيته.

ن: حتى لو كنت أحترم غاندي فأنا مع ذلك نصيرة لاستخدام العنف ضد الأهداف العسكرية، ولهذا فإنني أحترم «الفارّين من الخدمة في جيش المحتل» (هناك العديد من الجنود الإسرائيليين فرّوا من الخدمة. تلك لعمري شجاعة نادرة) فرغم كل العقوبات التي كانوا يجازفون بتحمّلها، رفضوا الانصياع لأوامر قادتهم... وهذا يعني أن الجنود في الأراضي المحتلة يملكون الخيار بالفرار أو الطاعة... وانطلاقاً من اللحظة التي يتخذون فيها خيارهم، يمكنهم، في رأيي، أن يصبحوا هدفاً، مادام ذلك خيارهم، ومهنتهم.

أ: هذا يعني أن على المقاومة أن تصبّ اهتمامها، بنحوٍ رئيسي، على الأهداف العسكرية...

ن: نعم، العسكرية، أو السياسية. فإذا أردنا أن نصيب بلداً بالشلل فلا ينبغي أن نهاجم الحافلات، أو المدارس، أو أماكن العبادة. بل بالأحرى، تفجير التحصينات أو الجسور.

أ: ينبغي استهداف البنى التحتية التي تحمي العسكريين.

ن: كي لا أبتعد في حديثي عن الدين، أتحدّث عن جانب فيه أحفل بالفرح والجمال... تردني الآن سيرة شخصيّتين من بين أعظم الشخصيات التي فتنتني في تاريخ التوحيد. هناك أولاً

القدّيس فرانسوا الأسيزي الذي كان بينه وبين الحيوانات علاقة حب مجنون. ثم القدّيس سمعان، سمعان العمودي (الذي عاش على العمود). فهذا الرجل عاش طوال عشرين عاماً فوق عمود ارتفاعه عشرون متراً. لقد زرت الموقع الذي يُزعم أنه موقع قاعدة ذلك العمود. وهو في حلب، في سورية. والحق أن هذا الرجل كان مجنوناً وعبقرياً. تُرى، أية فكرة خطرت له كي يقيم فوق عمود! هذا العمود سبقٌ فنّي بالمعنى المعاصر للّفظ. ولكنه أيضاً رمز ذكوري خارق. كما لو أنه ظل منتعظاً طوال عشرين عاماً! والحال فإن هذا النوع من الجنسية الشهوانية، بتوتّرها الأقصى، متجهة نحو الله، مثلما هي متجهة نحو البشر. ما الذي تراه في هذه الشخصية التي تعصى على التصديق. هل كان هناك مجانين غريبو الأطوار في الإسلام؟

أ : نعم، بالتأكيد. تلك شخصية مدهشة، وأنا أتفق مع طريقتك في الرؤية. ونحن نجد في الإسلام شخصيات مثله، حتى لو لم تسكن فوق عمود. خذي الحلاّج، مثلاً، أو على الأخصّ رابعة العدويّة. فقد نظمت تلك المرأة شعراً موجّهاً إلى الله كما لو أنه كان معشوقها!

ن : هاتان الشخصيتان اللتان ذكرتَهما مقرّبتان من قلبي إلى أقصى حد، وأنا أعشقهما على نحوٍ لا يوصف. وأرى أنهما كانا عبقريين في طرقهما لرؤية العالم ومن خلال شعرهما المتسامي.



١٠

Heroes(*)

نينار: أعود إلى السؤال الذي كثيراً ما يطرحه عليّ الناس: «ما الذي تعلّمته من أبيك؟» أعتقد بأن الوقت قد حان لكي أراجع حساباتي وأحكم على نتائجها. كأنما من أجل أن أهضم أو أتمثل ما رأيته أو تعلمته منك، من أجل البدء في الإفادة منه، و«جعله خاصّاً بي». لطالما خالجني شعور بأنني إذا كنت لم أرغب في رؤية ما أمكنني تعلّمه منك فإنما لكي أترك لك مكاناً فسيحاً في حياتي، فأنا بحاجة إلى أن أكون محتاجة إليك! وحين أنتظر ردّة فعل من جانبك فإن هذا يمنحني الوهم بأنك هنا إلى جانبي، وأنني أستظل بظلك. غير أنني إذا بدأت في جني واستثمار ما تعلّمته منك فسأكون قد سلّمت بالانفصال والبعد عنك، وبأنني قد غدوت راشدة. لقد بدأت أبغض الكتب منذ سنّ مبكر. ففي البيت، في بيروت كانت الجدران كلها قد غدت مكتبات. وفي كل مرة تكون بيننا في المنزل كان كتاب بين يديك. . . وحينما لا تكون موجوداً تذكّرني الكتب بغيابك. ومن ثم فقد تطوّرت

(*) **أبطال**، عنوان أغنية لدايفيد بووي David Bowie، ١٩٧٧.

علاقتي بالكتب. فخلال الحرب، وأثناء القصف، كنا نلتجئ إلى الرواق بجوار رفوف ضخمة تمتد على طول الرواق، صاعدة من الأرضية حتى السقف. هناك عشت تجربة جديدة. كان هناك كتب، كنت أراها دوماً، بحكم العادة في المكان ذاته، وعلى مستوى نظري. ولم أتمكن إلا ما بين عامي ١٩٧٩ و١٩٨٦ (أي من سنّ الثامنة حتى سن الخامسة عشرة) من رؤيتها بسهولة. لقد غدت تلك الكتب متراساً لنا، يحمينا من القنابل. كنت أقضي أياماً وليالي بطولها في الرواق، مع بابلو نيرودا (أعترف بأنني قد عشت)، ومع نيتشه (ما وراء الخير والشر)، ومع مكسيم رودنسون (العرب)، ومع رولان بارت (SIZ) ومع موريس بلانشو (لوتريامون وساد) ومع حنة أرندت (أزمة الثقافة)، من دون الحديث عن ستة مجلدات ضخمة لموسوعة روبير طباعة عام ١٩٥٧ . . . منذ بداية هذه التجربة تغيّرت علاقتي بالكتب. فقد تحوّلت من أعداء إلى أصدقاء، إلى حرّاس. كنت أحبها من أجل هذا، ثم غدت أشياء أليفة، عطوفة، يُدخل حضورها السكينة إلى نفسي، ثم إنني، في ما بعد، جمعت تلك الكتب واصطحبتها معي إلى باريس، لعلّني أقرأها ذات يوم، ولكنها ما تزال حتى الآن طلاسم بالنسبة إليّ.

أدونيس: كيف تفسّرين واقعة تحوّل الكتاب من عدوّ إلى صديق؟ ما الذي جعل هذا التحوّل ممكناً؟

ن: ربما كان مردّ هذا إلى أنني كنت عاجزة عن مؤالفتها وتدجينها. فكانت هي من ألفتني وروضتني. كنت في تلك الفترة

عاجزة عن إقامة مسافة بيني وبينها. لم أكن حتى قادرة على فتحها، وقراءتها. وهكذا فقد خضعت قليلاً لسطوتها. ولكنّ ذلك كان إيجابياً في النهاية. فقد انتهى حضورها الصامت إلى أن يفرض نفسه.

أ : لقد رفضتِ تلك الكتب، ثم انتهيتِ إلى قبولها، من دون قراءتها. قبلتِ فكرة الكتاب لا مضمونه. ولكن، لماذا لم تنظري إلى الكتاب بوصفه رؤية أو بوصفه موقفاً؟

ن : لأنني لم أكن أُحسن الدخول إليها. ولو كنت أكبر سناً، لأمكنني، أنا نفسي، أن أقيم علاقة معها. ولكنّ الصلة بيني وبينها كانت تنطوي على النفور والكراهية. . . فأنا ما أحببت المدرسة في يوم من الأيام. وكانت علاقتي الأولى بالكتب من خلال المدرسة. كانت الكتب إذن بالنسبة إلي مرتبطة بالسلطة. . . ولكن لفرط ما أهملت الكتب وعاملتها كأشياء تنافسني لديك، كموضوعات حافلة بالمعرفة، قادرة على أن تغويكَ وتبهرك، إيه حسناً، من فرط خشيتها. حوّلتها في داخل رأسي إلى أشياء أليفة مؤنسة، ولكن دون مضمونها. لقد غدت بالنسبة إليّ أشياء أركنها على رفّ من الرفوف بكل بساطة، كديكور جميل. . . كان عليّ أن أبتكر وسيلة لتقليل أهميتها ورهبتها، وللنظر إليها براحة واطمئنان كما لو أنني أنظر إلى كرسي أو رف، وهكذا ما عادت كائنات حيّة، بل أشياء هامدة. وفي بعض الأحيان كان يتولد لديّ انطباع بأنها كانت إخوة وأخوات لي، لأن بعضاً منها كنتَ أنتَ من خلقها (كم كتاباً لك

بينها؟). أضف إلى هذا أنك كنت تقضي من الوقت معها أكثر مما تمضي معي. وفي النهاية تصرّفت كما لو أنها لم تعد موجودة، وأعطيتها وظيفة جديدة، إذ اعتبرتها «متاريس». . .

أ : يمكن القول بأن الكتاب كان مرتبطاً في ذهنك بصورة الأب؟

ن : نعم: هذا محتمل أيضاً. كان الكتاب شيئاً لم أُفلح في تفسيره، كما أنه هو أيضاً لم يمنحني مفتاحاً، كي أكون قادرة على فهمه.

أ : في كل مرة كنت ترين فيها أباك، كان يحمل كتاباً في يده. وحين لا يكون أبوك هناك فإن الكتاب يحلّ محلّه. . . كان هناك توحّد بين الكتاب وأبيك. وهكذا انتهيت إلى القبول بأبيك في بيروت؟

ن : بمعنى ما، نعم، مادام الكتاب قد حماني. . .

أ : ولهذا قبلت الكتاب؟

ن : لقد خرج عن دوره الأساسي، وأعتقد أنه هو الذي دجّنني يوماً بعد يوم. كنت أمرّ من أمام الكتب، فأراها دائماً هناك، في مطارحها ذاتها. بحيث أنه إذا ما حرّكها أحد داخل رفوفها، فإن ذلك كان يفقدني توازني.

أ : كنت تشعرين كما لو أن شيئاً ما قد اهتز في داخلك؟

ن : كانت الكتب هناك. وكان ذلك يبعث الطمأنينة في نفسي. ولكن ما كان لأحد أن يلمسها. كان ينبغي أن تظل

هناك. . . إلى حد أنني حينما غادرت بيروت أخذت معي بعضاً منها إلى باريس. وخاصة تلك التي أحفظ عناوينها عن ظهر قلب.

أ : بهذه الطريقة، كنتِ كمن يوحّد بين الحياة والكتب. كما لو كنتِ قد جعلت من الكتاب شيئاً أساسياً من أجل حياتك؟

ن : نعم، بكل تأكيد.

أ : وهل كان هذا الشعور حاضراً دوماً؟

ن : حينما كنت صغيرة، كنت لا أطيق رؤية الكتب، وأشعر بالخجل أمام رفاقي في الصف من ذلك الركام الهائل من الكتب في منزلنا. . . وكنت إذا ما دعوتهم إلى المنزل، تمنيت أن تختفي جميع الكتب واللوحات عن الجدران، لم يكن في بيوتهم كتب، أو على الأقل لم يكن هناك هذا الكمّ الهائل منها. وكان هذا يُبرز الفرق بيني وبينهم، ويُشعرني بالتعقيد، كان يَسِم بميسمه أيضاً شعوري بالاختلاف. أما اليوم فقد اختلف الحال فأنا أشتري الكتب وأصفّها فوق رفوف مكتبتي. والحق أنني لا أقرأها دائماً، ولكنني أشعر بحاجة إلى اقتنائها، ووضعها هناك، لتكون معي، وأمامي. فأنا أمرّ أمام الرفوف وأنظر إليها، وأقرأ العناوين، وهو ما يبعث الطمأنينة في نفسي! هذا مضحك، أليس كذلك؟ فرغم أنني أشعر بأعظم الاحترام للكتب، أعتقد بأن بيني وبينها تلك العلاقة الصعبة دوماً. أُحسّ دائماً بأنني لا أرقى إلى مستواها، لأنني لم أُفلح في أن أتناول، بسهولة، كتاباً وأقرأه. ولكنني اليوم أُلزم نفسي بقراءة الكتب التي أحتاج إليها في عملي الفني. هذا

أقصى ما أستطيعه. أشعر بأنني إذا ما فتحت كتاباً لأقرأه فلن أفهم منه شيئاً. تلك علاقة رُهاب تقريباً مع الكتب. فأنا أشعر مسبّقاً بأن الأمر لن يسير سيراً حسناً. الكتاب يهز مشاعري بقوة، منذ زمن، ويجتذبني نحوه، ولكن من أجل عملي وحسب. فأنا أفتح الكتاب، وأقرأ بعض فصوله، ثم أقول لنفسي، إنه ليس من الضروري إتمام قراءة كل الفصول، فربما لن أفهمها...

أ : كنت تذهبين، في نهاية المطاف، بعيداً جداً في الاتجاه الذي سار عليه رفاقك الذين كانوا يأتون لزيارتك، وكنت تشعرين أمامهم بالخجل من الكتب. ولم تحاولي اجتذابهم نحوك، وجعلهم يكتشفون العالم الذي كنت تنتمين إليه...

ن : بلى. كنت أرغب في اجتذابهم نحوي. ولكنني لم أكن أملك في المنزل حيّزاً كافياً يشبهني...

أ : قلت بأنك كنت متعلقة بالكتب منذ طفولتك الأولى، فسّري لي إذن لماذا هذا الانطباع اليوم بأنك يمّمت وجهك شطر ثقافة الصورة، وكان ذلك عبر الفيديو، والسينما، والتصوير الفوتوغرافي والتركيب والتوليف الفني. كيف تفسّرين لي هذا التبدّل، أو هذا الانجذاب؟

ن : لأنني كنت مضطرّة إلى أن أخلق هويّتي الخاصة، فضائي الخاص، عالمي الخاص، لي ومن أجلي، عالمي المختلف عن عالمك. لعلّني انجذبت أيضاً نحو الصورة لأننا نعيش في عصر تُشكّل الصورة فيه مركز كل شيء، ومن ثم، فقد شعرت بأنها كانت أكثر جوهرية، وأسهل على الفهم.

أ : لقد أهملتِ الكتاب ولكن لعلّك أردت، بطريقة ما، أن تصالحي الكلمات والصورة؟

ن : ليس لي علاقة مميّزة مع الكلمات. فمنذ أن قدِمت إلى فرنسا شعرت بأنني قد أهملت دروس اللغة... رغم أنني حين كنت في المدرسة، كنت أحصل على علامات جيدة في اللغات الفرنسية، والإنكليزية، والعربية، أما في الرياضيّات فكنت عدماً. (ولكن الطريف في الأمر، هو أنني اليوم أستخدم بشغف، الأرقام، في عملي الفني. مثلما في الفيديو الذي أنجزته عام ٢٠٠٣ «اللوغارتم» والذي ولّد لديّ الانطباع بأن هناك معادلة ينبغي حلّها عبر جميع الأرقام التي يلي بعضها بعضاً). ولكن لمّا كان قدومي إلى فرنسا أشبه بالانطلاق من درجة الصفر، أو نوعاً من ولادة جديدة، فأنا أعتقد بأن ذلك قد أفادني، لكي أمضي مباشرة نحو ما كان يستهويني، نحو الفن، بوجهٍ عام. لم يعد في طوقي تطوير عملي على اللغة العربية، وكانت لغتي تشكو الكثير من الثغرات، وأعتقد، بكل بساطة، أنه لم تكن لديّ رغبة في ذلك... كنت أقول لنفسي إنني لن أستطيع قط أن أكتب، بعد كل ما كُتِب في الشعر، بوجهٍ عام، وفي اللغة العربية على الأخص، وأيضاً في الأدب العالمي.

طرحت اللغة وراء ظهري، باقتناع وتسليم، طرحت فكرة أنني سأكون في يوم من الأيام اختصاصية في اللغة العربية أو بلغة أخرى. وأعلم الآن بأن أداتي الرئيسية في العمل ليست هي اللغة... لقد سلّمت بذلك، حتى ولو كان بالغ العُسر! من

الصحيح أن الأبناء يرغبون دوماً في التمرد على آبائهم، وفي رفض عالمهم، ولكنهم في النهاية، يحبّون أن يفعلوا مثلما فعل آباؤهم.

بالنسبة إليّ، فإن الشيء الوحيد، في ميدان عملي، الذي يمكنني الاحتفاظ به من هذه العلاقة معك، من معرفتك باللغة العربية، ومن طريقة عملك عليها، واستخدامك لها (سأعود إلى الحديث عن ذلك في ما بعد) هو، من دون ريب، نظمُ الشعر، أو رواية الحكايات، ولكن، على نحوٍ مختلف، من خلال الصور، من خلال البرفورمانس والتجهيزات الفنية، كما أنني أستخدم النصوص، بين وقتٍ وآخر، النصوص العربية الجنسية الإباحية، من القرن الثالث عشر والخامس عشر، على سبيل المثال. وأعتقد، بأنه سيكون بوسعي أيضاً الرجوع إلى الكلمات. . . والدليل، هو هذه المغامرة التي أجربها معك، والتي ستغدو كتاباً، كما آمل، فأنا حريصة على ذلك أشدّ الحرص. ولكنني أبدأ متمهّلة مع هذا الشكل من الحوار. . . لأن الجوهري في المشروع هو أن أقضي المزيد من الوقت معك، متقابلين وجهاً لوجه. مما يتيح لنا أن نتعلم التعرف أحدنا إلى الآخر. . . وقد اخترت اللغة الفرنسية لأنني أمتلك معها فُسحة أكبر من الحرية. في حين أننا لو تحدّثنا بالعربية فستكون أنت «المتزعّم». لشدّ ما أنا سعيدة بأنني أملك القدرة على اطّراح مخاوفي تجاه الكلمات. فقد صار بوسعي استخدام الكلمات في عملي، على جرعات صغيرة، ولكن يتعيّن أن يمرّ ذلك عبر الصورة، وعبر الجسد. فالفيديو، والبرفورمانس، والتجهيز

والرقص، تُطلق حرّيتي، وتمنحني القدرة على اختيار الأداة التي تُيسّر لي بنحوٍ أفضل بثَّ رغباتي الدفينة، وأفكاري.

أ : هذه العلاقة الملتبسة مع اللغة، ومع الكلمات، هل مردّها إلى ضعف تربيتك المدرسية، أو إلى ازدواجية اللغة التي عشتها.

ن : لو أجبت بسرعة، لقلت إنّ هذه الازدواجية لم تساعدني البتة؛ لديّ انطباع بأن استخدامي للغتين اثنتين، منذ طفولتي، بدلاً من لغة واحدة، قد أفضى إمّا إلى أنني غدوت متوسطة المستوى في اللغتين، وإمّا إلى أنني اخترت واحدة على حساب الأخرى... ولكن حين أُمعن التفكير في الأمر، أعترف بأن اللغة العربية هي أجمل لغات العالم بالنسبة إليّ، دون أدنى ريب. لقد غدت اللغة العربية لغة إلهيّة، بشعرها الكلاسيكي والمعاصر. ولكن ما كان أسوأ الطريقة التي تعلّمتها بها!... ففي المدرسة كان المعلّمون يدأبون على تدريسنا الجانب الجاف والمتصلب من قواعد النحو... في حين أنني كنت أصادف الفرنسية في الأدب، وأيضاً في الأغاني، وفي المجلات المخصصة لليافعين. كانت الفرنسية أنضر حيوية وأكثر معاصرة. وأكثر من ذلك أيضاً، كانت هناك اللغة الإنكليزية، فقد كان جميع نجومي المعبودين من الإنكليز أو من الأميركيين.

ومن ثم، فحين يكون لي أبوان مثلكما، لهما وقوف تام على اللغة العربية، ويحسنان جعلها أزهى وأحلى، فكيف لي تجاوزهما؟... وقلت في نفسي إنني لن أقوى في أي يوم من

الأيام على امتلاك تلك السلاسة، وذلك الإلمام الواسع باللغة. . . ثم إنني هنا، نادراً ما تجري اللغة العربية على لساني، ففي ما خلا تواصلي معكم هنا في المنزل عبر اللغة العربية، فأنا لا أتكلم إلا بالفرنسية مع أصدقائي، وحتى مع أصدقائي من العرب لأنني أجدها أكثر سهولة. لهذا فقد بدأت ازدواجية اللغة، منذ بعض الوقت تثير اهتمامي. لأنني في نهاية المطاف وجدت نفسي في كنف هذه «اللغة المزدوجة»، إنها هويّتي الآن. فأنا ما عدت عربية حقاً، ولا لبنانية، ولا فرنسية بالتأكيد. لا أجد نفسي داخل اللغة الفرنسية، ولا داخل اللغة العربية. فأنا مهاجرة إلى لغة «عجينة»، لغة «هجينة»، اتفق لي أن ملكت زمامها، كأنما ليس ثمة قواعد تكبّلني. ففي ميسوري أن أبتكرها اليوم، وأن أقوّضها في الغد. . . لكم أحب أن أعمل فيلماً يدور فيه حوار بالفرنسية واللبنانية والإنكليزية. على غرار اللغة التي نسمعها في لبنان. وقد قمت بمحاولة صغيرة من هذا النوع، في فيلم فيديو مدته أربع دقائق، بعنوان: «الاحتقار». اقتبست النص من مشهد البداية في فيلم: احتقار، لجان لوك غودار: سرد عشقيّ للجسد، يقوم به كل من بريجيت باردو، وميشيل بيكولي، وعدّلته بمساعدة لغة مزيجة (فرنسية ولهجة لبنانية). وهو ما شظّى الجسد أكثر، لأن المشاهدين الفرنكفونيين لم يفهموا إلا بضعة «أجزاء من الجسد» والمشاهدين العرب فهموا الأجزاء الأخرى.

توقّف الحوار هنا، واستؤنف في ما بعد.

ن: أنت أورثتني حُبَّ أشياء معيّنة. أولها الطاولة التي

تتوسط غرفة الطعام. كنتما لا تبرحان جالسين أمامها كل يوم، ساعات طويلة، على كرسيّين، وفي يد كل منكما كتاب... وسواء أكنتما حاضرين أم غائبين معاً... كنت أراكما، جالسين بلا حراك. ثم بعد لحظة لا أعود أراكما. كنت أرى طاولة، وقنديلاً، وكرسيّين، وكومة من الكتب. جسداكما منحلّان في الكرسيّين بلا فكاك. واليوم، فإن «الكرسي» هو أحد العناصر التي أستخدمها في عملي. لقد امتلكت الأشياء سلطة على جسديكما، وغدت في النهاية أكثر واقعية وأقوى حضوراً منكما...

أ : ولكنّ تأمُّل شيء ما، هو بمعنى من المعاني، تأمُّل في الذات أيضاً. هناك علاقة حميمة بين الموضوع والذات. من المستحيل، في الواقع، ملاحظة الأشياء في منأى عن الذات. فأنا أرى الأشياء مرتبطة بي. تشكّل جزءاً من حياتي في كل يوم. لماذا إذن تقيمين هذا الفصل بين الأشياء وبين جسد أبيك وأمك؟

ن : ربما، لأنني كنت أشعر بأنكما حاضران غائبان في آن واحد. كان هناك ما يشبه وهماً أو سراباً. كان جسداكما هناك، حاضرين فعلاً، ولكنه حضور أشبه بقوقعة فارغة. كان الكرسيّان هناك، وليس أنتما، وخاصة أنت، الذي كنت تسافر كثيراً... ومثلما جعلتني الكتب أفكر فيك، كذلك فعل الكرسي.. كنت أنت تسافر والكرسي يبقى. وحينذاك «تعلّقتُ» بالكرسي وبالأشياء. لاسيّما أنني تعلمت في المدرسة، في دروس الفيزياء، أن المادة حيّة. وكان هذا شيئاً عظيماً! (ضحك). فالأشياء حيّة، لأنها مؤلفة من جزئيات حيّة. وهو ما أشعرني بالارتياح. كنت

مندهشة، متفاجئة، ولكنّ ذلك أسر لُبّي. وآنذاك وُلدت علاقة غريبة بيني وبين الأشياء.. كنت أُسقط عليها أحياناً مشاعري وأفكاري. فأشعر بأنها «وحيدة» أو «تائهة» داخل الصالة الفسيحة... ما من أحد كان يأبه لها. كنت أجدها أحياناً «جميلة وفخورة»... وأشتبه في وجود قصص حب بينها داخل الصالة. فالخرير الذي ينطلق من البرّاد، مثلاً، إنما كان لإغواء طاولة صالة الطعام. كنت أتخيّل أن موادّ الطعام ما أن تعود إلى البرّاد، حتى تسارع في التحدث عن نعومة خشبها... (ضحك) لم يكن هناك إلا طائر كنار، ذكر، يغرّد، داعياً أنثاه التي لم يعرفها، أو التي لم يرها.

أ : لقد وضعت فرقاً بين حضور الكتاب كشيء من الأشياء، وحضوره كموضوع للعلم، أو للمعرفة... ما الفرق بين هذين الحضورين؟ هل يعني ذلك وجودين متباينين؟

ن : إن معنى حضور الكرسي موجود فيه هو ذاته، ما من شيء يخفيه. فكل شيء مرئيّ. أما معنى حضور الكتاب، فبالإضافة إلى كونه شيئاً، فهو محتوى (القصة، أو الأفكار التي يحملها..) لقد استطعت أن أقيم علاقة مع فكرة الكتاب، ولكنني لم أستطع أن أقيم علاقة مع مضمونه، ما كانت لديّ الوسائل لفهم ذلك في تلك الفترة.

أ : من الجائز أن ذلك يعود إلى سبب آخر، وهو أن الكتاب حاملٌ في جملته لفكرة، هي فكرة مؤلفه، ولهذا كان يترتّب عليك أن تتداولي وإيّاه تلك الفكرة، مثلما تتداولين مع

شخص آخر أفكاره. بينما بمستطاعك أن تحمّلي الكرسي جميع الأفكار التي تشائينها. . . فالكرسي لا يحتوي على أيّ معنى «مسبّق»، وبهذا المعنى، فهو شيء أقل إيحاء بكثير من الكتاب. غير أنه بمكنتنا مع ذلك أن نفلح في «اختراق» كتاب، وأن نجد فيه إمكانية للذهاب إلى أبعد مما يذهب إليه وأن يدفعنا إلى أن نكشف، أو يجعلنا نكشف عن أشياء ليست موجودة فيه. في حين أن بميسورك التصرف في المادة كالكرسي و غيره . . . كما تشائين، أليس كذلك؟

ن: في تلك الحقبة من عمري، أتذكر أيضاً ذلك الصمت الخانق الذي كان يخيّم على المنزل. كان ذلك الصمت يقلقني أشد القلق. وبين وقت وآخر، حينما يكون هناك كهرباء، كنت تضع الموسيقى الكلاسيكية. وكانت في عمري ذاك (بين الثامنة والحادية عشرة) تشيع في نفسي أعمق الكآبة. وحينما يحدث عُطل في التيار الكهربائي، يخيّم الصمت المطبق من جديد. . . اللهمّ إلا حين تدوّي طلقات نارية، معلنة استئناف المعارك، وحينذاك كنتما، من جهة، تضطران إلى مغادرة كرسيّيكما والذهاب إلى الرواق معي ومع أرواد. ومن جهة أخرى، كان الصمت يتلاشى فجأة ويحل محله الصوت، والفعل، والحضور، والحياة! كنت مولعة بدويّ القنابل، حتى لو انفجرت أحياناً على مقربة منا، بل وفوق المبنى نفسه. وذلك الصوت المبهم، القوي، المدوّي، القادم من السماء بات بالنسبة إليّ شيئاً ضرورياً تقريباً. كان صوت القنابل يحلّ محلّ إيقاع صوتك الذي كنت في

أشد العوز إليه. وفوق ذلك، ففي الأيام التي يغيب عنها صوت الانفجارات، كنت أتساءل عما كان يجري في طوايا المجهول، كان هذا بالأحرى يثير إحساساً ثقيلاً من القلق. إنه الهدوء الذي يسبق العاصفة... استأنست بتلك الأصوات حتى غدت أليفة، وكنت أقول: «هذا صوت قنبلة سقطت»، «وهذا صوت قنبلة أطلقت الآن»، «هذا صوت بازوكا» «هذه قنبلة انشطارية»، إلخ. وكان الذي يفلح في تخمين نوع القنبلة المقذوفة، من مجرّد صوتها فقط، وتخمين مسارها، وهدفها النهائي، يحاول طمأنة الآخرين (العائلة، والجيران، وأشخاصاً مجهولين أحياناً لاذوا بمبنى لا يعرفون أحداً فيه، بانتظار نهاية المعارك)! «اطمئنوا، هذا لا شيء، هذا أرغن ستالين، يطلق من طرف الشارع، من سيارة جيب. وهو يتجه إلى حي كذا...».

كان ذلك الصوت يعشّش في الفضاء، يرقّط أيامنا، ينظّم غدونا ورواحنا، ومواعيدنا، ووجبات طعامنا.. كانت تلك القنابل، في النهاية تجمع الناس، تلمّهم من كل الجهات، فكانوا ينامون ويأكلون معاً، وحينما قدِمت إلى باريس فارقت ذلك الصوت. افتقدته إلى حد بعيد، ولكنني أستحضره أحياناً وأجعله يصطخب داخل رأسي...

أذكر ذات مساء، وكان لي من العمر أربع أو خمس سنوات، وهي واحدة من أقدم ذكرياتي، كنت تحملني بين ذراعيك، ومعنا أمي، كنت تريني خطوطاً منتظمة ولكنها متقطعة ذات لون أحمر. كانت تلك الخطوط أشبه بأجواء من النيون، تخترق السماء، في كل الاتجاهات، ثم تختفي. أذكر أن ذلك

المشهد، بألوانه الجميلة، نقلني إلى عالم سحري أخّاذ. كنت تشرح لي بأن هذه الخطوط المضيئة هي طلقات نارية، ما إن تلامس الهواء حتى تحدث هذا اللون الأحمر الوهاج بسبب البارود الفوسفوري الذي يضاف إلى الطلقات... ثم علمت، في ما بعد، بأن هذا النوع من الطلقات، المسمّى «الرصاص الخطاط» يُستخدم لتحديد اتجاه الرمي على العدوّ. وهو عبارة عن طلقات مخصّصة للإطلاق الليلي، بنحو أوتوماتيكي. إذاً يغدو من الممكن اقتفاء الذيل المتوهج للرصاصة، وضبط الرمي بنحوٍ كثيف ومتواتر، في المحصّلة. وهذه الطلقات تُحدث أضراراً إضافية بسبب الحروق التي تسبّبها. ذلكم كان أحد اتصالاتي الأولى بعالم الألوان... أمر غريب، أليس كذلك؟

أ : هذا جميل... ولكن هل طرحت على نفسك السؤال حول مصدر هذه القنابل؟ من أين كانت تأتي؟ مَن ذا الذي كان يرسلها؟ فأنت فكّرت فيها من جهة كونها لوناً فحسب، وصرفت التفكير عمن كان يطلقها، وعن الأهداف التي يوجَّه إليها.

ن : لا، بالتأكيد. ولكنني لم أكن ناقمة على القنابل بذاتها. كنت أملك مع ذلك بعضاً من وعي سياسي، رغم حداثة سنّي... كنت مرغمة ببساطة، على كل حال، على أن أفهم السبب الذي يجعل السماء تسقط فوق رؤوسنا، مرات عديدة في اليوم! مهما يكن الأمر، كان لابد من اتخاذ موقف، حتى لو كان هذا الموقف تجرّداً من أي موقف!... فأنت لا يمكن أن لا تكون فعّالاً في تلك الحرب، ما خلا أن تفقد حياتك.. كنت

أعرف من الذي يطلق القنابل، ولماذا كان يطلقها. وكنت بالتالي أحقد على أولئك الذين كانوا يقصفون، ولكن ليس على القنابل. . . لأن قنبلة من دون إنسان يطلقها، عديمة الخطر. . .

أ : لكن حتى لو لم تكن قد انفجرت، لما أُتيح لك سماع الصوت الذي تتحدثين عنه. . . ولا رؤية الألوان في السماء. . . فإن ما هو غريب، أن انفجار تلك القنابل بكل ما تشيعه من رهبة ومن هول كان يولّد لديك إحساسات محببة أو جميلة. . .

ن : هذا مؤكد.

أ : كيف يمكنك أن تفسّري أن بوسع المرء أن يرى شيئاً جميلاً في الأشياء المهولة المروِّعة؟ ؟ لا بد من التمييز بين الأشياء المروِّعة كالقنابل، وبين النتيجة التي يمكن أن تحدثها. خذي مثلاً أحداث ١١ أيلول/ سبتمبر لقد كانت كارثة، مأساة إنسانية. كانت نكبة كبرى لمدينة نيويورك ولسكانها. ولكنك حينما ترين مشهد انهيار ذينك البُرجين، وكيف اخترقت الطائرة في المرة الأولى مكاناً محدّداً فيهما، وعلى ارتفاع محدّد، وكيف جاءت الطائرة الثانية من الجهة الأخرى وعلى ارتفاع آخر. ثم ما أعقب ذلك من انهيار البُرجين. . . إذا تكلمنا من وجهة نظر جمالية، معتبرين ذلك مشهداً، فإن هذا كان من أجمل المشاهد التي أمكن للإنسان أن يصنعها. كيف يمكننا إذن أن نفصل بين ذينك الأمرين: المأساة الإنسانية، وجمال الصورة؟ هل ينبغي لنا رؤية الجمال بوصفه كذلك، مفصولاً عن كل ما عداه؟ تُرى، كيف رأيت، أنت، الحرب في بيروت؟

ن: بيروت، أو حتى أحداث ١١ أيلول/ سبتمبر تلك أمور رهيبة وكارثية. لا مُماراة في ذلك. حينما رأيت ذلك للمرة الأولى، اعترتني نوبة من الرعب. وطفقت أرتعد، ويرشح مني العرق، وتصطك أسناني. . . وقد أعياني الكلام. لم أكن أقوى على تخيّل «خارج إطار» الصورة، صوت الطائرة، دويّ الانفجار، الصرخات الذبيحة، الدخان الحالك، الزجاج المحطّم، البرج الذي اهتزت أركانه والتهمته النيران. . . إيه حسناً، لقد عشت ذلك الهول، عشناه في بيروت. في كل مرة كانت الطائرة الإسرائيلية تقصف الحي الذي كنا نقيم فيه، أو بنحوٍ أدق، المبنى الذي كنا موجودين فيه! باستثناء أن ١١ أيلول/ سبتمبر كان بُرجاً، وأن الطائرة كانت بوينغ، وأن الهول كان مضاعفاً عشر مرات. ومن ثم، قلت لنفسي، بعد الرعب الذي أوحت به إليّ الصور، إنّ الولايات المتحدة سترِدّ حتماً، وويل للعالم من ذلك الردّ.

غير أنني، وسط ذلك الهول المفزع، لم أستطع إلا أن أسلّم بأن المشهد كان آسراً. وأمام التلفاز كنت متجمدة، مذهولة عن نفسي. . . مشهد كالسحر! أدرينالين خالص يسري في عروقك، يثير هياجك، يقفز بحواسك من مواضعها.

أما ما عمَّق من تأثير ذلك «المشهد» فهو أن صورته تلك بُثّت مراراً وتكراراً طوال ثلاثة أيام كاملة، دون انقطاع، من قنوات التلفزة في العالم أجمع. في السابق حينما كان أحد الأحياء يريد التخلص من مبنى قديم، أو من كتلة من المباني الشائخة، فإن عملية إزالتها كانت تعرض في وسائل الإعلام،

ويشاهد الناس تفاصيل عملية نسفها بالديناميت. وهكذا فإن رؤية مبانٍ تنهار، تمثل مشهداً يأسر ألباب الناس.

ما رأيته في ١١ أيلول/ سبتمبر كان «شيئاً مشهدياً» لا نظير له، ولكنني احتجتُ إلى وقت قبل أن يتراءى لعينيّ في بُعده البصري كشيء جميل وآسر.

لعلّ ذلك كان نوعاً من الدفاع الذاتي. فلفرط ما كان مثيراً للقلق كنت مضطرة إلى جعله جميلاً، ورومانسياً، ومجنوناً. وأول ما نطقت به هو أنني من أشد المعجبين بأفلام الحدث ومشاهد الأهوال الأميركية. وها هم أولاء الأميركيون قد ضُربوا في عُقر دارهم، وسقطوا في شرك لعبتهم.

إن جميع الأفلام الأميركية من نوع «أفلام زمن الاستقلال» أو أفلام شوارزنجر، تتبارى في شلاّلات عارمة مجنونة، عشرات من الخُدع والحِيَل السينمائية العجيبة الغريبة. وها نحن أولاء، لأول مرة، نقف أمام فيلم واقعي بلا حِيَل ولا مكياجات... منذ حداثتي الأولى ما برحت أفلام الحدث الأميركية تهدهدني وتداعب أحلامي، وها إن أحداً صنع فيلماً أقوى منها جميعاً. وأنا أجد تلك الأفلام، الآن، غثة ومبتذلة... وهذا عائد بالتأكيد إلى أنني قد كبرت وتقدمت في السنّ... (ابتسامات).

أ: نعم، لقد كان السيناريو والإخراج مذهلَيْن. ولكن هل من الممكن مشاهدة مثل هذه المشاهد، وإضفاء قيمة جمالية على ألوانها وأصواتها. هل من الممكن رؤيتها من زاوية جمالية، بعيداً عما يمكن أن تمثله؟ من الضروري إذن الفصل بين الجانب

الجمالي والجوانب الإجرامية التي تتمخض عنها، تلك أسئلة يمكن طرحها بشأن لصّ من اللصوص، على سبيل المثال، يصنع أفلاماً جميلة، أو بشأن مجرم يكتب قصائد جميلة جداً. هل ينبغي رؤية القصيدة بالارتباط مع الشخص الذي كتبها والقول بأن هذه القصيدة رديئة لأن كاتبها مجرم.

ن: هذا صحيح، ولكن...

أ: نعم، بالطبع. هذا يطرح إشكالات ومعضلات أخلاقية...

ن: بالتأكيد. أنا أشعر بأن ذلك يمكن أن يكون خطراً جداً، وأنّ الانزلاق فيه بالغ السهولة واليُسر.

أ: إذن، ما العمل؟ وما الموقف الذي يمكن أن نتخذه؟

ن: لا أدري! هذا معقّد جداً. على كل حال، هناك الكثير من الرياء حيال هذا النوع من الأحداث... هناك الذين يصرخون، ويهتاجون بعنف قائلين: «هذا فظيع، وهذا مُدان!»، ربما لأن قسماً منهم هم أنفسهم قد استهواهم الحدث، أو حتى فتنهم... وهم يتوجّسون خيفة من انجذابهم إلى العنف، وهناك قسم آخر، يخشون أن يُتهموا وأنهم ليسوا من أنصار السياسة القائمة، لذا فهم يسارعون إلى إدانته بشدّة.

أ: ما تقولينه ليس واضحاً!

ن: هذا معقّد جداً في الواقع. أنا أعتقد بأنه يطرح إشكالية شديدة التعقيد. لابد إذن من مرور بعض الوقت لتحليل هذا النوع

من الأمور. لابد من انتظار بعض الوقت والتحدث عن فهم وتجربة. ينبغي أن ندع التجربة تتحدث. أفكر على كل حال، في أن لا نأخذ هذا على محمل الخفّة، وأن لا يرشح من الكلام عنه رائحة تحريض. لأن من يصغي إليك يمكن أن يختزل كلامك ويذهب به مذاهب شتّى...

أ: إذن، فلا يمكننا أن نتحدث عنه بصراحة. وهذا يعني أننا عاجزون عن قول الحقيقة، وحتى لا يمكن الإفلات منه على الإطلاق...

ن: أعتقد بأن الحديث عنه ممكن بشرط واحد، هو أن يكون المتحدّث معنيّاً شخصياً، أن يكون ضحية من ضحاياه مثلاً. أو أن يكون ناجياً من عواديه. فلن يردّ أحد بكلمة واحدة على حديث ناجٍ من البرجين التوأمين، إذا قال إنّ تلك التجربة كانت تجربة العمر؛ وأنّ ذلك كان الحدث الأشدّ أهمية من بين كل الأحداث التي وقعت له؛ وأن الضجيج كان مُصِمّاً بحيث أن الاستعراضات الموسيقية الأشدّ صخباً، مضافاً إليها ما لا أدري من أشدّ أنواع الضجيج هولاً، لا يعادل «بول قطة» إلى جانبه.

من المؤكد أن مثل هذا الكلام لا يقال على الفور، وإنما بعد انقضاء بعض الوقت... كنت أقول إنّ فترة الحرب في لبنان كانت هي أجمل سنوات حياتي. كنت أقول ذلك حتى لأشخاص فقدوا آباءهم أو فقدوا أصدقاء أعزاء عليهم. كنت أظن أننا نعذر الضحايا أكثر مما نعذر غيرهم، وأن لديهم ملء الحرية... لأنهم من دون ريب، يملكون مشروعيةً في أن يتحدثوا ما شاء لهم

الحديث عن مثل هذا النوع من المآسي، حتى لو كان يخالط حديثهم عنها شيء من الافتتان. مهما يكن من أمر، فأنا لا أستطيع أن أفهم لماذا لا نتحدث عن مثل هذا النوع من الكوارث إلا بشيء من الافتتان والتهيُّج. فحينما نبلغ حدود قوانا الجسدية أو العقلية، نتلقى صدمة، ونختبر حالة قُصوى من الذعر... ويتشكل لدينا انطباع بأن جسدنا سينفجر من الداخل، حتى لو لم يُمسّ. أنا أعلم بأننا نغدو «كمتعاطي المخدرات» حيال هذا النوع من الأحاسيس، حتى لو لم نكن جنوداً مقاتلين... من المعروف أن الجنود أو عناصر الميليشيات يغدون أشبه بـ«بمتعاطي المخدّرات» حيال الموت، ويجدون في الغالب مشقة كبيرة في العودة إلى الحياة الطبيعية، ولكنني أعتقد بأن الضحايا هم أيضاً على الغرار ذاته. لقد احتجت إلى عشر سنوات أو خمس عشرة سنة كي أستبدل ذلك الأدرينالين الذي كنت أستشعره لدى كل قصف، ولدى كل مواجهة مع الموت. من الصعب على المرء الانتقال من مدينة تصطلي بنار الحرب كمدينة بيروت، حيث يجازف بأن يلقى منيّته في كل يوم، والقدوم إلى باريس حيث لا يصادف شيئاً من ذلك (أتكلم هنا عن قصف القنابل، بالتأكيد) إلا إذا غدا، ربما، قاطع طريق، أو قاتلاً سفّاحاً، أو مغتصباً للنساء، أو بائع مخدّرات... (ضحك)

أجد الآن أنّ حظاً عظيماً قد حالفني، لأنني تمالكت نفسي واستهديت بحدوسي، وتعلقت بالفن... لم يعطني الفن شحنات الأدرينالين نفسها أو سيول العرق البارد التي كانت تنضح مني خلال الحرب. ولكنه أفادني في جعلي أواجه ذاتي وجهاً

لوجه. . . لقد غدا مبرّر حياتي. ففي الثالثة والثلاثين من عمري وجدت أخيراً الدافع الذي يجعلني أنهض من نومي في كل صباح. أما في ما مضى فكان علي أن أعثر لنفسي على دافع كي أبدأ نهاري.

أ : إذن لماذا حين نكون في قلب هذا النوع من الحدث، يمكننا أن نتحدث عنه؟ وليس من خارجه؟ أنا أيضاً لست على يقين من ذلك، هذا رهن الظروف. هل رويت لك ما حدث مع شتوكهاوزن؟

ن : بشأن ١١ أيلول/ سبتمبر؟

أ : لقد عبّر العديد من الأشخاص عن الجانب الدنيء في تلك العملية، عن الجانب الإجرامي والمتعصب في هذا الاعتداء. غير أن هناك جانباً آخر لم يتحدث عنه أحد، ألا وهو أن هذا الاعتداء كان الفعل الأعظم مشهدية في كل الأزمان! هذا ما قاله شتوكهاوزن. وقد دفع غالياً جداً ثمن كلامه هذا. لقد قوطع من قِبل الجميع، ولم يتمكن من حضور مهرجانٍ كان قد دُعي إليه سابقاً. إنه، مع ذلك واحد من أعظم المؤلفين الموسيقيين الأحياء، ورغم ذلك فقد قاطعه الناس مقاطعة شاملة!

ن : ولكنه لو كان واحداً من الضحايا فلن يكون الأمر على المنوال نفسه.

أ : ولكنه لو كان في داخل الحدث، لما تمكّن من رؤية المشهد. . .

ن : ما تقوله الآن يعيدني إلى التفكير في شيء بالغ الغرابة. . . فقد عشنا في لبنان في قلب الأشياء، ولكن أن يروي لنا أشخاص آخرون عما رأوه ينزل بنا، وأن يكونوا قد رأوا قنبلة تصطدم بمبنانا، أو رأوا سيارتنا تتعرض لهجوم من قبل رجال مسلحين بالكلاشنكوف، فإن هذا يحوّلهم إلى متلصّصين سلبيّين. . . أو كأنهم يشكلون مرآة لنا.

أ : أشك في ذلك. لأن الجانب الأخلاقي في داخل المجتمع يتغلب في الأعمّ الأغلب على الجانب الجمالي. من الصعب انتهاك الجانب الأخلاقي. من الصعب أن يكون لدى أحد القدرة على أن يقول كل ما يخطر له، وأن تكون لديه الحرية في التفكير.

ن : نعم، لا أدري. . .

أ : السؤال الذي يُطرح إذن هو التالي: هل ينبغي لنا أن نغلّب القواعد الأخلاقية على القواعد الجمالية؟

ن : المعضلة هي أنّ الجمالي شيء نسبي كلّياً، ويمكنه أن يقود إلى انحرافات مروِّعة. . . فباسم «فكرة ما عن الجميل»، أو باسم فكرة معيّنة عن الكمال والنقاء العرقي، أباد النازيون ملايين الأشخاص من اليهود، والغجر.

أ : باسم الجمال أم باسم الأيديولوجيات بالأحرى؟

ن : باسم الأيديولوجيات، بالطبع، ولكنّ هناك كتباً تتحدث عن كيفية التعرّف إلى يهودي، من خلال رسوم لملامح الوجه.

ومن ثم فقد كانت هناك جمالية فاشيّة شائعة في الحشود الهائلة من الجماهير، وفي الأزياء الفاشيّة، وفي العِمارة. فالجماليّة يمكنها إذن أن تكون خطرة.

أ : هذا صحيح. ويمكن أيضاً ارتكاب فظاعات باسم الأخلاق. من الممكن أن تكون الأخلاق شيئاً مغرقاً في الرجعية. يمكنها أن تصادر حرية الفرد، وتفرض قواعد مستحيلة، لا تُطاق، ولا إنسانية.

ن : نعم، على منوال «طالبان»، مثلاً.

أ : نعم. فباسم أخلاقية معيّنة يمكن تدمير مجتمع بأسره، وتدمير الإنسان. وتدمير ثقافة بأسرها، أو حضارة بأسرها.

ن : مثلما حدث في العصور الوسطى، مع الكنيسة وسلطتها اللامحدودة آنذاك، وفي عصور محاكم التفتيش في أوروبا (مع ملاحقة العلماء والساحرات وإحراقهم). وفي أميركا الجنوبية (مع المجازر ضد الهنود الحمر على يد المستوطنين البيض).

أ : هذه، على كل حال مسألة دقيقة تظل مطروحة.

توقّف الحوار هنا، واستؤنف في ما بعد.

ن : كثيراً ما كنت تغيب عن البيت. تسافر للتعليم في الولايات المتحدة، أو في فرنسا. تقوم في كل وقت بمحاضرات وأسفار. وحتى عندما تكون في البيت تظل عصيّاً على الإمساك والإدراك، مستغرقاً في عالمك وفي أحلامك، وفي ما لا أدري. كنت تضطرّني إلى البحث عنك داخل الأشياء والأشخاص دون

أن أتمكن من قراءتك... كان يتملّكني فجأة خوف من أن أجدك، لأني ما كنت أرغب في العثور على الشاعر، كنت أريد قبل كل شيء أن أجد فيك الأب... ومعك وبدءاً منك ولِد لديّ هذا الشعور بالغياب داخل الحضور... هذا ما قرّبني، أو ما دفعني إلى الاهتمام بالصوفية... في شعر ابن عربي، أو الحلاج (لم أكن أحب جلال الدين الرومي) كان هناك ذلك الرابط بين المرئيّ واللامرئيّ. كان عليّ أن أجد تفسيراً لعدم قابليّتك لتكون مرئياً. كان علي أن أضعك في نطاق الواقع، أو داخل واقعية الحياة اليومية. لهذا، فضّلت الحلم أو الأشياء اللامادّية المجرّدة... فضّلت رؤيتك في ما وراء الأشياء، وفي ما وراء المظاهر البادية للعيان. فضلت أن لا أرى الأمور على أنها نهائية، وأن أكون إذن في حركة دائمة، وفي بحث دائم عن المعنى، عن الحضور، عن المطلق... من هنا جاء عملي، وأحب دائماً أن أعود إلى عملي. إنه اليوم عمود حياتي. قلت لي دائماً: «لا ينبغي لك الذهاب في اتجاه الناس، لأن الناس يبدّلون رأيهم ومنحاهم. عليك أن تكوني النواة التي يلتفّ حولها الناس». وجدت هذا، دائماً، مستحيلاً ونُسكياً. ولكنني اليوم أبني نفسي، أؤسّس نواة. هكذا نكون في نهاية المطاف. حرّضتني كي لا أرتضي بالأشياء المقررة والجامدة.

أ: أما كنت تسألين نفسك أيّ سؤال عن غيابي وحضوري. أما كنت تتساءلين لماذا كنت ترينني غائباً في كل وقت؟

ن: لا أتذكر. . .

أ : أما طرحت على نفسك أيّ سؤال. أما فكرت مثلاً في أن هناك مشكلات في المنزل؟

ن: لا! حينما يكون المرء صغيراً، لا يمكنه أن يعرف. . .

أ : أما كنت تفكرين في هذا النوع من الأشياء؟

ن: لا، على الإطلاق، ما كان بإمكاني أن أعرف، ما كانت لديّ التجربة. . .

أ : لأن هذا النوع من الأشياء ليس مجّانياً. فحين تغيبين على هذا النحو، فلا بد من أن تكون هناك أسباب. جوّ خاصّ يكتنف المنزل، مُعضلة في مكان ما. . .

ن: نعم، بالتأكيد. . . ولكنني في تلك الفترة كنت عاجزة عن فهم هذا النوع من الأمور. وحين أقوم بمراجعة ختامية اليوم، حين أعيد ربط كل ذلك، أقول لنفسي ربما بفضل هذا توجّهت نحو مجال الفن. . . كان ينقصني الكثير من الأشياء. ولكنّ ذلك نمّى شخصيّتي، وصنع مني شخصاً يمكنه أن يتطلّع إلى العمل الفني. . . لا أدري كيف يمكنني التعبير عن ذلك. . . الزمن يمرّ، وأنا «أشتغل على نفسي» كما يقال. . . وأدرك أنه كان لديّ افتقاد للحنان، ولا أملك بعد الكثير من الثقة بنفسي، ولكنّ هذا هو ما يتيح لي أن أخلق وأن أبدع. لأن القدرة على الخلق والإبداع، في رأيي، هدية عظيمة، حظ خارق، ولو لم يكن لديّ ذلك لسحقتني عجلات اليأس، وكانت حياتي لا تُطاق.

أ : هذا في منتهى الأهمّية. . . ولكنّ كل ما تحدثت به، هل أتاح لك أن تعملي بوحي منه، بحسب إمكانياتك ومزاجك؟ أم أتاح لك أن يكون لك كون حقيقي، عالم خاص بك؟

ن : هذا «العالم» أعني عالمي، بنيته حجراً حجراً. . . إنه ليس «عالماً» يبدو هكذا، مبنياً بطريقة عفوية تلقائية. . .

أ : نعم، هذا صحيح، ولكن ينبغي أن يكون هناك شيء ما في قلب الإنسان، في داخله، وفي رأسه، شيء ما يلازمه كظله، ويلاحقه دون هوادة.

ن : شيء ما، نعم، ولكنك لا تعلم كُنه هذا الشيء. لا تعرفه مسبّقاً. . . لهذا فإنني أعمل أحياناً شيئاً ما، (فيديو، أو صوراً. . .) ثم أفاجأ به أنا نفسي وأدهش له. . . أرى أن فيه شيئاً ما جديداً، عنصراً جديداً ولِد في عالمي، هذا بالغ الروعة!

أ : نعم. تلكم مسألة وقت. . . ولكن إذا عدت إلى سؤالك، هل تعتقدين بأن الأشياء التي نعيشها في الطفولة هي التي تقودنا في خياراتنا التي اخترناها، أكثر مما تقودنا الخبرات الثقافية واللقاء مع الآخرين.

ن : يمكن للطفولة فعلاً، أن تغدو عبئاً ثقيلاً. . . غير أنه في غياب التجربة، وفي غياب الناس الذين نلتقيهم على درب حياتنا والذين يفجّرون في داخلنا الذكريات التي تشكّل صدانا ورجع أيامنا، فإن الطفولة، بحدّ ذاتها «شيء» يبعث الملل والكدر. . والأحرى أنّ لقاء الآخرين، مضافاً إليه تجارب الحياة التي عشناها

في كل يوم، هي التي تردّنا إلى طفولتنا. . . وحينذاك تغدو طفولتنا شيئاً مثيراً للغاية. بدون ذلك تكون عبئاً ثقيلاً لا قِبل لنا باحتماله. . . ذلك أن تجارب الحياة، ولقاء الآخرين يتيحان لنا أن نحوّل طفولتنا من «شيء» مضى وانقضى، من شيء عراه الجمود وأغرقه الحنين إلى حاضر ومستقبل مثير. . .

توقّف الحوار هنا، واستؤنف في ما بعد.

ن: أعلم بأن عالمي الفني لا يهمّك كثيراً، فأنت لا تجد فيه ما يكفي من «الفن»، وحتى لو قلت لي ذات مرة إنّ أفلامي كانت قصائد خالصة. وقد أدركتُ أنني كنت أحاول أن أصنع قصائد على طريقتي. أحب أيضاً أن أشغل الفراغ، وأن أستخدم الجسد، والصوت، والأشياء اليومية، أن أخرجها إخراجاً فنياً، وأن أخلق فراغات خيالية جديدة، متقلقلة، أو في تغيّر دائم. أحب عالم الحيوانات، العناكب والحشرات، حتى لو كنت نشأت في عالم حافل بالفنانين. فجميع أصدقائك، إن لم يكونوا شعراء، أو كتاباً، أو نقّاداً أو فلاسفة، هم رسامون أو نحّاتون. ولكنك لم تختلط إلا بأقلّ القليل من السينمائيين أو الموسيقيين، والأحرى من الموسيقيين الذين لا يؤلفون غير الموسيقى التقليدية. أنت شاعر، كلُّ دأبه تحديث الشعر العربي. مع ذلك تحيط نفسك برسّامين ونحّاتين من مدارس كلاسيكية غابرة، وبلوحات من الرسم التجريدي بطبقاته المتعددة من الألوان «القوية»، و«النافذة» و«المؤثرة» التي تعبّر عن «كل الشعر والوجع

في المنفى»، أو التي تعيد ابتكار التراث الثقافي «لمصر القديمة، أو لبابل مع كتابتها المسمارية»، أو «لعالم البدو والصحراء»، أو للعمارة التقليدية للمدن العربية القديمة، إلخ. أو تستلهم بشكل ناضج أعمال فنانين من بدايات القرن في أوروبا، من أمثال «ماتيس - ميرو - بيكاسو - شاغال - كلي - كاندنيسكي، تابييس - باكون»، في ما يخص الرسم، و«برانكوزي - جياكوميتي - مور» في ما يخص النحت، حسبي ما رأيت من كل هذه الرسوم التي لم أُفلح في تمييز فرادة فنان فيها، مادامت كل هذه اللوحات تشترك في مراجعها... أما ما يقوله نقّاد الفن العرب، فيمكن أن ينطبق على كل هذه الرسوم، على السواء، ما خلا، بالتأكيد، فنانَيْن أو ثلاثة، يتمتعون بأسلوب خاص، وينخرطون جسدياً وروحياً تقريباً، في لوحاتهم، (مثل مروان مثلاً). فأنا لم أر الجسد في كل هذه الأعمال، ولم أر تجديداً ولا مجازفة ولا موقفاً محدداً تجاه العالم. وفي الوقت ذاته، فإن هؤلاء الفنانين كانوا راغبين أن يكونوا شعراء، أو كتّاباً، أو نقّاداً للفن، الخ. كيف كنت تريد مني أن أجد لنفسي موقعاً في كل هذا... كان هذا يثير سأمي على الفور، ومن أعماقي، كنت أقول لنفسي دون أن أعرف ذلك: «أنا على يقين (أو آمل أن أكون كذلك) بأن شيئاً ما آخر لابد أن يوجد، شكلاً آخر للفن». ومنذ وصولي إلى فرنسا اكتشفت بعض أشكال المسرح/ الرقص، مثل بينا باوش، وذلك عندما اصطحبتني أختي أرواد لمشاهدة عرضها عام ١٩٩٠، أو فرقة البيتو، الياباني الحديث، في عرض سانكاي جوكو، أو مسرح بوب ولسن، إلى أن جاء يوم زرت فيه

نيويورك، برفقة أختي أرواد دائماً. وقد اصطحبتني لرؤية فنانة/ تؤدّي «برفورمانس» تُدعى كلود وَمبلر. شدهت كلّياً بما رأيت. وقلت لنفسي: «هوذا! هوذا ما أريده!» كان ذلك أشبه بالكشف. ومنذئذ، لا أدري ما الذي فعلته بي تلك المرأة، ولكنه، على كل حال كان لقاء حاسماً بالنسبة إليّ. ومع أرواد أيضاً كنت أشاهد أفلام فيديو، كانت تختارها، أو كنا نستأجرها في بيروت خلال أيام الحرب، أفلاماً لفلّيني وبازوليني، وهيتشكوك أو حتى فيلم إميل لوسيانو: «الغجر يذهبون إلى السماء» الذي ألهمني برفورمانس ـ فيديو... كل تلك الصور ظلت منقوشة في داخلي، وساهمت في بناء عالمي. ثم تطور هذا الانفتاح بالطبع، في ما بعد، من خلال الانكباب على دراسات وأبحاث فنية، واللقاء بأساتذة أخذوا بيدي وقادوني نحو الفن الراهن، وأقمت مسافة أكبر بيني وبين أصدقاء عائلتنا من الرسامين، وأدركت أن ما كنت أبحث عنه كبديل، إيه حسناً، هو هذا الفن الذي أسمّيه «الفن المعاصر».

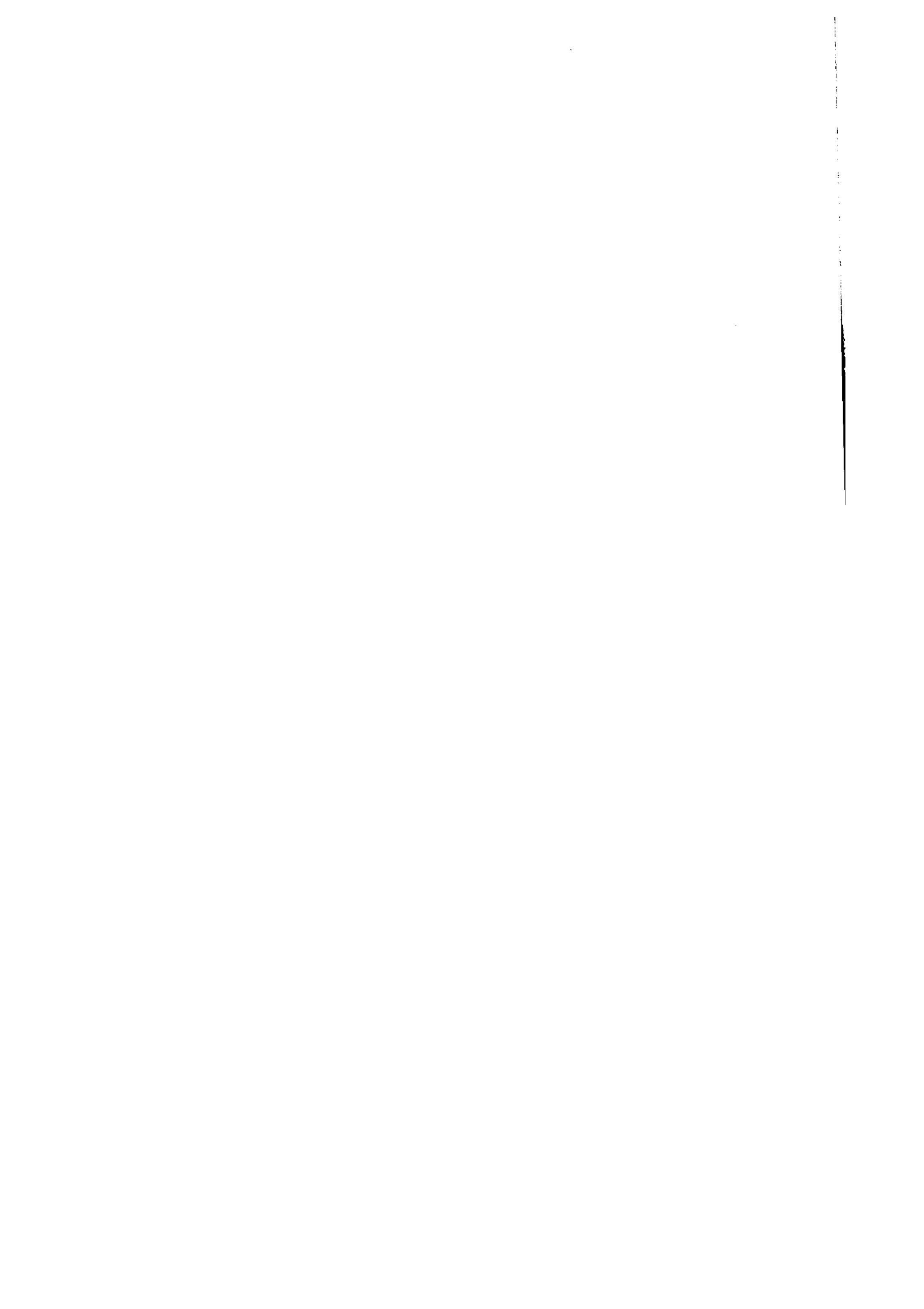
أ : قدّمت الآن ما يشبه سيرة ذاتية تكشف عن أذواقك الفنية، وعلاقتك بالفن، ولكنك حين تقولين: «الفن الكلاسيكي» فما الذي تعنين به؟

ن : من المؤكد أن بعض المصطلحات التي استخدمتها ليست مصطلحات علمية. فالكلاسيكية في تاريخ الفن تعني شيئاً آخر. حينما أقول «كلاسيكي» فأنا أعني بذلك ما هو متفق عليه، ما هو عام، مثلما نراه في كل مكان في العالم. ثمة أحياناً فروق

دقيقة، فهناك فن أكثر «بنيانية»، وآخر أكثر «تكعيبية» وآخر أكثر من «هذا» أو «ذاك». ولكنني ربما كنت أيضاً أتوقع من أصدقائك شيئاً ما أكثر إدهاشاً، أو شيئاً يبلغ من الإدهاش ما بلغه عملك مع الشعر الكلاسيكي، شيئاً جديداً كل الجِدّة. غير أن الرسامين والنحاتين الذين نعرفهم لم يقدّموا أي شيء جديد. فقد كان رسمهم ونحتهم يسئمني حتى الموت. وحتى اليوم أيضاً ما انفكّوا يُسئمونني. كنت أرى رسامين يرسمون اللوحة نفسها، ونحاتين يصنعون المنحوتة ذاتها. كانت هذه الأعمال تُضجرني ولم تكن تُثيرني، لم تكن تُغذّيني. لقد كان فناً مسطحاً... فيما كنت أنا بحاجة إلى الدهشة، بحاجة إلى الحلم.

أ : نعم. ولكن حين تشاهدين هذا الفن العربي الحديث فكيف تحاكمينه. وبالقياس إلى ماذا؟ هل تحاكمينه بالقياس إلى ما هو عليه، أم بالقياس إلى نماذج أخرى لديك موجودة في ذهنك؟

ن : أحاكمه بالقياس إلى الأسئلة التي أطرحها على نفسي، بوصفي فتاة يافعة، خلال الحرب، بوصفي شخصاً من الناس كان بحاجة إلى الحلم وإلى التعلم. شخص متعطّش إلى الحياة. كان لديّ الانطباع بأنني أرى رسوماً ولّى زمانها، رسوماً لجيل آخر. ولم أفكر، مع ذلك، في أنّ هذا يرتبط فقط بمشكلة أجيال. ذلك أن تلك الرسوم لم تكن دائماً توحي لي بشيء.



خاتمة

نظرتُ دوماً إلى الفضاء على أنه متقلقل وعابر، إلى صورة الفضاء الذي تخلقه الحرب أو يخلقه العماء والفوضى. لم نكن نعرف إن كانت قنبلة ما ستسقط فوق رؤوسنا، أو فوق رؤوس جيراننا، إن كانت ستدمّر فضاءنا أو فضاء الآخرين، ستختطف منا ذراعاً أم ستختطف ساقاً.

نُغلق جميع المصاريع، نضع كل الحشايا في الرواق أو أمام النوافذ، نحني قاماتنا حين ندخل المطبخ كي نتفادى طلقات القنّاصين. فضاء تجتاحه الميليشيات أو يحتلّه جيش الاحتلال. فضاءٌ محتلّ. فضاء مدمَّر، فضاء متقلقل، وهشّ.

«حضور لا يقرّ له قرار، هو حضورك، أو حضور الآخر».

لقد حاولت في أعمال البرفورمانس أن أسيطر على الفضاءات المتقلقلة، عبر إعادة تحديدها، وشغلها بجسدي، وبأشياء كنت أعيد تحديدها: (كراسٍ، حبال، حُصر، سلالم، مصابيح وأشياء قاطعة مدبّبة، متوعّدة) تحدوني الرغبة في إخضاع ما هو غير مستقر، وما هو عابر.

حاولت خلق فضاء جديد مفاجئ، أؤثّثه أنا، بأشياء، وحكايات، وحضورات. وكذلك بغيابات على الأخص، بالتمنّع وبالإغراء (كي أجتذب الآخرين إلى داخل فضائي ومن هنا ينبع حبّي للعناكب) حاولت أن أضع جسدي موضع المراقبة؛ جسد ساكن دون حِراك ولكنه ينتهي إلى أن يصير مراقِباً هو بدوره.

حينما تدخل رصاصة طائشة داخل حجرة، فنحن لا نعرف من أين تمرّ، ولا نعرف ما الذي ستخترقه أو مَن ذا الذي ستخترقه... ربما تمرّ عبر السقف، أو عبر الزاوية اليمنى من النافذة، من أركان أو من مواضع غريبة وجديدة... هذه الرصاصة الطائشة، أو هذا الانفجار الذي أحدثته القنبلة يجعلنا نعي فجأة وجود تلك النقطة التي تقع على بعد سنتيمترين من يسار الباب. تلك النقطة ما كانت قط موجودة سابقاً، فنحن لم نرها في أي يوم من الأيام، ولم نشتبه في وجودها قطّ...

إن القذائف من كل صنف ولون، قذائف الرصاص، أو القنابل أو أشلاء الأجساد، ترسم صوراً داخل الفضاء العام أو داخل الفضاء الحميمي الخاص للناس. إنها تشكّل اجتياحاً غير متوقّع، يتحدّى قوانين الجاذبية، والعِمارة.

أعتقد أن هذا النمط من العماء قد وسمني بميسمه، وخلّف فيّ أعمق الأثر. لقد منحني الرغبة والحاجة إلى أن أنتج أشكالاً ممتدة (وغير متوقعة) داخل فضاءات لا على التعيين، مع الحفاظ على ذلك المظهر للشكل المعلّق في الفراغ.

ولا يُعرف إن كان هذا حدثاً يبدأ، أم حدثاً ينتهي، أم أنه ما يزال جارياً في مجراه... ننتظر، نفقد الصبر، و ذلك يثير توتّراً أتقاسمه وجمهور المتفرّجين.

باريس، تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٣
أيلول/ سبتمبر، ٢٠٠٤

«هل تعتقد أنه بالإمكان العيش من بعد والد مثلك؟ وبخاصة في عالم عربي يمرّ بأزمة خطيرة، اجتماعية وسياسية ودينية وفكرية، مع ما يرافقه من تعصّب سخيف ومدمّر؟»

تستجوب «نينار إسبر» والدها، الشاعر أدونيس، على مدى عشر مقابلات حميمة جداً، حول نشأته وثقافته وعلاقته بالإسلام وبالشعر وبوطنه سوريا وبلبنان، حيث كانا يعيشان حتى بداية الحرب؛ وحول المرأة والحجاب والديانات التوحيدية والإرهاب.

أما أدونيس، وهو المعادي تماماً لأي إطار ديني، ولأيّ تعصّب عموماً، فيتحدّث ببساطة عن الجنس والرغبة والزواج والإخلاص والصداقة والشهوانية، وبالطبع عن الخلق.

من جهتها، فإن «نينار»، الشابة الاستفزازية والصادقة، تنتقد بشدّة النظرة إلى المرأة في البلدان الإسلامية.

هو درس مزدوج في الحرية.

نينار إسبر فنّانة تشكيلية مقيمة في فرنسا. وهذا الكتاب هو أول مؤلّف مشترك بينها وبين والدها أدونيس.




ISBN 978-1-85516-366-9